منشية البكرى

تأليف

فتحى سلامة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٢

الاخراج الفنى : محمد المحجوب

الفصل الأول

(١)

انحدر بفرسه الأشهب من على تل الجبل ، كان قلبه يدق ، ويده ممسكة بالبارود ، وأمامه يجرى فى مراوغة ذئب أسود ، اضناه الجوع ودفعه ملتمسا طعاما من منشية البكرى ، لم يكن الذئب ، يعلم أن للقرية حارسا ينتظر تلك الغلطة التى ارتكبها الذئب الجبلى ، فراح مسرعا خلفه لايريم عنه ، حاول الذئب الفرار ولكن الأرض المنبسطة امامه لم تسعفه ، وتلك النباتات الصغيرة ذات الأشواك لاتخفى سوى مخالبه ، والفارس لا يهمد وحصانه كذلك ٠٠ كان الذئب يود أن يقف ويعتذر ، ان ينجو بحياته ، انه فعلا اخطأ ، لم يكن يدرى أن تلك البيوت الحجرية بها مثل هذا المتربص اليقظ ، ناوشه قدر ما يستطيع ، والفارس يتعقبه فى مثابرة ، وان كان قلبه يدق لطول تلك المناوشة الا ان وجه (غزالة) الذى يرق أمامه

كشهاب حط لحظة امام عينيه ، أنساه تلك الرعشة التى المت به ، وجعلته يتنفس بصعوبة ، وأطلق بندقيته ، وتخبط الذئب بين جرية وتعثره ثم قام باحثا عن نجاة ولكن الفارس لم يمهله ، وأطلق عليه رصاصة اخرى ، ونام الذئب ، وبطنه تعلو وتهبط ، وعندما اقترب الفارس منه ، كانت أنفاسه هو الآخر فى لهاث ، ودفع فوهه البندقية فى جسد الذئب فلمعت عيناه ثم تحجرت ، وكف جسده عن الارتعاش

(٢)

لما كانت غزالة قد خرجت لتوهها من بوابة الدار الخارجية ، هرولت نحو بيت عمها ابراهيم ، وخلفها فتيات من أترابها ، يحاولن اللحاق بها ، ورغم أن غزالة كانت تحاول الا تجرى فى هرولتها حتى لاتلحقها السنة العجائز ، الا انها استطاعت ان تصـــل الى (البحراية) التى أمام دار عمها قبل كل الفتيات واستطاعت ان تلمح (بكرى) وهو يعدو بحصانه نحو (المنشية) رافعا جثـــة الذئب فوق كتفه ، توقفت غزالة وقلبها يدق فى رعونة كأنه طير صغير سقط من فوق الشجرة قبل أن يتعلـــم الطيران ٠٠ ارتبكت غزالة عندما كادت رأس الحصان تلمسها ، جذب بكـــري عنـــان حصانه ، وقال صائحا :

– هو لك ياغزالة ٠

ورمى جثة الذئب امام قدميها ، وضعت غزالة قدمها اليمنى على جثة الذئب ، صاحت فى طفولة :

– انظرن يابنات ماذا فعل ابن عمى !

تحلقت البنات حول بكرى على حصانه وغزالة التى تضع قدمها اليمنى على جثة الذئب ، اختلطت الضحكات مع الكلمات ، ظلت الجميع ، خرج الحاج ابراهيم من الدوار وصاح :

ـ تعالى يابكرى ·

مضى بكرى يشق حلقة البنات التى تحلقت حوله ، وما كاد يصل الى ابيه حتى ترجل مسرعا ، وترك لجام فرسه فاذا هى تندفع نحو دار البكرى ، أما الفارس فقد وقف امام والده فى ولاء ، تشاغل الأب عنه لحظة ، ثم قال :

ـ لا احب لك هذا ، ادخل واجلس مع الرجال ·

مشى نحو الداخل ، بينما ظل الاب ينظر الى البنات اللائى تحلقن حول غزالة ، وكان يتذكر أيام شبابه ··

(٣)

* لم يجد (عدوى) بدا من العودة ، فقد أنهكه التعب ، واجهده السير بفرسه فى شعاب الجبل ، فادار عنانه ناحية المنشية ، واطلقه يمشى على مهل ، لاحظ ان الأحجار الجيرية التى تغطى الجانب الأيمن للجبل تبدو متهرئة للغاية ، وانها تكاد تتساقط على دور المنشية ، وعندما اقترب من (سطوحى) العجوز الذى كان يجلس على رأس تل مرتفع يرقب مغزله وهو يعمل فى رتابة توقف عنده وقال :

ـ هذه الأحجار تبدو على وشك السقوط ·

رفع سطوحى العجوز رأسه ونظر الى حيث أشار عدوى ، لم يجد جديدا فلزم الصمت ، قال عدوى محذرا :

– أخاف أن تسقط عليك ياعماه ٠

ولكن عمه لم يرفع رأسه ، راح يرقب المغـــزل فى اهتمام ، اضطر (عدوى) الى أن يواصل سيره نحو المنشية ، فكر فى أن يقول هذا فى مجلس الرجال بعد صلاة العشاء ، ولكن طيف غزاله جعله يفكر فيها أكثر ، سوف يتحدث مع أبيه فى هذا الخصوص ، بل سوف يدفع بأبيه لكى يقابل عمه ويخطب له غزالة ، وأســـعده هذا الخاطر الى حد بعيد ، ولكن ما كاد يستريح له ، فاذا بذبابة تطن فى أذنه ، ان أباه مطرود من حضور جلسة الرجال بعد صلاة العشاء ، أبوه يأتى بالأعمال التى لايقرها الرجال فى (المنشية) ، عدوى لم يعد يفهم سر أبيه ، فى طفولته وصباه كان يسعد بمـــا يفعله الأب ، وكانت لأبيه سطوة خاصة ، فهو وحده الذى يهبط الى الوادى ويذهب الى البندر ، بل ويبيت فى بيوت الأكابر ويعود اليهم محملا بأصناف شتى من الطعام ، كان (عدوى) يحملها الى غزالة ابنة عمه وبكرى ابن عمه ، كان لا يأكل شيئا دونهما ، فاذا سألت غزالة عن اسم الطعام الذى يحمله ، يقول :

– أبى يقول أن الناس فى البندر يأكلونه ولهذا فهم سعداء ٠

ساعتها ضحك بكرى وقال :

– نسميه طعام السعادة ٠

ولكن عندما كبروا عرفوا أن أباه يسرق الطعام ولا يأخذه برضاء أصحابه ، وأنه يعمل مع المطاريد ، ولم يعد عدوى يحمل طعام أبيه الى أولاد عمه ، بل لم يعد يأكل منه ، وبعد تلك الليلة

المشئومة لم يعد يتحدث الى ابيه كثيرا ، وذاكرته لا تريد أن تنسى تلك الليلة ، كان نائما تحت القمر على سطوح دارهم ، وسمع صوت عمه ابراهيم وهو يصرخ بأعلى صوته :

ـ أنت ملعون .. ملعون ..

وقفز عدوى ناحية الصوت ، فاذا بأبيه وقد انزوى فى ركن البحراية أمام دار البكرى دون حراك ، وعمه الكبير البكرى يرفع يده ويهوى بها على وجه أبيه وبينما عمه الآخر يلعن أباه ، والناس من حولهم صامتون ، اندفع عدوى نحو عمه فاستدار العم الكبير وصرخ فيه :

ـ ابتعد أنت ..

أمسك به الرجال ، كان جسده ينتفض ، وهو يرى عمه الكبير يكيل لأبيه الصفعات وأبوه واجم صامت ، والناس من حـــوله ، يقولون :

ـ لم نكن ندرى انه سوف يسرق أهله أيضا .

فى اليوم التالى كان عدوى قد عرف الحكاية ، وكان قــرار المجلس بابعاد ابيه من المنشية لمدة عام يعود بعده الى داره يلزمها ولا يبرحها ، ويترك أولاده عند أخيه الأكبر ، وهكذا عاش عدوى مع بكرى ، وان كانت الصدور تحمل هما لا طاقة لها به الا ان القلب عشق غزالة ، وهام بها ، واصبحت كل دنياه وآماله ، رغم أن لغزالة ميلا خاصا نحو بكرى ، الا أنه يأمل أن يكون هواها معــه هو ، فهو الذى يرعاها دوما ، والم ينقذها ذات مرة من رعونـــة الجمل (معتوق) عندما ثار وهجم عليها ، كاد يفتك بها لولا سرعة بديهة عدوى وشجاعته لكانت الآن فى ذمة الله ، لقــد انقذها من

الموت ليس فقط من رعونه جمل ، بل من افتراس ذئب جبلى ، كاد ان يفترسها لولا سرعة عدوى ـ أيضا ، يومها ارتمت على الأرض وظلت تصرخ وتبكى حتى حملها عدوى وسار بها ووضعها فى فراشها وأحضر لها الخالة ترك التى تولت علاجها من خـــوف يكاد يودى بحياتها ، يومها قالت ام غزالة :

ـ يخلق من ضهر الفاسد عالم ٠

ومن يومها والمنشية تتعامل معه باحترام شديد ، بل لايكاد يقبل على بعض منهم حتى يقفوا له فى احترام وتقدير ، أليس هذا كافيا لكى يزوجوه من غزاله !

(٤)

امسكت كل بنت برجل من ارجل الذئب ، بينما امسكت غزالة بسكين حاد رفعت يدها فى ثبات ثم هوت بها فشقت بطن الذئـب واخرجت القلب ، صاحت احداهن :

ـ من يأكل قلب الذئب لايخاف ابدا

قالت غزالة :

ـ سوف نعطيه لبكرى

ضحكت البنات فى تخابث قالت احداهن :

ـ لو كان فى حاجة الى قلب الذئب حتى الآن ما اصطاده ٠

قالت واحدة فى جد شديد :

ـ ارى ان نعطيه لمهران السيد

جفلت بسيمة وسقطت طرحتها السوداء ، قالت غزالة :

.. فعلا ، من يتزوج بسيمة يحتاج الى هذا القلب ٠

صاح عدوى :

ـ وانا سوف اشرف بنفسى على اطعامه هذا القلب ٠

ارتعدت البنات عندما سمعن صوت عدوى فجأة ٠٠

ضحك عدوى فى خشونة ، قالت غزالة فى تحد :

ـ وما لك انت ؟ !

ارتبك عدوى لحظة ، ولكنه تمالك نفسه وقال :

ـ حتى يقدم لى قلب ذئب فى يوم عرسى ٠

ارتفعت ضحكات البنات ، اسرعت غزاله هاربة الى دارها ، الم الحزن بقلب (عدوى) اضطر الى ان يكمل سيره نحو دارهم ، هناك وجد اباه جالسا فى استرخاء فى وسط الدار ، امامه موقد النار ، صاح عندما رأى عدوى :

ـ الم تصد ذئبا انت ايضا يافارس القبيلة ؟ !

ترجل عدوى وترك حصانه يسرع نحو مربطه نظر الى ابيه وقال :

ـ اريد ان تخطب لى غزالة ابنة عمى ٠

وجم الأب ، همس بعدة كلمات غير واضحة ، ولكن عـدوى اسرع نحوه وردد ما سبق ان قاله ، اضطر الأب الى ان يقول :

– اذهب الى عمك ابراهيم

وقف عدوى وقال :

– ولكنك أبى ·

دفع (بدوى) الموقد بقدمه ، فانسكبت الجمرات على أرض البحراية ، وهب واقفا فى ثورة كانت فى حاجة الى من يشعلها ·

– لم أعد كذلك ، سلبونى كل الحقوق ، اخذوا الأرض والدار والاسم ، حتى أنت أخذوك منى ، ألم تكن فى دار عمك ابراهيم كل تلك السنين ، أليس هو الذى علمك ورباك ؟ ؟

صرخ عدوى :

– أبى !

– لم أعد أبوك ، لقد أخذوك منى ، حتى لم أعد أعرفك ·

كان بدوى يغلى من الغضب ، ولم يكن عدوى مدركا لتلك الثورة التى هبت فجأة من غير سبب ، اثر أن يسكت ، وفكر فى أن يذهب توا الى عمه ابراهيم ويحدثه بحبه لابنة عمه غزالة ، سوف يوافق عمه ابراهيم على زواجهما ، ولكن هل يوافق حقا عمه على ذلك ، ثم هل توافق غزالة ، كان بدوى قد كف ، أحس عدوى بالعطف على أبيه ، نظر الى أبيه وقال :

– ليس لى سواك يا أبى ·

ارتبك الأب لتلك الكلمات ولم يستطع ان يفعل شيئا سوى أنه عاد ليجلس وهو يتمتم بعدة كلمات لا معنى لها ، ولكنها كانت كافية لكى تعيده الى نفسه ، انه يعلم بمدى الجرح الذى سببه لابنه ، ليس اليوم فقط بل منذ أن أنجبه ، ماتت الزوجة وهو بعد طفل

لاحول له ولاقوة ، تركتهما الجميلة ورحلت ، ماذا يفعل للصبى هل يتركه لعجائز المنشية ، أم يتزوج بأخرى ترعاه ، وآثر ان يظل معه ولا يتزوج بأخرى ، رغم الحاح الأهل عليه ، ولكن حاجته الى امرأة دفعته الى المدينة أسفل الجبل ، وهناك تعرف على « ناعسة » المرأة الأرمل التى تعيش وحدها ، ولكن طلبات ناعسة لم يعد يفيد معها ما يحصل عليه من مال من الأسرة فاضطر الى أن يجارى رفقاء جلسة (المزاج) ، وهكذا وجد نفسه مع المطاريد ، ورغم عدم موافقته على ما يفعله هؤلاء الا أن حاجته أساسا الى ناعسة وبالتالى حاجته الى المال ، هى التى جعلته عبدا لهؤلاء الذين لايتورعون عن ارتكاب كل انواع الجريمة ولأنهم فى الأصل مطاريد السلطة ، فان حياتهم تعتمد فى الاساس على كل ما هو غير قانونى ، ووجد بدوى نفسه وسط هؤلاء ، مطرودا من أهله وناسه ، مجرد رجـــل من الناس يعيش على ذكرى حب أورده موارد التهلكة ، بعد ان كان مرشحا بعد أخيه الأكبر لكي يصبح شيخا لمنشية البكرى ·· نظر الى ابنـه الوحيد وقال :

ـ سأزوجك غزالة ، هذا وعد ·

حتى (عدوى) نفسه لم يكن يتوقع من أبيه هذا القول ، كان كل ما يتمناه أن يسمع له الأب ، أن يتكلم فقط ، وكان الأب نفسه لايتوقع من لسانه أن ينطق هذا القول ولكن بعد أن نطقه ، ووقع المحظور تكوم حول نفسه ، وأخذ يفكر فى الأمر بجدية شديدة ، كيف يحقق لابنه هذا الوعد الذى قطعه،كيف يزوجه غزالة ابنة أخيه عثمان ، أطيب الأخوة ، نسمة الحب السارية فى منشية البكرى ، الرجل الذى رفض المشيخة كما رفض رئاسة مجلس القبيلـة لكى يتفرغ لرعاية الأطفال الصغار من ابناء أهل المنشـية وتعليمهـم القراءة

والكتابة واصول الدين ، فهل يرضى عثمان أن يزوج ابنته الوحيدة من ابن بدوى ، الذى عشق ناعسة ، صاح بدوى :

– الويل لك ياقلبى !

(٥)

كان دوار الشيخ ابراهيم يمثل مركز القلب من المنشية ، فهو دوار البكرى الكبير ، ورثه الأبناء عن الآباء ، وجلس فيه كل من ادار شئون المنشية ، وهنا تعقد مجالس الصلح ومجالس المحاكمة ، كما تقام هنا صلوات الجمعة والاعياد والمواسم الدينية ، وداخل الدوار « مندرة العيلة » ، مفروشة بالكليم الملون وجلود الماعز والغنم والابقار ، وعلى الحوائط صور ملونة لابى زيد والهلالى سلامة ، والزناتى ايضا ، وفى صدر المندرة لوحة كبيرة على شكل شجرة جذورها فى الأرض وقد سجل على الجذر اسم الهلالى سلامة ، وعلى جذع الشجرة مجموعة اسماء من بينها حسين واحمد وبكرى ونواره وست ابوها وخضرة ، ثم تتفرع الشجرة الى افرع كثيرة ، وفى وسط هذه الأفرع ، فرع بكرى ، وهو اضخم الأفرع ، واقواها ، ومركزه فى الوسط تماما ، وبكرى يتفرع الى افرع اخرى ، نرى من بينها سلامة وحمدان وبكرى ثم ابراهيم وعثمان وبدوى والجازية وام احمد ، ولو انك دققت قليلا سوف تلاحظ أن الفرع الذى كتب عليه اسم بدوى ، يكاد يكون فرعا ضامرا ، وان كان اسم عدوى يظهر فى نهاية الفرع الضامر ..

كان ابراهيم يجلس أسفل لوحة الشجرة ومن حوله تحلق اخوته وابناء عمومته وجميعهم فى جلسة هادئة ، يميلون الى المرح ، وكان بكرى يجلس فى طرف المجلس وقد أطرق حياء ، فقد كان الحديث المرح يدور حوله فهو صائد الذئاب فى ذلك اليوم ، ولكن مبروك ، بصراحته التى تعودناها منه ، صاح قائلا ٠

ـ مهران السيد سوف يتزوج غدا ، فمتى يتزوج بكرى من غزالة ؟

وجم الجميع لأن مبروك أطلق جملته الأخيرة دون تحسب لما سوف تسفر عنه تلك الجملة ، وبالفعل فقد توقف الحديث ، ونظر الجميع ناحية ابراهيم٠٠كما نظر البعض تجاه بكرى الذى دس رأسه بين ذراعيه وكأنه يود أن يختفى خجلا ، وحاول عويس من جانبه ان يخفف من حدة الصراحة التى تفجرت على لسان مبروك ، فقال :

ـ بكرى ابننا جميعا ، وكل بنات المنشية يتمنونه زوجا ٠

قال الشيخ ابراهيم :

ـ دعونا من هذا الأمر ٠ فهو سابق لأوانه ٠

ولزم الجميع الصمت ، كانوا يعلمون ، وكذلك مبروك ، أن غزالة كانت قد تمت خطبتها فى أيامها الأولى لعدوى ابن بدوى البكرى ، لأنه كان أيامها المرشح الوحيد لخلافة أبيه حمدان البكرى فى مشيخة المنشية ، وكانوا يعتقدون أن بدوى الذى ذهب الى المدرسة فى البندر وتعلم علم الحساب والجغرافيا أقدر على ادارة أمر المنشية ، خاصة وأنه كان فى صباه شجاعا وذكيا وصاحب مروءة ، ولكن انقلبت حاله بعد وفاة زوجته وهى لاتزال صغيرة السن ، وتركت له عدوى فى سن الطفولة وصار بدوى رجلا غير الرجل ، فلما مات حمدان البكرى الأب ، اختارت المنشية ابراهيم

شيخا لها ، فقد كان متزنا وصاحب رأى وخاصة بعد ان اعتزل عثمان الحياة ، ولم يعد يهمه الا تعليم الصبيان اصول الدين وحفظ القرآن ، ويوم ان تولى ابراهيم مشيخة المنشية قال ابناء العم لعثمان انت حر في زواج ابنتك ممن تشاء ، ولكن ابراهيم عندما احس ان اخيه عثمان خاف على ابنته ، قام وخطبها لابنه الأول سيد ، الذى سافر مبتعدا نحو الشمال ، ولم يعد أحد يسمع عنه شيئا ، وتوالت الأيام ثم السنوات ، وبعدها رفع ابراهيم يديه الى السماء ودعا لابنه الثانى بكرى بطول العمر ، ولكنه لم يجرؤ على ان يشير لاخيه عثمان بفسخ الخطوبة أو حتى مجرد الاشارة الى هذا الأمر ، واحترمت الأسرة مشاعر ابراهيم فلم يحاول أحدهم أن يتحدث عن سيد امام ابراهيم ولو بطريقة غير مباشرة ، لهذا كان حديث مبروك خيانة لهذا العهد الذي عقدوه بينهم في صمت ، حتى تهدأ جراح قلب الأب على ابنه ، وقام ابراهيم متثاقلا وكأنه تقدم فى العمر فجأة ، وشحب لون وجهه ، وارتعشت يده اليمنى وساقه اليسرى ، فلما وصل فى مشيه الى منتصف المندرة استدار بصعوبة شديدة وقال لأخيه عثمان :

– انت فى حل من وعدك ياعثمان فانى احتسب ابنى عند الله ..

وانفجر الرجال فى بكاء مر .

(٦)

كان شارع فريد رش الموازى للمبنى الرئيسى لجامعة هايلدبرج خاليا ، والمطر ينهمر باستمرار ، ورغم أن اليوم كان يوم « الأحد

الا ان المجموعة التى ترتدى الملابس الشعبية القديمة وتقــف فى الميدان لتعزف للجمهور موسيقى بافاريا القديمــة انســحبت من الميدان وانزوت داخل مقهى الطلبة وقد غالبهم النوم ، وتركت عاملة البار عملها وسط الميدان ولحقت بالفرقة الموسيقية وجلست فى ركن من المقهى ترقب من خلف الزجاج ، البار المقام وسط الميدان وفقـا للطراز القديم ، كانت تدعو الله أن لا يذهب أحدهم ناحيتــه حتى تبقى فى مكانها الدافىء ، وكانت احلامها التى تكاد تسلب عقلهــا تدور حول ذكريات طفولتها ايام أن كانت مع أمها فى قرية (كايز) الا ان (سيد) الذى مشى كل هذا الشارع بطوله لكى يصل الى بار الميدان لم يتركها لاحلامها ، لأنه وصل بالكاد الى حافة البار ثم نظر الى البراميل المرصوصة ثم دفع فمه نحو احداها وراح يشرب من فتحته الخشبية بعد ان ازال سدادتها غير مبال بما ينسكب من نبيذ ، صاحت (كريستيل) فى ذعر ، الأمر الذى جعل افراد الفرقة يضطربون فى نومهم ، ثم اندفعت (كريستيل) نحو الميدان خائفــة هلعة ، حتى ما ان وصلت الى مكان عملها جــذبت رأس سيد فى عنف ، وهى تسب وتلعن وتهدد باحضار الشرطة ، ورغم قســوة لسانها ولهجته الغاضبة العاصفة الا أن (سيد) لم يغضب ، بل انفجر ضاحكا ثم دفع اليها بعدة أوراق مالية تكفى لشراء البراميل كلها ، هدات (كريستيل) ثم راحت تقدر بسرعة ما اضاعه هذا الشاب الخشن من نبيذ فاخذت ما قدرته من ثمن واعادت اليه الباقى ، دسه فى جيبه ، ثم صاح :

ــ ماذا افعل كنت عطشا

واسند سيد كوعه الى البار ، ونظر الى كريســتيل ، كانت بيضاء ذات سمنة ، وشعرها الأصفر يبدو تحت قبعتهــا البافارية مهوشا ، ومازرها وملابسها التى اتخــذت من ملابس العصـــور الوسطى نموذجا ، تجعلها تبدو مثل عرائس القماش ٠

صاح سيد :

ـ أنا وحيد لا أدرى ماذا أفعل ؟ !

قالت الفتاة :

ـ يبدو انك لا تستطيع أن تستغل وسامتك

قال ضاحكا :

ـ اذن افعلى انت !

ابتسمت الفتاة وأخذت تنظر اليه فى بلاهة ، ضرب سيد حافة البار ثم انسحب بظهره الى الخلف ، رفع يده نحوها ، ومضى ٠

كان سيد قد جاء الى هايلد برج من سنوات لم يعد يذكرها ٠ جاء مع رجل المانى خشن الطبع ، كان يدفعه لدراسة الطب ، قال له عندما قابله فى مدرسة بالاسكندرية :

ـ أنت ذكى ياسيد ٠

تعلق الصبى سيد بالمدرس الالمانى ، وراح يتعقبه ، حتى عندما انهى سيد دراسته فى المدرسة ، وكان عليه ان يعود الى المنشية ، لم يستطع ان يفترق عن مدرسه الالمانى ، فظل يتردد عليه فى منزله وفى المدرسة أيضا ، وعندما فرغت من جيوبه النقود ، اضطر للعمل بالميناء ، كان يعمل حمالا طوال الليل بالميناء ثم يذهب الى مدرسة الالمانى ، الذى ظل على عهده مع تلميذه ، علمه لغته وأعطاه كل الكتب التى جاء بها من هايلدبرج ، كان سيد نهما للقراءة ، وحولته هذه الكتب من مجرد فتى ريفى الى محب عظيم لكل الأشياء وخاصة تلك التى خلف البحر كان يجلس بالساعات

أمام البحر ينظر اليه يتأمله ٠٠ يحاول اختراق السحب والضباب ليرى ما خلف البحر ، نسى الأهل وغزالة ، كان كل همه ان يذهب الى هناك حيث الأكواخ المغطاة بالجليد ، وأشجار الصنوبر التى يجلس بجوارها العشاق ، كان يحلم ان يرى تلال هايلدبرج ويصعد الى قلعتها الكبيرة ، وأن يرى حارس القلعة الذى يشرب كل يوم برميلا من النبيذ ، كان ايضا يحلم بالفتيات البيض ذوات الشعر الأصفر ، وتكثر الاحلام مع الايام تشعله من الداخل ، تدفعه نحو البحر ، حتى صار مثل قذيفة تزداد كل يوم استعدادا للانطلاق نحو تلال هايلدبرج ، وتحقق هذا الحلم فجأة ٠

فعندما ذهب الى مدرسه الألمانى (بوتنر) فى ذلك المســاء وسمعه يقول :

ـ راحل انا الى بلدى

نظر سيد الى بوتنر ٠٠ وذقنه البيضاء تكـاد تسقط منه ، ورأسه الصلعاء تبرق أسفل لمبة الكهرباء التى كانت تهتز فى ذلك الوقت ، نظر سيد الى يد بوتنر المعروقة ، راها ترتعش ، اقترب سيد من بوتنر كانا مجرد رجلين اقتربا فى صداقة امتزجت فيها الأبوة بالتلمذة وغذاها شعور كل منهما بالغربة عن الأهل ، وقـد احس الاثنان انهمـا على وشـــك الافتراق النهـائى ، بوتنر كان احيانا ينسى ان سيد هذا من جبال البكرية الخشنة التى لاتعـرف الجليد ولا اشجار الصنوبر ، ولا كلمات المجاملة ويتصوره ابنه الذى انجبه من عروس البحر السمراء ، وكان خياله يدفعه أحيانا الى معاملة سيد على هذا الاساس ، تلك المعاملة التى كان يستريح اليها سيد ، فالرجل رغم تقدم عمره ورغم لهجته الجافة ، وعصبيته فى أكثر الاحيان ، له قلب رقيق ، وعاطفة أبوية جياشة ، تظهر على فترات متباعدة فيكسب الجولة سريعا ، ويخسر (سيد) جموحه

واندفاعه ورغبته فى كسر دماغ هذا المدرس الذى يتصور انه يجب أن يحفظ كل هذه الكتب من القراءة الاولى ، وتعايشا ، سيد يمثل الأهل للمغترب الالمانى ، ويوتنر يمثل الوالد الذى لم يره سيد منذ ذلك الزمن البعيد عندما جاء به الى هذه المدينة وتركــه فى تلك المدرسة وقال له فى حسم :

- لاتعد الا وانت عالم بكل ما فى الكتب

ومضى ابراهيم وترك له مالا يكفيه ، وبيتا يأويه ، وسيدة عجوز ترعاه ، وانخرط سيد فى الدراسة ، ولكن العجوز ماتت ، ونفد المال ، وانتهت الدراسة بالمدرسة ، ولكن سيد لم يعد الى جبل منشية البكرى ، كان متأكدا انه لم يتعلم كل شىء بعد ، وعندمـا اقترب من بوتنر الذى اعطاه مجموعة كتب بها صور لعوالم اخـرى غير الأرض ، فتح فى دماغه طاقة لم تسد حتى الآن ، تابعه سيد لكى يعرف ولكن المعرفة ليس لها حدود ، ونصحه بوتنر ان يدرس الطب ، وساعده بما لديه من كتب ، كان يردد ..

- كنت اتمنى ان انجب ولدا واجعله يدرس الطب .

بعدها علم سيد أن بوتنر كان قد تزوج عندما كان شابا صغيرا وماتت زوجته بعد عام واحد بمرض لم يعرفه الأطباء ، ورحل بوتنر بعدها الى الاسكندرية ، مصطحبا معه عددا كبيرا من كتب الطب ، رغم انه يعمل فى مجال تدريس الجغرافيا .. وعندما وجد سـيد راح يدفعه دفعا لدراسة تلك الكتب التى كان يحملها معه .

اقترب سيد وقال فى حسم :

- سأسافر معك يا (هر) بوتنر

قالها بلغة المانية رسمية ، لم يبتسم بوتنر ، ولم ينفعل اخذه من يده وذهبا ليجهزا أمر السفر معا ، لم يناقشا التفاصيل ، ولم

يتحدثا فى اى امر يخص ذلك السفر وما بعده ، خشـــى بوتنر أن يتراجع سيد ، وخشى سيد من نفسه ومن الضياع فى عالم لايعرفه الا من خلال كتب بوتنر ، آثر كل منهما أن ينشغل بنفسه وبالاستعداد للسفر ولم تمض اشهر قليلة الا ووجد سيد نفسه يقيـــم بحجرة خاصة فى منزل بوتنر ، ورغم ان المنزل من طابق واحد ، ويكــاد يكون فى مكان مهجور ، الا أنه كان جميلا بالدرجة الكافية والتى جعلت سيد يطوف به كل يوم سعيدا ومبهورا ، وراحا معا يعدان كل شيء ، فهذه حجرة الدراسة لهما معا ، وهذه حجرة سيد التى تطل على تل الاشجار العالية ، وترى من نافذتها الطريق الصاعد الى قمة جبل هايلدبرج وقلعتها وايضا الطريق الهابط الى مبنى الجامعة الرئيسى ، وحجرة أخرى للطعام ، وتلك للجلوس والراحة وتدخين البايب للهر بوتنر الذى بدأ حياة المعاش ، وحـول المنزل حديقة مهملة ، قررا أن يزرعاها بما يريدان ·

ولم يمض أسبوع واحد الا وسيد مقيدا بكلية الطب ، يحضر فى الصباح هابطا سيرا على الاقدام الى الجامعة ، جالســا بين اقرانه الذين قابلوه بفتور شديد ، وان أحس ان الفتيات لايرفعـن أعينهن عنه طوال جلسته فى حجرة الدراسة ، وفى المســاء يعود سعيدا فرحا ، يقص على بوتنر كل شيء ، الذى يبتسم فى سعادة ، ثم يرشده الى مايجب أن يفعله ، وذات يوم ، هرع سيد الى بوتنر فقد قررت الجامعة الاحتفال بالطلبة الجدد ، وأن عليه أن يلقــى خطابا وأن يقدم نفسه وأن يصنع أيضا بعض المأكولات والمشروبات التى تخص وطنه ، وسهرا معا بوتنر وسيد يعدان الطعام والشراب كان بوتنر قد تعلم طهو الطعام على الطريقة العربية ، وكان سيد لايزال يذكر بعض الطرق الخاصة بصناعة الطعام الجبلى ، وكان طعام سيد وشرابه يفوق الوصف عندما قدمهما فى حفلة الجامعة ،

وكان خطابه باللغة الالمانية بليغا ، وتحول حفل الطلاب الجدد الى حفل خاص بسيد القادم من منشية البكرى ، وفى نهاية الحفل ، كان سيد ينصرف من الجامعة ومعه ثلاث من أجمل فتيات الجامعة وهن يمطرنه بالقبلات ، وهو بين مصدق ومكذب ، فهذه كانت أول مرة فى حياته يقترب من فتاة الى هذا الحد ٠

ليلتهافقد سيد الكثير ، وانساق فى طريق لم يعرفه من قبل ٠٠ وازداد الطريق مشقة بعد أن فقد بوتنر الذى توفى بعد عامهما الأول فى المانيا ، ونسى سيد المهمة التى كان يحملها فوق رأسه ، وعشق البنات والشراب ، فراح يعب منهما ماشاء له لا يمنعه فى ذلك حياء ولا دين ، وراحت سنواته فى هايلدبرج تمضى ، وهو بعد بعيد عن انهاء دراسته فى كلية الطب ، وكان طيف غزالة يمر به فى بعض الاحيان ، فيهفو قلبه الى جبل المنشية ، ولكن ما يكاد يسمع دقا على النافذة ويسمع صوت (انيتا) أو (مارى) أو (سـونيا) حتى يهرب منه الشوق والطيف والحنين ، ولا يتذكر الا سهرة الشراب التى اتفقوا عليها أمس ، والتى لم تشبعه خمرها فجاء الى بائعة الخمر (كريستيل) فى ميدان هايلدبرج لكى يشرب من البرميل مباشرة ، ومع هذا لم يشبع بعد ، صرخت اعماقه فى أسى :

- أين أنت يا أبى ؟ !!

(٧)

تقلب عثمان فى فراشه ، ونظر الى ابنته التى جلست بجوار النافذة ، فسأل نفسه : هل تفكر فى سيد ؟؟ هل مازالت تذكره ؟ أم

انها نسيته واصبحت تعشق بكرى !! تمنى أن يكون فؤادها قد شغل ببكرى ، أحس بالاسى ، تنهد حاول أن ينام ولكن جفاه النوم ، هب واقفا ، وقرر أن يذهب الى أخيه ابراهيم ٠

(٨)

فى بحراية دار شيخ المنشية ابراهيم ، كان يجلس وقد عقد يديه حول ساقيه كان قد تعود على هذه الجلسة عندما كان يدرس بالأزهر ، كانوا يربطونهم على هذا النحو لكى يحفظوا عن ظهر قلب اكوام الكتب الصفراء ، لقد نسيها جميعا ، لم يعد يذكر من كل تلك الأوراق الا قليلا ، حتى هذا القليل لا تسعفه الذاكرة به اذا اراد ، لهذا كان يعمد الى الصمت فى كثير من الحالات ، حمل ثقيل مشيخة المنشية فالناس جميعا من عائلة واحدة ، جميعهـــم أبناء عمومته وخؤولته ، وجميعهم طيبون ، يدور عالمهم بين حرث ورعى للاغنام والابل ، ويقيمون حلقات الذكر ، والاطفال يلعبون فى حوارى المنشية ، والنساء يصنعن السلال الملونة واغطية الرأس والفراش واباريق الماء والفطائر ، النساء يعملن كثيرا ، والرجال تتزين ، هكذا لاحظ ابراهيم،لاحظ هذا على زوجته،انها تعمل من صلاة الفجر حتى العشاء،لم يرها أبدا خالية اليد،عاطلة عن العمل،حلب الماشية ، تجهيز الخبيز ، صناعة السلال والملابس ، طهو الطعــام ، رعاية الدجاج والطيور والاوز ، نظافة المنزل ، رعايته هو شـــخصيا ، صناعة القهوة الخاصة به وما تحتاجه من محوجات ، ثم الاهتمام بكل شىء خاص بالخزين والتموين وجلب الماء من العين ، وغســـل

الملابس ، وأيضا الذهاب لاحضار الاغنام التى ترعى فوق التلال ، وجز صوفها ، ورعاية صغارها ، وتوليدها ، وتمريضها ·· انها تكاد تعمل كل شىء وهو لا شىء ، حتى المغزل الذى كان يتسلى به لغزل صوف يكفى لكى يصنع منه غطاء رأسه كف عنه ، لم يعد اليه ، أصبحت جلسات تأمله تستغرق وقته ، والجلوس مع الرجال فى المساء للنظر فى حوائجهم لايترك له وقتا كافيا لكى ينظر فى أمر بيته ، حتى النوم لم يعد يطيقه ، جفاه النوم منذ أن رحل عنه سيد ، وازداد الهم عندما فقد الأمل فى عودته ، حتى الرجل الذى أرسله لكى يبحث عنه فى الاسكندرية عاد بعد شهر وهو يؤكد أن سيد غادر الاسكندرية ، وذهب خلف بحرها ، أيقن ابراهيم أن سيدا قد مات وانه فقده تماما وفقد به الأمل الذى كان يراوده ، والحلم الذى طالما تمناه أن يتحقق ، نظر ابراهيم وهو جالس فى مجلسه هذا ناحية القاعة التى تنام بها زوجته ، وقال فى نفسه انها لم تعد تذكر ابنها ، لايبدو ان لها ابنا غير بلكرى ، لم تحادثه مرة واحدة فى أمر هذا الولد الذى أخذه ذات يوم وهو ما يزال صغيرا وسافر به ثم عاد بعد أيام بدونه ، ويومها قال لها لن يعود الا بعد ان يكون عالما كبيرا ، لم يعد سيد ولم تعلق هى بكلمة ، لم تنطق بحرف عندما ايقظ ابنه فى فجر ذلك اليوم وأخذه من يده وقال :

– سيكون فى المدرسة الكبيرة التى فى البندر الكبير !

لم تسأله عن المدرسة ولا عن البندر الكبير ، لم تناقشه فى شىء ، جهزت له سلال الطعام ، وسلال اخرى بها ملابس كثيرة لسيد ، ووضعت فى طيات الملابس الخاصة بسيد حجرا صغيرا ، رآه ابراهيم عندما أفرغ السلال فى حجرة سيد فى البندر ، عرف أن الحجر الصغير تميمة أمه ، دسه هو الآخر فى حرص رغم عدم

اعترافه بصحة ما فعلته زوجته ، ولكنه دسه فى حذر فى قاع دولاب الملابس ، يبدو أن سيد هو الآخر لمح الحجر الأسود الصغير فخاف أن يعبث به أو يتحدث عنه ، عاد ابراهيم الى زوجته حاملا السلال وبها ملابس ملونه وحلوى وفاكهة وأشياء عديدة ، لم تلمس زوجته هذه الأشياء جميعا ، تذكر الآن ذلك ، رآها تنظر ثم تشيح عنها ، كان فى غمرة حماسة بما فعل ، وخلال سعادته وهو يتصور ابنه الكبير العائد من مدارس البندر ، لم يلحظ على زوجته تغيرا ، قام بتوزيع الهدايا بنفسه على أخوته وأبناء عمه ، وضـــع الفاكهــة والحلوى فى اكياس وأرسلها الى دور أهله ترك القليل من الملابس والحلوى والفاكهة لزوجته وأولاده ، كان يظن أن زوجته سوف تسعد بما أتاها من ملابس ملونة ، ظن ذلك ، واكتفى بهذا الظن لم يتابع زوجته ولم يعرف ما اذا كانت قد ارتدت تلك الملابس أم لا ، وتذكر الآن فى جلسته هذه ، وبعد مرور كل تلك السنين أن زوجته لم تقرب هذه الملابس وانها لم تلمسها قط ، ازداد حزنه عندما أدرك ذلك ، وكأنه يحدث أمامه لأول مرة ، قال فى نفسه ، ربما تسعد بزواج بكرى من غزالة ، بكرى يذكره بجده الكبير سالم كان جده مضرب الأمثال فى الشجاعة والكرم والذكاء وعفة اليد واللسان ، وكان جسورا فى قول الحق وفى فعله ، لهذا استطاع أن يجعل من المنشية بلدا آمنا سعيدا وثريا حول التلال الجرداء الى مزارع وحـــول أخواص البوص الى دور مبنية من الحجارة المرصوصة والمزخرفة التى جلبها الرجال من الجبل ، وحول الاودية التى تحيط المنشية الى بساتين تأتى ثمارها كل عام ، كان يصــلى بالنـــاس جماعة الصلوات الخمس فى زاوية المنشية التى حولها الى مركز المشيخة ، احضر رجلا لكى يعلم الاطفال القرآن والدين وعلم الحساب ، كان يبحث فى كل مكان عن ما ينقص المنشية فيقيمه أو يصنعه أو يأتى بمن يجيده ليعلم أهله ، وعندما جاءه الموت طلب ان يأتوه بعصاة

التى اشتهر بها ، (عصا سيدى سالم) ٠ هكذا كانوا يقولون عنها ، فهى عصا من فرع شجرة تقف وحيدة فوق تل البكرى ، عاشت معه عمره كله ، كان يضرب بها الرجل المذنب فيشقه الى نصفين ، وكان ينهر بها النساء اللائى يعصين أمر ازواجهن أو آبائهن ، يحمل عليها الاطفال ويؤرجحهم ، يزود بها على غنمه ويخيف بها الذئاب الجبلية ، وكان يكفى أن يرشقها أمام داره أو المكان الذى يوجد به لكى يعلم الناس ان سيدى سالم هنا فلا يعبث أحدهم بما يخالف أمره ، وبها يهتدون الى مكانه اذا كانوا فى حاجة اليه ٠

يومها ، كما يتذكر ابراهيم عن جده ، جاءوا له بالعصـــا ، وضعها على صدره ، نظر الى اخوته وأولاده وأبناء عمومته واخواله وقال :

– فناؤكم ياتيكم من ٠٠ (واشار الى لسانه) ٠٠

ولم يفهم المحيطون به ، وكان من بينهم الكبير المحنك والصغير الواعى ، راحوا يستفسرون قال وهو يغالب ضعفه :

– انتم بخير ان لم تسالوا الصدقة ٠٠

وراح سيدى سالم فى غيبوبة وبعدها مات ، وجاء ابنه حمدان الى مشيخة المنشية ، وكان اول ما فعله ان فسر قول سيدى سالم بعدة أشياء منها : عدم قبول صدقة أو اعانة الغرباء واعتقد الناس فى ذلك ، وتعودوا على عدم قبول ما ياتى من البندر الا ما اشتروه من مالهم شراء حرا يثقون فيه ٠

وابتسم ابراهيم وهو جالس فى وحدته هذه ، يتذكر أعمال أبيه حمدان ، الذى كان رجلا ذكيا دءوبا ، استطاع ان يبيع النباتات

الجبلية لتجار من المدينة ، والزم عجائز المنشية برعاية هذه النباتات وجمعها فى صبر حتى تباع لتجار البندر فى أيام معلومات ، وعاد هذا البيع عليهم بمال معقول ، يوزعه على جميع اهالى المنشـــية بنسب متساوية ، وكانت هذه المبالغ كافية لكى يشترى بها الأهل ما يحتاجونه من سلع من البندر ، وان جعلتهم اقل عملا فأهملوا بعض الاعمال التى كان سيدى سالم يرعاها ، مضت المنشية أيـام حمدان فى أمن لم يعكره الا هجوم بعض اللصـــوص من مطـاريد الجبال ، كانوا يهبطون فجاة فى الليالى الســـوداء فى محاولة لخطف ما يصادفونه ، ولكن يقظة حمدان لم تكن تجعلهم يفوزون الا ببعض الغنمات وبعض اكياس الحبوب ومع هذا ظل اهل المنشية يخشون المطاريد ويعملون لهجومهم الف حساب ، حتى عقد حمدان اتفاقا بينهم ، كان بمقتضاه عدم هجوم المطاريد على المنشية مقابل تركهم فى الجبل الجنوبى خلف جبل البكرى ، وحافظ المطاريد على العهد كما حافظ اهل المنشية عليه ، فلم يتعرضوا لهم فى مكانهم المعزول عن العمران ٠٠ وكان ابراهيم يتمنى دوام هذا الأمر ، لولا رعونة اخيه بدوى الذى راودته نفسه على منافسة المطـــاريد فى سرقة اهل البندر من اجل عيون ناعسة التى احبها ، فوقع فى ايديهم وكان الاتفاق المشئوم الذى توصل اليه بدوى مع المطاريد ، على ان يقودهم لسرقة بعض دور المنشية ، وخاصة دار مبروكة الدلالة التى يقال انها تكنز كنزا لا حدود له ، وسقط بدوى ومن معـــه فى أيدى شباب المنشية ، ويومها كان العار كله يغطى عائلة البكرى ، ويجلل اسرة سيدى سالم بالخزى فها هو احد احفـاده يســـرق ، ويسرق من اهله ، وكان كلمات سيدى سالم توشـــك أن تتحقق ، واجتمع اهل المنشية وعزلوا بدوى عن وراثة المشيخة وحكموا عليه

بالبعد عن المنشية والعيش فى مقابر الاجداد لمدة عام ، قضاهـا بدوى بصبر عجيب ، ولكنه ابدا لم يرجع عن حب تلك المراة «ناعسة» والويل لابنه عدوى من سلوكه هذا ·

كان ابراهيم يدبر فى ذهنه أمر المنشية وأمر أخيه بدوى عندما سمع صوت سعال عثمان وهو يقترب منه ، هب واقفا فى احترام ، والدهشة تمتلكه من حضور أخيه اليه فى هذا الوقت ·

الفصل الثانى

(١)

ارتعد عدوى وهو يخرج من الدار متجها الى المسجد ، كان المؤذن لم ينته بعد من آذان الفجر ، والجو بارد وبه رذاذ قليل ، والسماء ملبدة بغيوم ظلمة نهاية الليل ، والشـــارع الفاصـــل بين دار عدوى والمسجد نائما ، حتى كلاب الحراسة نامـــت على اعتاب الدور ، شق عدوى الشارع ودخل المسجد ، أرض المسجد رطبه وحصيرها يدغدغ اقدام القلة من الرجال الذين توافدوا ، لمح عدوى عمه ابراهيم وهو يصلى ركعتى السنة ، ثم عمه عثمـــان ، اتجه عدوى الى نهاية المسجد ، اخذ يتهيأ للصلاة راوده البكاء مرة اخرى ، كان قد بكى فى منتصف الليل ، ثـــم نام ورأى فى نومـــه ما يشبه الملاك ، سيدة على جانب كبير من الجمال ، انحنت عليـــه ونظرت فى عينيه ، كان متيقظا لم يكن نائما رفع رأسه نحوهـــا ،

تراجعت ، واصل رفع راسه مقتربا من السيدة الجميلة ، ولكنها تراجعت الى الخلف فابقى راسه كما هى حتى لا تنصرف ، توقفت هى عن الحركة واطلت عليه وابتسامة مريحة تملأ وجهها ، رفع يده اليمنى ، اقتربت منه ، احس انها قالت له كلاما كثيرا ، هدات نفسه، ابتسم وكانه يقول لقد فهمت ، مضت ، راها وهى تفتح باب المندرة ، ثم تخرج ، ظل على حاله محتفظا بوضعه كما هو بين الرقاد على ظهره وبين الجلوس ، شعر بظهره يؤلمه ، اعتدل كان موقنا انه راى كل شىء فى صحوه وليس فى منامه وكان موقنا ايضا ، انها ملاك ، وانها جاءت لتقول له كلاما كثيرا ، لا يزال يحفظـــه حتى الآن ، بكى بشدة احس بذنوبه كثيرة ، ازداد بكاء ، راح يصلى فى تبتل لم يعــرفه من قبــل ، الله ٠٠ لا مثيــل له ، لا حــدود له ، لا حــد ولا فاصل ، ليس بعده وليس قبله ، هو هو كل الكل وعالم العالم وهو المحيط بكل العوالم والخلائق ، طوبى لمن احبه ، وطوبى لمن ساله ، وطوبى لمن يعرف ذل نفسه ٠٠ الله ، مالك الملكوت وهو الرازق والواهب والعاطى وهو الغفار ، اغفر لى ذنبى ، وحقق رجائى ، وارزقنى من الثمرات ، الله اكبر ٠٠ رفع الامام يديه مكبرا ، اقيمت الصلاة ، ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا ٠ انخلع قلب عدوى واقتربت راسه من موضع قدميه ، ذاب خشوعا ، ساله الناس ، عقب الصلاة :

ـ لم البكاء يا ولدى ؟

لم يعرف الاجابة ، ولن يعرف ، مضى بعيدا ، كانت اشــعة النهار تدق ابواب المنشية ، وريح خفيفة تهب من الجبل القبلى ، وعلى البعد شاهد عدوى بخارا صاعدا من ناحية البندر ، يعرف سر هذه (الشبورة) ٠٠ اليوم سيكون حارا ، عليه ان يخــــرج الأغنام للرعى مبكرا هذا اليوم ، ولكنه تذكر ان فرح مهران السيد

هذه الليلة ، واليوم سوف يأخذونه لحمام العرس ، جلس عدوى يتأمل جمال خلق الله ٠

(٢)

قفزت غزالة من داخل القاعة حيث كانت تنام بجوار أمها ، كانت تشعر بدبيب خفيف فى أسفل رأسها ، فقد كان نومها متقطعا ملأته الاحلام ، رأت سيد ابن عمها وخطيبها ، رأته يرتدى مـلابس بيضاء وفى يده أفرع شجرة خضراء ، ابتسم لها عندما رآها ، كان صغيرا وجميلا ويشبه الملائكة التى سمعت عنهم من خالتها ترك ، ولكنه طار ، ارتفع فوق الجبل وشاهدته وهو يتمايل مع السحاب ، ثم اختفى صاحت خائفة استيقظت فرأت لمبة الجاز ذات الفتيل تكاد تنطفىء ، جذبت الغطاء ودست رأسها فى الوسادة ونامت ، جاءها بكرى غاضبا ، صاح معاقبا ، ثم امسك بالذئب الأسود وذبحه ، هالها مافعل ، حاولت أن تضربه ، ولكنه امتطى حصانه وذهب ، جرت خلفه وقذفته بالحجارة ، سقطت احداها على ظهره واصابته اخرى فى رأسه ، مال بكل جسده ثم سقط من على ظهر الحصان ــ تدحرج جسده بسرعة منحدرا الى وادى البندر ، شهقت غزالـــة وتحسر قلبها على بكرى حاولت الاندفاع خلفه ولكن اعجزها ذلك ، بكت بشدة ثم افاقت من نومها ، لم تستطيع النوم ، سمعت آذان الفجر ، ورأت نور النهار يتسلل الى ظلمة القاعة ، تذكرت أن اليوم زواج زينب من مهران السيد وعليها ان تذهب الى هناك لكى تساعدها اندفعت خارجة من الدار ، كادت تصطدم ببكرى العائد من المسجد لولا انها تنبهت لوجوده فجأة ، قال فى ابتسامة جميلة :

صباح الخير يا أعز الناس ٠

أومات براسها ، كان الخجل يمتلك امـرها ، لهذا لم تستطع الاجابة ، شعرت ان الرجال الذين يخرجون من المسجد يتطلعون اليها فى تبرم ، مرقت من بينهـــم ، وذهبـــت الى دار زينب بنت عبد الوهاب البكرى ، كانت بنات المنشية قد سبقنها الى هناك وكان صحن الدار هائصا ، ورائحة البخور والحناء وعود المسك تملأ الدار كلها وكانت ترك ومبروكه منهمكتين فى اعداد العروس لأجمل ليلة فى حياتها ، رنت اليها غزالة ، وتذكرت (سيد) الملاك الذى طار نحو السماء ٠

(٣)

فتح الباب فى هدوء ودخل الى الصالة ، كانت الظلمة سائدة والبرد قاسيا اندفع نحو المدفاة وأشعلها ، بدات شعلات الغاز فى الاحمرار ، تراقصت النار فى الموقد الحجرى الذى استعوض الغاز بالفحم ، جلس سيد مرتعدا من البرد ، بعد قليل يجب أن يذهب الى الكلية منذ اثنى عشر عاما وهو يذهب الى الكلية ، يجلس فى المدرج والخمر تثقل راسه ، دماغه مثل بلونة هواء ، ساله الأستاذ :

ـ هل تدخل الامتحان هذه المرة ؟

هز راسه نفيا ، وخرج كان يفكر فى كريستيل فتاة البـار ، لايدرى لما هذه الفتاة بالذات التى تسيطر على عقله ، مضى نحو المنزل ودخل واشعل المدفاة وهو يفكر فى كريستيل عرف اسمها يوم الأحد الماضى ٠ شاهدها وهى تملأ الأكواب فى جدية شديدة ، كانت

تبدو مثل الاستاذ (بانو) أستاذ الجراحة كان يؤدى عملياته أمامهم فى صمت وجدية وايضا دون اظهار الاهتمام بالمريض كذلك تفعل كريستيل ، يجب الكف عن التفكير فى هذه الفتاة قال هذا لنفسه ٠

وقف شاعرا بالجوع ، تذكر نصف دجاجة فى الثلاجة رحم الله أستاذه بوتنر كان يهتم بعمل الطعام ، وكان يسهر عليه ويعاونه على دراسة (الباثالوجيا) ، وايضا كان يعينه على فهم بعض المصطلحات ، أين أنت الآن يابوتنر ، كنت مانعا للشر ، والآن انا الشر ذاته ، بالامس سرقت مفتاح البار من (تينا) تسللت فى الظلام وشربت حتى انتفخت بطنى واحترق لسانى ، لم أعد اشعر بالشبع والارتواء ، اندفعت بعد الشراب الى الشارع ، صادفتنى فتاة لا أعرف اسمها ، ذهبت معها الى المنزل ، فى المساء أخذتنى الى صاحب السينما ، أوصته أن يمنحنى عملا كمراقب للسينما ، ظللت طوال المساء جالسا فى أعلا صف بالمقاعد الخلفية لا أدرى ما حقيقة عملى بالضبط ، ولكن يبدو انه عمل طيب ، قال لى صاحب السينما ان أجرى فى الأسبوع مائة مارك ، هذا مبلغ جيد ٠

صاح سيد سعيدا :

ـ سوف اشترى الكتب التى أحتاج اليها ٠٠ وسوف أسجل اسمى فى امتحان هذا الموسم ٠

دار كل هذا فى عقل سيد ، وكان لم يتحرك من مكانه تذكر عليه ان يذهب الى عمله فى السينما ، سمع دقا على الباب ، ثـم شاهدها وهى تدخل ، فتاة سمينة وقالت انها تدرس الفنون الجميلة وانها تهواه اندفعت الفتاة الى احضانه ، تلقاها وكأنه يؤدى عملا روتينيا ، ضاع سيد عندما عبر البحر ، وضـــع كل عبقريته فى الشراب ومعاشرة الفتيات الالمانيات ، كلهن جميلات ، حتى تلـك

السمينة التى تدرس الفنون وتعمل عاملة فى (الصحة النفسية) صاح :

- تسقط كل الفتيات الالمانيات ٠

اكتشف ان الفتاة السمينة لا تزال موجودة ، رآها تضحك فى بلاهة ، يبدو انها سمعت هتافه ، قالت :

- وتسقط انت ياسيد ٠

وسقط معها ، وأغرقته كاتيا فى حبها ٠٠٠ أو على الأقل فى تلك الساعات التى كانت تستولى عليه كانت تقول له فى انهيار :

- يا بقلى ياحبيبى

فيثور ويقول لها مصححا :

- بكرى ٠٠ اسمى بكرى ، سيد البكرى ٠

ترد فى سعادة :

- نعم ٠٠ بقلى

يتذكر عظمة أسرته ، وتأخذه العزة بالنفس وينهال عليهـــا ضربا ، ويسعده ذلك وينتشى كما كان يفعل فى صباه عندما يتشاجر مع غلمان حوارى الاسكندرية ، فاذا تعب من ضربها ، اخذ يرقص بمقعد يحمله بيده اليمنى ، يرقص كما يرقص اهل بحرى ساعتها كانت السمينة ، تكف عن البكاء وتجلس فى سعادة ترقبه ، كانت تحبه ، وفى كل لقاء لهما تعرض عليه الزواج والنقود ، وكان يرفض الاثنين ويردد ليس بعد ليس بعد ، كان هذا يعطيها الأمل ، فتذهب عنه وهى سعيدة ، وان كان هو فى نفسه واثقا من أمر احتياجــه للنقود ، كان يقوم بأعمال غير ذات قيمة لا تدر دخلا كبيرا ولايستطيع

فى نفس الوقت ترك دراسته ، فكان يحاول الجمع بين الاثنين العمل والدراسة ، ولكنه فشل فيهما ، لأنه انشغل بأمور اخرى أقلهـــا الشراب ومصاحبة الفتيات ، كان ايضا يعانى من مطاردة السلطات له رغم المحاولة التى قام بها بوتنر ليحصــل له على الجنســـية ، ونجحت الى حد ما الا أن الشرطة فى هايلدبرج كانت تعتبره شخصا غير مرغوب فيه ، الأمر الذى يهدده بصفة دائمة ، وخاصـــة وان ما ورثه عن بوتنر من الممكن أن يضيع فجأة ، ومن بينها هذا المنزل الذى يقيم فيه ، والذى لولاه لهلك من برد الشوارع ، ولكن المنزل وحده لايكفى ، والاحساس بالحاجة أمر مر · قالت السمينة :

ـ انت لست معى اليوم ·

وضعت على المائدة بضـــعة أوراق من النقد واتجهت نحو الخارج ، قالت عندما وقفت عند الباب الخارجى :

ـ سالقاك عند تينا فى البار هذا المساء ·

أومأ برأسه ، ونظر الى الأوراق المالية ، وانخرط فى البكاء ، ورأى بين دموعه غزالة !

(٤)

بكرى وعدوى ، يقفان الآن فى صحن دار مهران السيد ، بكرى يمسك فى يده السوط السودانى الغليظ ، وعدوى يشرف على رباط مهران الذى يهتز جسده فى خوف ، ولولا قليل من تماسك مصطنع لانهار باكيا معلنا فشله فى امتحان الرجولة كان شباب المنشـــية

منهمكين فى اعداد حفل العرس وفى (حمام العريس) ونحن نشاهد الآن بداية الحمام ، والذى بدأ بعد صلاة الفجر ، هاهم قد ربطوا مهران السيد رباطا محكما ، واستعد ثلاثة من شباب المنشية على رأسهم بكرى بالكرابيج فى أيديهم ، واستعد عدوى بمشرط فى يده اذا ما لزم الأمر وجاءت الضربة اكثر مما يجب ، ووقف بقية الشباب فى أيديهم الحناء ، وصاح بكرى :

- والآن ياعريس المنشية ·

انتفض مهران السيد وحجل بقدمه ، فجاءته لسعة السوط على مؤخرته ارتعش واندفع جريا حول (طشط الحناء) ، وبدأ الشباب يمطرونه بقطع الحناء الغليظة وبكرى ومن معه يحاولون ضربه على ظهره بالكرابيج ، وارتفعت صيحات الشباب ، وعلت ضجتهم ، وانقلب المرح الى معركة حقيقية بطلها الوحيد مهران السيد وكل شباب المنشية ضده ، نجح مهران السيد فى الزوغان من معظم لسعات الكرابيج فقد كان على ضارب الكرباج عدم التحرك من مكانه وعدم رفعه فوق رأسه وأيضا يجب الضرب على الظهر فقط ، لهذا استطاع مهران السيد أن يفلت من معظم الضربات ولكن القليل الذى طاله كان مؤلما وموجعا بدرجة كبيرة جعلته يصيح ويسب ويتوعد ، ولكنه لم يكف عن الجرى حول طشت الحناء ، ولطمته الحناء المقذوفة على جسده من كل جانب ، كانت ضرباتها هى أيضا تؤلم ، وكان الشباب يسددونها فى مهارة وبقوة ، تمنى مهران السيد أن يكفوا ولكن هناك وقت معلوم يجب أن يتحمله ، اذا سقط على الأرض لن يتزوج زينب حبيبة القلب ، زينب بيضاء جميلة ذات سحر خاص لابتسامتها ، يذوب مهران السيد فى جمال غمازة أسفل خدها الايمن ، كم ليلة بات فيها مهران يحلم بالزواج من زينب والاقتراب من ذلك الجسد البض الملفوف تمنى ونال

ما تمناه ، وهو أسمر نحيف ، يكاد وجهه يقترب من وجه ذئب أغبر، يده معروقة وتعبه قريب ، لايقوى على ركوب الفرس ولا منازلة الشباب فى لعبة العصا وأيضا لا يقوى على السهر فهو أول من ينام فى الافراح وليالى الاعياد ، ولكنه يمتلك صوتا جميلا ويحفظ شعرا كثيرا ، ويستطيع الغناء من أول النهار الى آخره ، يجلس على حجر مرتفع ويمسك بالغاب ويشعل القلوب عشـــقا وحبا ، يغنى لجمال الحياة ، وبهجة الدنيا ، يذكرهم بالجمال فى كل مكان ، يهمس الى الريح أن تهدأ ، والى الأمطار أن تتساقط والى الشمس أن تكف عن اشعال الأرض بنارها ، فاذا جاء الليل ، نام مهران السيد فى بحراية دارهم ، نسى كل شىء ، الا زينب حبيبة القلب والفؤاد • كف طنين الكرباج من حوله صاح بكرى معلنا فوز مهران السيد بحفل العرس حملوه بعد ان لفوه بحرام من الصوف ، ساروا به فى الشـــارع الرئيسى بالمنشية ، أعلنت النساء الخبر بالزغـــاريد ، دق عـــم عبد الخالق الطبل البلدى ، ارتفع صوت المزمار من عم مكاوى ، ابتسم شيخ البكرية ، واعلن فوز مهران الســيد بأول مراســـيم العرس •

وصل الشباب الذى يحمل مهران السيد الى البئر ، كانت مياه البئر باردة ، وكان عليه أن يغطس فى البئر ولكنه قبل الغطس عليه ان يعدو خلف كبش من الخرفان ، وهذا أصعب امتحان للعريس فى منشية البكرى ، وان كان مهران السيد يبدو متفائلا ويؤكد انه سوف يكسب هذه الجولة أيضا ، ولهذا ما أن تركوه يفلت من بين أيديهم حتى جرى خلف كبش أغبر اللون كان نائما ، ولكن ما كـاد الكبش يشعر بهذا الهجوم المباغت حتى اندفع عدوا بين أحجـــار الجبل ، وراح مهران السيد يطارده فى حماس ، والكبش يحاوره فى عناد ، يستدير تارة نحو ، مندفعا بارزا قرنيه فيضطر مهـران

السيد الى الاختباء حتى اذا استدار الكبش اندفع مهران السيد نحوه ، يجرى الكبش وخلفه مهران ، أو يندفع الكبش ويختبىء مهران ، ومهران يتصبب عرقا ، وتظهر بعض الجروح على جسده من اثر السقوط ، وتلسعه ألسنة الرفاق الذين يراقبون هذا السباق ، الجميع يناصرون الكبش ضده ، ·· وضاق مهران السيد ، أحس أن هذا الكبش قد أزله ، وأن هؤلاء الذين يتصايحون يبعدونه عن عروسه ، ماذا لو فشل ، بل ماذا لو قتله الكبش ، انه لم يسمع عن عريس فشل فى ذلك ، ولكن مهران السيد نحيل الجسد ضعيف استدار الكبش فجأة ، كان مهران قد أخذته سنة من عدم اليقظة ، وجد نفسه فجأة يطير فى الهواء ثم يسقط على الأرض وكأنه يحلم لمح الكبش وهو ينظر اليه فى برود فوثب نحوه وأمسك بقرنيهفيقوة، حاول الكبش أن يتراجع أو يسحب قرنيه ولكن مهران السيد كان قد ركبه واندفع بكرى وامسك بالكبش ، وأسرع عدوى فوضع السكين فى يد مهران السيد وذبح الكبش ، وارتفعت الزغاريد آتيه من المنشية ، وكأن الخبر قد وصلها بالبرق ، وهلل الشباب ، وأكمل عدوى ذبح الكبش ، واندفع الرفاق وامسكوا بمهران السيد ، وقبل أن يفيق كان الماء البارد فى البئر يغرقه ، تخبط فى جدران البئر سمع صياحهم ، كان صوت بكرى أقربهم الى اذنه ، كان يطلب منه أن يمسك بالاحجار البارزة فى الجدران ، ويصعد وكأن صوت بكرى هو عقله الذى يأمره ، اقتربت رأسه من فوهه البئر ، أحس بالهواء المنعش ، سمع صوت الزغاريد ، قال بصوت مرتفع :

ــ انا قادم اليك يازينب ·

ومندفعا راح يعدو نحو دارها ، ولكن كيف يتركه الرفاق قبل

الاختبار الأخير ٠٠ هذا ماحدث من مهران السيد واصحابه ، أما ما حدث للعروس زينب بنت عبد الوهاب البكرى فانه اكثر غرابة ٠

(٥)

كانت دور المنشية ، تمور بالحياة ، وخاصة أمام الافران ففى كل بيت انشغلت النسوة والبنات الصغيرات فى صـــناعة الفطائر والحلوى ، وتجهيز طعام العرس ، بينما كانت الشابات مع العروس يجهزنها للفرح ، كانت الشابات منهمكات فى تزويق العروسة تحت اشراف الست ترك ومعاونة مبروكة وكلتيهما خبيرة فى ذلك ، فالاولى هى الداية التى تتولى عمليات التوليد ، والأخرى المكلفة بشـــراء ما يلزم المنشية من البندر ولها خبرتها الطويلة فى مثل هذه الظروف، كانت زينب داخل هذا كله تشعر انها حزينة ، وأن تلك الزغاريد التى ترتفع فى كل لحظة تضيف الى حزنها أحزانا جديدة ، لا تدرى مصدر هذا الحزن الذى هبط على قلبها ، أمها تروح وتجىء لا تفعل شيئا ، كلما طلبت النساء منها شيئا ، تذهب لتأتى به ، ولكنها تعود وقد نسيت ما كلفت به ، حتى خالتها التى اشرفت على حمام زينب مع ترك ومبروكة كانت تزم شفتيها بقسوة وهى تنظر الى زينب ، رنت زينب الى غزالة التى راحت فى اهتمام ترتب ملابس زينب فى صندوق خشبى ملون ، كانت غزالة تؤدى هذا العمل باهتمام شديد ، حتى انها لم تشعر بما حولها من ضجيج حاولت زينب النداء على غزالة ، ولكن صوتها لم يصل اليها ، لم تسمع غزالة ، وكفت زينب عن النداء بعد تهديد ترك لها بانها سوف تترك شعرها المنكوش كما

هو ، أذعنت زينب للايدى التى تمسك بشعرها ، لابد ان يصنعوا منه احدى وثلاثين ضفيرة صغيرة ، وثلاث ضفائر كبيرة فى مؤخرة الراس ، ويجب أن يضمخ الشعر بعطر يظل فواحا مدة أسبوع ، وهو لهذا يحتاج الى مهارة ترك ، التى يعمل زوجها فى صناعة العطور للمنشية ، عم عبد الجليل .

وعبد الجليل ورث صناعة العطور عن أبيه ، انه ياتى بالزهور البرية من الجبل ثم يضعها فى اناء على النار والاناء متصل بعدة انابيب من المعدن يترسب فى كل أنبوبة نوع من أبخرة هذه الزهور ، تتحول بعد قليل الى سائل خفيف ، يعود عبد الجليل الى غلى هذا السائل فيصنع منه عطراً مركزا ، ومن خلال مزج هذه العطور معا بدرجات وكميات متفاوتة يصنع عبد الجليل العطور المناسبة لكل المناسبات وعطر العرائس هو أغلاها ، لأنه يتكلف كثيرا من الزهور ليتم الحصول على زجاجة صغيرة منه وترك تتولى بيع العطـــور للنساء ، بينما زوجها يتولى بيعها للرجال ، ويقال ان عبد الجليل وترك قد جمعا مالا كثيرا وانهما لم ينجبا حتى الآن ذكرا ولا انثى ، وقد كفا عن محاولة ذلك ، واكتفيا بصـــناعة العطور لعبد الجليل وعمليات توليد الاخريات لترك ، وفى المساء يجمعهما بيت صغير فى اطراف المنشية ينامان فيه ، وفيه أيضا يوجد كنزهمـا الثمين النقود ، التى جمعاها تلك السنين .

لاينافس ترك وزوجها عبد الجليل فى ثروتهما الا مبروكـــة وزوجها سليمان ، ويقال وهذا تجده شائعا فى مجالس النساء ـ أن مبروكة تمتلك قطعا كبيرة من الذهب بالاضافة الى الأموال السائلة فهى تعمل فى التجارة ، تذهب كل سبت وثلاثاء الى البندر ، محملة بالمال ومطالب أهل المنشية ، وتعود فى يومى الأحد والأربعاء لكى توزع ماجلبته من البندر ، ويقال أن لهذا النشاط المقصور عليهـــا

دخلا كبيرا فلا احد يناقشها فى اسعار ولا اثمان الأشياء التى تجلبها من البندر ، ومبروكة تتمتع ايضا بذكاء فطرى حاد ، وحسن تعامل ، وامانة يضرب بها الامثال ، وتكتم شديد فهى تدخل كل دار وتتكلم مع كل امراة وفتاة ، وايضا تتكلم مع الرجال تروح وتجىء بين المنشية والبندر ولا احد يعرف ما الذى احضرت وما الذى فعلت كل دار ولها اسرارها ومطالبها ، والبضاعة الظاهرة الواضحة لكل الناس لا تزيد عن الشاى والسكر والدخان واقمشة نسائية واخرى للرجال ، واحيانا تحضر بعض الحلوى للاطفال فى المناسبات ، أما البضاعة غير الظاهرة فكثيرة ومتنوعة وتحفظ هى سرها لكل دار ، تدخل الدار وتعطيهم ما احضرت ثم تخرج ولا احد يعلم عن أمــــر ذلك الشىء شيئا ، بل لايسالها احد ، لأنهم يعلمون عنها الصمت ، انها قليلة الكلام ، اذا تحدثت قالت قصصا قديمة سمعتها من جدتها، حكايات عن الهلالى سلامة وابى زيد والزناتى وايضا حكايات عن الملك شهريار الذى كان يتزوج كل ليلة فتاة جميلة حتى انه تزوج من الف فتاة وفتاة ثم مات ، وهى تحكى هذه القصص والحواديت فى بعض الليالى عندما تكون هادئة النفس ، فهى دوما مشغولـــة الفكر مشغولة اليد وزوجها سليمان رجل مشغول ، يجلس طوال اليوم فى الكتاب يعلم الصبية علم الحساب والقران ، يشرف عليه عثمان البكرى شقيق شيخ المنشية ، وهو يخاف من عثمان البكرى لهذا يظل طوال يومه ممسكا بعصاه الرفيعة ناظرا الى الصبية لابد ان يحفظوا القران وهم صغار ، فاذا كبروا صعب ذلك ·

وسليمان يخشى الله كثيرا ، فهو دائما على وضوء ، لايقرب مبروكة الا نادرا ، وهو لا يجلس معها فى مكان حتى عندما يتعشى فى بيته فهى تقف خلفه تلبى طلبه ، وهو لا ياكل الا الثريد وهو خبز مدسوس فى اللبن المغلى ، وكل يوم يتعشى ثريده المفضل ،

وفى الظهر ياكل عقب صلاة الظهـــر خبزا مقددا وملحا ، ويأخذ سليمان فى مقابل تعليم الصبيان نصيبا من ثمن النباتات الطبيـــة التى تبيعها المنشية كما يحصل على هدايا كثيرة من الاهالى ، وقد نمت ثروته نتيجة لذلك ، تلك الثروة التى تديرها مبروكة ، فلديهم حتى الآن مائتان من الخراف ومثلها من الماعز وأربعة من الأبل وبقرة ولوده تدر لبنا ، ولديهم أيضا مخزن يكاد يملتىء بالحبوب ، ومبروكة لا تترك زوجها لشحه على نفسه ، بل تطعمه كل حين بعض اللحم ، وتكسيه ثوبا انيقا يليق بمعلم فى الكتاب ، ومع هذا فان الناس فى المنشية يقولون أن ثروة هذين الشيخين تعادل ثروة ترك وزوجها عبد الجليل ومعهما ثروة اهل البكرى جميعا ودارهما تقع بجوار دار ترك فى طرف المنشية ، هى دار لم يدخلها أحد ، من قبل ، فهما أيضا لم ينجبا ، واكتفيا بمالديهما من اعمال ..

زينب تفكر فى كل هذا وهى مستسلمة لايدى ترك تصنع لها الضفائر الصغيرة والكبيرة ، عيناها تتابعان غزالة وهى تملأ صندوق ملابسها الجديد ، وتفكر زينب فى مهران السيد وأنباء اجتيازه لاختبارات العرس تاتى اليها من بنات صـغيرات يسرعن بابلاغها ما حـدث لعريسها مهران السيد وقد وصل اليها توا خبر اجتيازه لآخـــر هذه الاختبارات وأنهم اخذوه الى دار البكرى لكى يرتدى ملابسه الجديدة تحت اشراف صديق عمره بكرى ، ومعهما حلاق المنشية الفاخورى الذى يتباهى باهميته فى تزيين العرسان · انفرج الهم عن زينب لتمكن مهران السيد ، زوجها المقبل من نجاحه وشجاعته وقدرته على الامساك بالخروف الطائش وكادت تضحك بصوت عال عندما تخيلت مهران السيد الأسمر النحيف وهو يسقط على الأرض والكبش يكاد ينقض عليه ، ولكنها تمالكت نفسها وكفت عن ذلك ، وجاءها الحزن ثانية ، وأحست أن قلبها يختنق من الحزن فبكت فى مرارة

وان لم تكف من حولها الزغاريد والغناء ولكن غزالة انتبهت واندفعت نحو صديقتها فى لهفة ٠٠

٠٠ وكانت الدار تعج بالضجة واصـوات النســاء مهللات مغنيات مزغردات وصوت فتاة صغيرة تعلن :

ـ الشيخ البكرى ركب حصانه

(٦)

جلس الشيخ ابراهيم البكرى فوق حصانه ، يسير الحصان فى تمهل ، خلف خمسة عشر فارسا يمثلون شيوخ البكرية ، بعدهم بقليل حملة الاعلام من الشباب يمشون على أقدامهم ، ثم موكب العريس مهران السيد على حصانه الابيض يحرسه من على اليمين بكرى ومن على اليسار عدوى ، خلفهم سبعة عشر فارسا من شباب البكرية وخلف هؤلاء عم غراب وعبد الخالق ومحروس وزينهم فى ملابس الاعياد يعزفون بالاتهم الموسيقية ، الموسيقى كانت تضـدح بصوت عال ، خلفهم مباشرة جمع غفير من الاطفال والصـبيان راحوا يزيدون كلما مضى الموكب الى الأمام ٠٠

تسابق الرجال ، كل حسب قدرته ، على الاشتراك فى الموكب، اصحاب الخيول من كبار السن انضموا فى موكب خلف مشايـخ البكرية ، والشباب هرع خلف موكب العريس ، وأصحاب البنادق راحوا يتسابقون فى أطلاق الاعيرة النارية ، أسرعت النساء الى أسطح الدور ، ورحن يزغردن فى سعادة ، كانت البنات الصغيرات يمسكن فى أيديهن بعرائس صغيرة من الفطائر والحلوى ٠

كانت زينب ترتعد فى خوف ظاهر ، تحلق حولها فتيات البكرية على رأسهم غزالة ، حاولن التسرية عنها ، ولكن ارتعاش يدها اليمنى يزداد ، جاءتها أمها ولطمتها فى قسوة (الخوف لاتعرفه بنـــات البكرية) ، أسرع شقيقها محمود باحضار الجمال أمام باب الدار ، حملها شقيقها من بحراية الدار الى أن وضعها فى الهودج المعـد لها ، جلست مشدودة وصعدت بجوارها غزالة ثم الخالة ترك ، التى ستتولى مصاحبتها حتى فراش الزوجية ، نهض الجمل واهتز قلب زينب كانت هذه اول مرة تركب جملا ، صرخت غزالة ولكنها أسرعت فكتمت صرختها عندما نظرت اليها ترك ، مضى الجمـل وخلفه مجموعة أخرى من الجمال تحمل متاع زينب وخلف الجمال سارت الفتيات تدق احداهن الدف ، ومن حولها البنـات تصفق ، قادت الفتاة السمراء الغناء فى عذوبة (احنا البكرية ياوله ولاحدش قدنا) ، والفتيات يرددن خلفها فى حماس بالغ ، قالت التى تغنى انهن أجمل نساء الأرض ، وأرق نساء العالم ، وان الحصول على واحدة منهن للزواج ليس أمرا ســهلا ، وأن من يريد ذلك عليـه الصعود أولا للقمر وتقديم قطعة منه مهرا لعروسته ، وتمضـى الأغنية فتعدد جمال العروس من أول شعرها حتى قدميهـا ، وفى مبالغة ومباهاه كان الغناء يصل الى سمع الرجال مختلطا بالموسيقى الصاخبة التى يقودها عبد الخالق وفرقته من الرجال ، وطلقات النار التى تتوالى ٠

وصل موكب الرجال الى (الجرن) وهناك وقف ابراهيـم البكرى معلنا بدأ حفل الزفاف ، تراصت الخيل فى شبه دائرة حتى ما أن وصل موكب العروس ، دخل الجمل الذى يحمـل الهودج الدائرة ، فأسرع مهران السيد ومعه مرافقاه الى زمام الجمل فقادوه الى دار مهران السيد ثم مضى الموكب مرة أخرى ، ولكن هذه المرة ، الهودج فى المقدمة يقوده مهران وحوله بكـرى وعدوى ثم موكب

الفرسان يتقدمهم الشيخ ابراهيم ثم موكب الجمال المحملة بالمتاع ثم بقية الرجال والشباب والنساء والاطفال ، وارتفع صوت الموسيقى فقد دخل التنافس اشده بين فريق الرجال وفريق البنات ٠

وصل الموكب الى دار مهران ، هبط مهران السـيد من على حصانه مسرعا ، كان يعرج قليلا ولكن من فرط سعادته لم يهتمبذلك، اندفع نحو الهودج الذى انحط به الجمل واخذ عروسه بين يديه ، كانت سمينه وحملها ينوء به مهران السيد ولكنه تجلد حتى دخل دارهم ، من خلفه اسرعت ترك وغزالة وأم زينب ، فاذا ما دخلوا دارهم ، اسرع شقيق زينب بمنع الدخول ٠

ترجـل ابراهيم ومضى حتى جلس فى صدر الدائرة المعدة للسهرة ، تبعه كل الرجال ، أسرع الشباب بابعـاد الخيل التى انطلقت عائدة الى دورها ، تمركزت فرقة الرجال الموسيقية فى زاوية من الوسعاية امام دار مهران السيد ، بكرى وعدوى يحملان أولى صوانى القرفة ، وخلفهما جمع من الشباب رائحـة القرفة تملأ المكان ٠٠ وارتفعت الاكواب الصغيرة الى الافواه المبتسمة ٠

دلفت النساء داخله الى دار مهران السيد ، كانت صوانى الطعام وسلال الخبز والفطير والحلوى قد سبقت الى الدار ، رحن يعملن فى حماس لاعداد العشاء لكل الناس حتى صار الطعـام جاهزا ، وكان حماس النساء لا مثيل له ، لهذا صاحت أم مهران السيد معلنة بدأ فتح المندرة للعشاء ، وأرسلت من أجل ذلك الى زوجها الذى مضى مسرعا نحو الشيخ ابراهيم ليخبره بأن الطعام اصبح معدا للرجال ٠

(٧)

لولا ناعسة لكان الآن يجلس فى مكان ابراهيم ، متصدرا الرجال ، ينظرون اليه فى احترام ، يسارعون الى تلبية طلباته وأوامره ، ولكنها ملعونة كانت السبب الرئيسى فى وكسته هذه ، أحبها نعم ، لامراء فى ذلك ، احب بدوى ناعسة هذا أمر لا يمكن انكاره ، بدوى كان يعشق الرائحة الجميلة الوجه الجميل ، بدوى كان يعشق الحياة ، الزهور الصغيرة التى تنبثق من بين احجار الجبل ، الزرع الأخضر الذى كان يرتعش فى طفولته تحت ريح الصبح ، صهيل الخيل وهى عائدة فى المساء ، الصبايا وهن ذاهبات الى البئر لاحضار الماء ، وعند البئر راى لأول مرة خديجة تحمل اناء فخاريا وتقف فى انتظار صويحباتها حتى يملأن جرارهن كانت طويلة مثل نخل الوادى رشيقة مثل ذلك التمثال الذى شاهده فى المدينة ، واستولت على لبه استدارت ولمحته ينظر اليها ، جفلت وتراجعت فى ارتباك ، وكان الاناء يسقط منها سارعت اليها صويحباتها ، مضين مسرعان خائفات ، كان بدوى مثل صقر لا ند له ، يصيد الذئاب ويطارد الوحوش فى الجبل لا يخاف من احد ، وكان جريئا ، تناقلت عنه الاخبار انه يسير فى الجبل وحده فى منتصف الليل ، حتى خافته وحوش الجبال من حيوانات وبشر .

أسرع بدوى الى أبيه ، وتزوجها ، خديجة مثل السحر جاءت الى عالمه ثم مضت وبين مجيئها وانصرافها عاش بدوى عمره كله ، حياته كلها ، عاش بدوى كل لحظات هنائه الذى انقطع لحظة وفاة خديجة ، لم يشعر بمضى العمر ولم يشعر بأن خديجة ظلت معه عاما كاملا ، عاش عامه هذا وظل يعيشه حتى الآن ، ومضت خديجة تاركه له (عدوى) مضت وتركت مكان قلبه خاويا ، ومع

هذا عشق ناعسة ! هبط الى الوادى فى رحلة على أمل أن ينسى خديجة ، وشق الوادى بحصانه وصل الى المقهى ، وجلس يرتشف شايه ومع الشاى تسلل وجه ناعسة الى قلبه ، وكانت ناعسة ذات جمال صارخ يأخذك من أول نظرة ، كانت مثل خديجة ، ولكن فى تجمل مقصود ، وعن رغبة فى اظهاره ، كانت ناعسة تعلم انها جميلة وانه لا مثيل لجمالها ، لو كانت خديجة ماتزال حية لنافست ناعسة جمالا ، ولكن خديجة ذهبت وبقيت ناعسة تتحدى قلوب الرجال ، لم يستطع أحدهم مبادلتها الحب ، كانت مثل حصن عصى على الفتح ، تقافز الرجال حولها بعد أن مات عنها زوجها ، ولكنهـــم مجرد قرود لاتعرف الا الشجار ، لم تر فى أحدهم ضالتها المنشودة كانت ذكرى زوجها الراحل هى السند وهى السد وهى المدد ، لهذا راحت تنهل من ذكرياتها معه حيث عاشت معه عاما واحدا ثم قتله المطاريد ، أو قتله جهله كما يقولون هم ، فجاءت الى هذا المكان وكل همها أن تقتل من قتل زوجها ، أقامت تلك المقهى تقدم لزبائنهـــا الطعام والشراب ومنهم تعرف أسرار المطاريد فى الجبل لكى تصل الى قاتل زوجها ٠

بدوى ظل يحضر الى المقهى ويشرب الشاى ويشرب معه وجه ناعسة الجميل ، ارتاح اليها وارتاحت اليه ، همس كل منها للآخر بشكواه ، شكت له الزمن وشكى لها من الأيام ، سقط فى حبها خلال حديثه عن خديجة وسقطت فى حبه خلال حديثها عن الفتى الوسيم الذى مات بيد المطاريد ، تحالفا من أجل الثار لزوجها عبد الرازق ، وبدأ يهجر المنشية ويعيش فى البندر ، تعقب المطاريد حتى انضـــم اليهم ، ضحكوا عندما علموا انه وريث شيخ البكرية ، اذاقهم والده كل ألوان الذل ، ماذا يحدث لو كان ابنه معهم ، فى ركابهم ، رحبوا به بينهم ، أفسحوا له مجال الحب بينه وبين ناعسه التى نســيت

بحبه عبد الرازق والثار له ، تذكرت فقط رغبتها فى الاستيلاء عليه ، بدأت تطارده بمطالبها ، وكلما فكر فى هجرها والعودة الى ولده عدوى والى اخوته الأحبة وعشيرته ، أسرفت هى فى وعودهـــا ، وصرفته عن العودة ، وسقط فى حبائل المطاريد وعيون ناعســـة الجميلة ..

وعندما فكر فى العودة الى ديار المنشية ، واجتاحه الشوق لرؤية وحيده ، اكتشف انه لا يستطيع مفارقة ناعسة ولاعصيان أمر المطاريد ، الذين أعطوه ليرضى مطالب ناعسة ، وكان أخوه ابراهيم قد تولى مشيخة المنشية ، وانساق مع المطاريد تحت سطوة عشقه وتهديد طرده من مملكة الهوى ، وذهب ليسرق دار مبروكة .

وهناك خلف الدار ، سقط فى كمين حراس الليل الذين كانوا اكثر يقظة من ضميره ، فأحاطوا به ومن معه من الرجال المطاريد ، ودارت المعركة التى سرعان ما اسفرت عن ســـقوطه مقيدا بخزى الدنيا وعار سرقة الأهل وخيانة الاسرة .

وهناك فى بحراية البكرى وأمام كل رجال المنشية وقف مدانا أخرس لايملك لخيبته الا الصمت يرى ابنه الوحيد يتعذب من القهر الذى سببه له وتحمل الضرب والنفى بين مقـــابر الاجداد ولكن مالم يتحمله البعد عن عيون ناعسة ، قاوم كل ألوان الاهانة من حراس الليل الذين أحاطوه فى منفاه حتى لايهرب ، ولكنه لم يتحمل بعده عن ناعسة ، لهذا كرهها ، حمل لها فى قلبه كل ألوان المقت والبغض أحبها حتى كاد يقتله هذا الحب ، فنذر نفسه أن يقتلها ، لهذا فكر الليلة فى السطو بمفرده على دار مبروكة ، وبمال مبروكة يستطيع أن يعود الى البندر لينتقم من ناعسة ، الجميع فى حالة انتشاء بالفرح ، حتى حراس الليل ، والطبل والزمر يغطى المنشية.

والقمر يسبح فى السماء يبدو هو الآخر غارقا فى النشوة مع زينب ومهران السيد فى ليلة زفافهما ، وخرج بدوى من داره متجها الى دار مبروكة عازما على نهب كل ثروة مبروكة والهرب بها من دنيا المنشية نهائيا ٠

(٨)

جلس سيد فى أعلى مقعد فى السينما ، انه يعمل مراقبا ، عليه أن يتأكد ان كل شىء بالسينما على خير وجه ، وأن عدد من جلسوا هم بنفس عدد التذاكر المقطوعة ، وقد فعـــل هذا ، جلس يشاهد الفيلم للمرة العاشرة ، كانت البطلة تحاول اغراء البطل ، وكانت الأرض مغطاة بالجليد ، والبطلة ترتدى مـــلابس من الفرو والجلد ، وكان البطل كذلك ، وقد توقفت الزحافة بهما ، ولا يزال باقيا على الفندق الذى يقصدانه مسافة قصيرة ، ولكن البطلة لاتريد ضياعا للوقت لقد بدأت فى اثارة البطل ، سيد يرى مشاهد الفيلم دون اهتمام ، يعرف كل التفاصيل ، أول مرة شاهد هذا الفيلم انبهر به ، كان يلهث وهو يتفرج ولكنه لم يعد كذلك بعد أن رآه كثيرا ، جاءت سيدة وجلست بجواره ، لم يشعر بها فى أول الأمـــر كان شاردا ، نصف عقله مع الفيلم والنصف الآخر يفكر فى كريستيل الطالبة بطب الاسنان ، انتبه الى السيدة التى تجلس بجواره ، كانت قد بدأت تعبث فى جسده ، تلبدت احاسيسه ، وظل ســاكنا ، بينما راحت هى تفعل ما يحلو لها ، اسكتته النشوة وأفزعه انه لايدرى كيف يطردها ، احس انه من بلد آخر ، من عالم آخر ، عالم الرجل هو الذى يطارد وهو الذى يبدأ ولكن أن تقوم انثى بذلك فانه أمـــر

اريكه ، هز كيانه وبعثر كل تلك السنوات التى قضاها فى المانيا زيرا للنساء ، زعيما للمتسكعين فى حوارى هايلدبرج ، وما ان افاق لنفسه وقرر طردها والدفاع عن نفسه ، حتى وجدها تتصرف لحالها وكما جاءت ذهبت دون أن ينتبه جيدا ، لا يذكر ملامحها ، بل لا يذكر لها شكلا محددا والغريب أن هذا الأمر تكرر عدة ليالى ، وهو فى كل ليلة يربكه الهجوم عليه بغته وتدهشه سلبيته وانصرافها ايضا بغته ٠٠ وجلس هذه اللية وكل حواسه منتبهة فقد قرر أن يمسك بها ويعرف من تكون هذه السيدة ، وطالت جلسته حتى انتهى عرض الفيلم ، فقام وانصرف الى حيث قضى بقية ليله فى بار تيتا ، ولكن هذه الليلة اكدت له انه سقط فى حفرة لانجاه له منها ٠

الفصل الثالث

(١)

لم يستطع بدوى التوصل الى مكـــان الكنز المدفون فى دار مبروكة ، عبث بكل شىء ، لم يترك جحرا أو طاقة أو حتى ناروزه الفرن أو الشاروقة ، حتى صارت ملابسه كالتراب فى لون اتساخها ومع هذا لم ييأس ، كان موقنا أن مبروكة لديهـا من المال ما يكفى لكى يعود بدوى الى سابق عهده مع ناعسة وأن يزوج ابنه من غزالة ابنة أخيه ، المال هو السند الوحيد الآن لبدوى والمال لدى مبروكة ، وسوف يحصل عليه ، وواصل البحث باهتمام أشد ٠

(٢)

كان بكرى يرقص رقصة الحجلة مع بنات المنشية اللاتى تكون حلقة حوله ، ورحن يرقصن فى براعة ، وصادق وعبد الخالق يدقان

دقا عنيفا ، والكل يصفق ، كان على بكرى أن يغرز خنجره بجوار الفتاة التى يريدها واذا استطاعت الفتاة أن ترفع الخنجر من الأرض فلها الحق فى رفض طلبه،وازداد الايقاع شراهة وحمى وطيس الرقص والجميع يتابعون ، وبكرى كاد يصل فى حجلته الى غزالة التى تبدو مثل قمر الزمان بطلة حكايات عم صادق ، جميلة جمال القمر فى ليلة تمامه ، فارعة الطول يلقى ظلها على الأرض مهابة وكبرياء ، تبتسم فى سعادة وهى تعلم أن بكرى سوف يرشق الخنجر أمامها ، ولا يمكن أن يفعل غير ذلك ، البنات يدرن دورة أخرى ، كل واحدة تمنى النفس أن يفعل بكرى هذا أمامها هى ، رغم أن كلهن واثقات أن بكرى سوف يختار غزالة ، ولكن بقى قليل من الأمـــل لدى كل منهن ، لهذا رحن يرقصن فى مهارة ناظرات من خلف الاهداب الى بكرى ، الذى تحول الى نمر حقيقى يثب فى براعة ، ويدور حـــول نفسه ثم حولهن فى خفة القرد · فى يده خنجره اللامع مســـتعدا لاختيار جميلة الليلة ، ياله من حلم جميل تحلم به الفتيات ، يالها من لحظة تدنو مقتربة من قلوب العذارى ·

عدوى وقف يصفق بحرارة ، قلبه يدق بشدة ، ماذا لو اختار بكرى غزالة ، وحتما سيفعل ، هل سيكون هذا بمثابة اعلان الخطوبة غزالة مخطوبة اسما لابن عمها سيد ، وسيد هذا لا احد يعرف أين هو ، والشيخ ابراهيم لا يعلن للناس وفاته ، بـل لا يريد التحدث مطلقا حول ابنه هذا ، ماذا يفعل ان اختار ابنه الثانى لغزالة ؟ ، الأهم ماذا يفعل عدوى ؟ ، ·· أين أنت ياأبى حتى تحقق وعدك لى ·· ، ها هو بكرى يقترب من غزالة ، لقد أصبحت غـزالة فى الصف المقابل ، دارت دورتها واحتلت الصف الذى يجب أن يقابل الراقص الشاب فى وسط الحلقة ، والجمع تحول الى عيون ، هذه لحظة من لحظات العشق الذى يتغناه الشعراء ، وتظل المنشية تردده دهرا ، بكرى بدأ يلعب بالخنجر حول رأسه ثم حول صدره ، هذا

معناه أن عقله قد اختار وأن قلبه أيضا قد اختار ، لم يبق الا الخطوة الأخيرة ، اهتز جسد غزالة وكأنها ترتعد خوفا أو حبا ، عليها أن تدور حول نفسها ثم تنحنى الى الخلف ثم تصفق بيديها ناحية اليمين ثم تعتدل لتصبح فى مواجهة بكرى تماما ، وعليه هو أيضا أن يدور بجسده كله على أن تكون نهاية دورته فى مواجهة غزالة ، ودار وهو يضرب بقدميه الأرض ، تلاقت العيون ، العشق قديم يا أختاه ، وأنا أتضور شوقا ، أنوء بحمل القلب العاشق وحدى ، اقتربى يا أختاه ، اسمعى دقات هذا القلب المتيم ، ضعى يدك على صدرى ، قــولى نعم ياأخى ، أنا مثلك أعشق القمر فى المساء ، وأعشق أغانى الليل تشدوها حمائم الحب ، ونسمة رطبة تمسح عرق جبهتى المبتلة بماء جسدى ، هاك يدى يا أخى نقول لكل العالم نحن نعشــق الانسان فيك أيها العالم ...

وارتفع الخنجر فى الهواء وانغرس بقــــوة فى الأرض فى محاذاة القدم اليمنى لغزالة ، توقف دق الطبول ، وكفت الأيدى عن التصفيق ، وانخرست الألسن فى الأفواه ، تراجع بكرى فى كبرياء الفارس لحظة الامتحان ، ترك لها حرية الاختيار ، ثنت غزالة قدمها اليمنى ودفعت باليسرى خلفها ، مدت يدها لتقتلع الخنجر ، امسكت بمقبض الخنجر ، أغمضت عينيها ، كان عليها أن تحاول جادة حتى لايركبها العار ، يجب أن يتفصد العرق من جبهتها ، عليها أن تبذل أقصى طاقة لديها لكى تقتلع الخنجر ، وفعلت غزالة ، تذكرت انها أحيانا تفكر فى سيد الغائب ، وأن بكرى يخيفها ، وأن هذه مجرد لعبة فى رقصة اعتادوها فى الافراح ، راحت تهــز مقبض الخنجر بكل قوتها ، ولكن الخنجر لم يهتز ، حاولت ، وحاولت ، ثم امسكت بها أيدى البنات ورفعنها الى أعلى ، ودارت حلقة البنات فى نشوة ، ها قد أعلن على الملأ اختيار بكرى بن الشيخ ابراهيم ، لقد اختار

غزالة ، وعلى المنشية احترام هذا الاختيار ، ولن تقبل المنشـــية تراجعا عنه ، صرخ عدوى دون أن يشعر :

ـ ظلـــــم !

ارتبك الجميع ، نظروا نحو عدوى ، الذى فاجاه الصــراخ كما فاجأ القوم ، انطلق يعدو نحو دار ابيه ، لم يكن يعلم عن نفسه انه يعشق غزالة كل هذا العشق ، (ياويلى من الحب ، وياويلى من السنة الناس ، وكما تكلموا عن أبى ســوف يتكلمون ايضــــا عن حكايتى ·· ملعونة أنت يادنيا) ·

(٣)

استطاع بدوى أن يعثر على بعض النقود مدسوسة فى الجدار الجنوبى جلس ليستريح وقد ايقن أن مبروكة لا تصع كل ما لديها فى مكان واحد ، وأن عليه أن يبحث وفقا لهذا ، سمع صوتا مثل فرقعة السلاح ، أو تمزق باب خشبى ، واصاخ السمع فعلم أن الفرح قد انتهى ، وأن مبروكة سوف تعود بعد قليل هى وزوجها ، وايضا سوف يمتلىء الشارع بالناس خلال عودتهم من العرس ، لهذا قـــرر أن يؤجل البحث عن كنز مبروكة وسوف يعود فى الغد ، واتجه نحو الباب ولكنه ما كاد يفتحه حتى لفحه هواء بارد يندفع بقوة قادم من الجبل وسرع صراخا ، تراجع بدوى،احس بالخوف ، أول مرة يشعر بالخوف ، اندفع خارجا ولكن موجة من الماء المندفع اعــادته الى الدار ، انخلع قلبه واختلط الواقع بالحلم الظلام معتم كظلام القبور،

وقدر بالماء يفور وعواء ريح صرصر عاتية ، اقتلعته موجة مذعورة طار بجسده فى الهواء ثم ارتطم بحجر مخلوع ٠٠

(٤)

صرخ الشيخ ابراهيم واستدار نحو الجبل ، تدافع الناس من حوله ، الظلام دامس ، والماء المتدافع من الجبل يدوس كل شىء ، وأحس بيد عثمان ، ناداه عثمان ، ولكن الشيخ ابراهيم كان يتجه بكل قوته نحو الجبل ، الماء مصدره الجبل ، وهو لا بد واصل الى المصدر حتى يوقف اندفاع الماء ، ناداه بكرى ، عد يا أبى ، لا أرى شيئا ، بدأ الماء يطيح به فى قوة ، يقاوم الشيخ ابراهيم البكرى ، يحاول ، يصرخ فى الرجال : تشبثوا بأرضكم ودوركم ، دافعوا عن أبنائكم وزوجاتكم ، سدوا الفرج واستقيموا يرحمكم الله ، ان الله ينهى عن البغى والمنكر ، كونوا قوامين على الناس ، جدكم العظيم يراكم ، سوف يتباهى بكم ، لا تأخذوا الصدقة ، ولا الحسنة انتم خير أمة ، وجعلناكم فوق الناس ، ولا تأخذوا الصدقة ولا تأكلوها ، ولاتجعلوها تدخل الى حلوقكم ، اعتدلوا ان الله لا ينظر الى الصف الأعوج ، الماء يغطى جسده ، والجسد ينتفض بقوة للمرة الأخيرة ٠

(٥)

تشبث بى يامهران أنا زينب الا تسمعنى يا زوجى ، يازوج المكلومة ، الحائط المنهار سنبنيه معا ، تشبث بالبـــاب ، ها نحن

ننجو ، لا تضيع منى ، مهران ٠٠ مهران ٠٠ مهران ٠٠ لايجـــب يازينب سقط مهران تحت ثقل الحائط ، ضاع صندوق الملابس لـم يبق الا الماء ، ها أنا قادمة اليك يامهران ، انتظرونى ، اسمع صوت أمى ، النجدة ياأمى ، ظلام يركب على الصدور والعقول ، المـاء يرفعنى ، لا أجد ما أمسك به ، قادمة اليك يامهران ، يازوجى ٠٠ ياحسرة القلب الذى لم يفرح بعد أبى أين انت ، الظلام والريح والماء يأكل جسدى ، اشعر بالراحة ٠٠ وداعـــا طبول العرس ، لاتكفى واصلى الدق وانتن واصلن الغناء ، انا ذاهبة الى مهران السيد وراحت العروس منحدرة مع الماء المتدافع الذى يأخذ امامه كل شىء ، لايوقفه شىء ، أخذ البشر والابل والغنم ، وأسقط السطح وأحلام العروس ، أخذ دموع الأم ، لا يهدأ ولا يريد أن يكف عن الأخذ ٠

(٦)

اندفعت مبروكة نحو دارها ، كانت تغوص فى الوحل ، تدفعها المياه فتسقط بجوار الحوائط المهدمة ، ولكنها تقاوم مرة أخرى ، تنادى على زوجها الذى كان هو الآخر يبحث عنها بين النساء اللاتى تجمعن فوق دار البكرى ، كان الرجال وقد فاجاهم السيل لايدركون مايفعلون انما هى الغريزة ، حب البقاء ، يتخاطفـــون الاطفـــال فيضعونهم فوق دار البكرية التى قاومت السيول حتى الآن ، بعض النساء أخذن اطفالهن واحتمين بالجبل ، كانت النساء أسرع من الرجال فى الافلات من هوجة السيل واندفاعــه ، الرجـــال يأبون الانصياع ، كانوا على ثقة من انفسهم الى حد كبير ، ومع هذا ضاعت

من بين أيديهم الخراف والماعز والابل التى اهاجتها مياه السـيل فراحت تتخبط فى ارتباك واضح ، حتى تلك الخـراف التى كانت محبوسة فى الحظائر وداهمها السيل لم تستطع الافلات من المياه فنفق عدد كبير منها ، كان كل واحد من الرجال يتصرف بوحى خاطره كانوا يتنادون بالاسماء ، الظـــلام كان كالخيمة الثقيلة على دور المنشية ، استطاع بكرى أن يهتدى الى امه وغزالة وعمه عثمـان وساعدهم على تسلق جدار الزاوية الذى يحتمى بجبـــل صغير ، أسرع مناديا عمه بدوى وابن عمه عدوى ، واستطاع كمال ابو ريه ، ومجاهد الغازولى وكعب الزهاوى ، انقاذ بعض الخراف والماعـز ووضعوا سدا من الاحجار امام انحراف مياه السيل ، فابعدت عن منطقتهم الغرق •

(٧)

كانت ترك فى اعلى منزل العرس ، كانت قد ذهبت لتحضر العشاء للزوجين السعيدين ، فاشتبك جلبابها الاسود بفرع شــجرة السنط التى تنام على الجدار القبلى للدار ، حاولت اقتلاع الجلباب، داهمها الظلام الحالك وصوت الماء المندفع نحوها ، صرخت فـــلا مجيب ، خافت ارتمت على الجدار فاقدة الوعى •

(٨)

أحس فريد القاضي بالبرد ، حاول أن ينكمش بجسده ، كان يظن أن أخته صبحة تشد عن جسده الغطاء الصوفى ، حاول أن يجذب الغطاء فلم يجده ، عاود النوم ولكن النوم جفاه والبرد يزداد وأصوات غريبة من حوله ، اضطر الى أن يفتح عينيه لم ير شيئا ، ولكنه أيقن انه فى مكان غير معهود ، صاح باكيا :

أمـــى ؟ ؟

لم يجبه الا صوت أطفال مثله يبكون ويصرخون ، ويرتعدون من البرد .

(٩)

ونطق الضوء فجاة ، تحول الظلام الدامس الى صحوة نهار مشرق واختفى الماء تماما ، لم يبق الا أثره المدمر ولمعان الطرق الصفراء المليئة بالرمال ، اهتزت بعض النباتات من فعل الريـــح الهينة ، أبصر بكرى المأساة التى وقعت على نجعهم الهـــادىء ، انشق الجبل عن أخدود عميق ، أخذ معه عشرات البيوت المهدمة ، ومارا بالأرض التى يزرعونها ، منتهيا الى الواد أسفل المنشية ، الاخدود ابتلع عشرات الرجال والنساء ومئات الخراف والماعز ، وبعض الابل والخيول ،

الاخدود الذى أحدثه السيل ، شق صدر جبل البكرى ، كما شق صدور الرجال والنساء والاطفال الذين ابصروه فهالهم قسوته

ورعونته ، ارتفع صراخ الاطفال من فوق سطح دار ابراهيم البكرى، وبكاء النساء اللاتى هبطن من فوق الجبل ، وأسرع الشباب فى محاولة يائسة فى الهبوط الى مجرى الاخدود لكى ينقذوا من بقى على قيد الحياة من حيوان أو بشر ٠

وأسرع بعض الرجال لكى ينظروا حـــال ما تبقى من الدور والاثاث والحيوان والبشر ٠

(١٠)

كانت الشمس فى الأفق تعلن انتصاف النهار عندمـــا عـــاد الشباب وهم يحملون أجساد موتاهم العشرة ، ويعلنون عدم توفيقهم فى الحصول على باقى الجثث وايضا عدم عثورهم على احياء ، وعاد الرجال من بقايا الدو ريعلنون ما تبينوه ، كثيرون اتى السيل على دورهم وطعامهم المخزون ، ولم يبق لهم الا رحمة الله ٠

(١١)

كانت عربات الشرطة الصغيرة أول ما وصل الى المنشـــية من قبل البندر ، جلس الضابط الصغير مع بكرى ، قال الضابط انهم سوف يرسلون عربات كبيرة تحمل اغطية وطعاما وقال بكرى انهم لا يريدون شيئا ، لم يجب الضابط وقام متفقدا منطقة الاخدود الذى

أحدثه السيل ، كان الرجال قد أعدوا الموتى للدفن ، لم يجد بدا من المشاركة وكان المسجد قد تهدمت جدرانه · فاقاموا صلاة الجنازة فى المنطقة الخلاء ، الوجوم يعلو الوجوه ، والصمت يلـــزم الكل بالهمس ، حتى الاطفال كفوا عن البكاء تطلع صغارهم الى الامهات فى استفسار ، حاول الاطفال الكبار اللعب ولكن الجدات تولين كبح زمامهم ، انكمش الصغار فى مجموعات بجوار بيت البكـرى الذى لحقه الدمار ولكن بدرجة اقل من باقى الدور ، قام الرجـال بدفن الموتى فى المقابر التى باعلا الجبل الشـــرقى الذى لم يلحقه الاذى ، كانت المقابر بعيدة عن اندفاع السيول ، وحينما عاد الرجال كان الضابط وعسكره أول من انصرفوا ، وجلس الرجال فى بحراية دار البكرى صامتين ، قال عثمان البكرى :

ـ ليكن شيخنا من الآن بكرى البكرى ·

لزم الجميع الصمت بحثت عيونهم عن بدوى فلـم يجدوه ، وكأنهم خشوا انتهازه فرصة موت شقيقه والاستيلاء على مشيخة المنشية ، استراحوا عندما لم يجدوه ، اعتبر عثمان أمر المشـــيخة انتهى ، قال :

ـ والآن ماذا نفعل ياشيخ بكرى ؟

أحس بثقل الحمل الذى وضعه عمه فوق كتفيه ، نظر الى عمه ثم نظر الى بقية الرجال ·· قال عثمان :

ـ فكر فى المستقبل

وكيف يفكر ، وهو بالامس فقط كانت كل أحلامه الزواج من غزالة ، كان والده يحمل الهم بدلا عنه ، لم يكن مستعدا لتحمـل المسئولية هكذا مبكرا ، ولكن ما حدث ·· ، كادت الدموع تفر عن عينيه ، امسك عن البكاء وزم شفتيه ، ثم قال :

ـ الاطفال لم تأكل

أشار الى مجموعة من الرجال كى يجمعـوا كل ما تبقى من طعام وحبوب ، وما يصلح للاكل ، وأشار الى مجموعة أخـــرى باعداد أماكن للمبيت ، بدأ الجميع يعملون ، جاءت ترك وقالت :

ـ الجبل به جذور تصلح للطعام ، كنا نأكلهـــا فى الزمن الماضى ٠

قال بكرى :

ـ ســنرى ٠

فى الصباح ، جاءت عربات كبيرة محملة بالاغطية الصوفية ، واسرع ضابط كبير وخلفه مجموعة من الضباط ناحية دار البكرى ، قابلهم بكرى فى منتصف الطريق ، قالوا : دعنا نتكلم مع الاهالى ، اشار بيده الى الدور المهدمة قال الضابط جئنا لكم بالطعام والملابس والاغطية قال بكرى :

ـ لسنا فى حاجة اليها

رفع الضابط رأسه فى دهشة ، ابتسم الضابط الأقل سنا ، لزم بكرى الصمت قال الضابط الكبير دعنا نجلس مع الاهالى ٠

سبقهم بكرى الى الميدان ، همس الى صادق بكلمة ، ثم جلس بجوار الضابط على أحد الاحجار ، توالى حضور الرجال والشباب توافدوا وراحوا يجلسون فى شبه دائرة ، كانت الاحجار كثيرة وهى التى ســـقطت من الجدران ، انتظر الضابط حتى رأى عددا كبيرا من الاهالى ، وقف ، وأخذ فى الكلام ، قال كلاما كثيرا جدا ، كان يتصبب عرقا خلال كلامه ، ويرفع يديه مشيرا بهما الى منطقة السيل.

ثم يشير الى الدور ، وأخيرا اشار الى ما معه من طعام واغطية صوفية ، وانه سوف يوزع هذا عليهم طالبا الهدوء والسكينة والنظام ·· ثم التفت الى بكرى وقال :

– اجعلهم يقفون فى طوابير ··

قال بكرى :

– الا سألتهم أولا الرأى ؟

أبدى الضابط الكبير دهشته ، ثم نظر الى الاهالى وقال فى استنكار :

– اقلت كلاما غير مفهوم ؟!

لم يجبه أحد ، أعاد السؤال بشكل آخر :

– هل ترفضون استلام المعونة ؟ ؟

لم يجب أحد ، راح الرجال ينصرفون ، احس الضابط انهم اعرضوا عن حديثه ، قال :

– هذه اعانة ·· اعانة من البندر !

قال بكرى فى أدب :

– هذا شعور كريم ياسيدى ·

قال الضابط :

– والمعونة ؟ !

قال بكرى فى هدوء :

– لسنا فى حاجة اليها ·

ازداد تعجب الضابط ودهشته ، وراح يتلفت حوله عله واجدا من يشاركه دهشته ، لم يجد حتى من معه من ضباط اقل منه رتبه لم يشاركوه عجبه ، بل لزموا الصمت ، فقد كانوا على علم باهــل هذه المنشية ٠

غمغم الضابط بعدة عبارات ، ثم اندفع راجعا الى البندر بعد ان ترك عربات المعونة تحت امرة احد الضباط وبعض الجنود ٠

الفصل الرابـع

(١)

قام سيد من نومه مهدودا والصداع يفتك براسه ، امتدت يده لتلقط علبة الاسبرين ، ابتلع قرصين ، وتذكر أن عليه أن يذهب الى صاحبة السينما لكى يقبض راتبه الاسبوعى ، ثم عليه أن يذهب الى الجامعة لكى يقدم التماسا بتأجيل امتحانه النهائى ، لم يكن مستعدا له لهذا لجأ الى التأجيل ، عليه أن يقابل أستاذه (تيدور) ذلك الرجل القادم من وراء الجبال ولا يعرف الا العمليات الجراحية لماذا اختار سيد هذا الاستاذ ، ربما لاحساسه بأنه شـــرقى وان ملامحه تذكره برجال المنشية الذين رآهم فى طفولته ، ياه ٠٠ كــم تبعد المنشية الآن ، سمع دقا على الباب ، خاف ان تكون السمينة هى التى تدق بابه هذا الصباح المعتم شديد البرودة ، انه لا يقوى

على الحركة ، قاوم وذهب ليفتح الباب ، وجد أمامه كريستيل صاح في دهشة :

ـ أنت ؟ !

دفعت الباب ودخلت ، دارت حول نفسها مستعرضة الصالة وغرفة المعيشة قالت في ارتياح :

ـ لا بأس ٠

ابتسم وهو يعود جالسا ، قال في نفسه ها هي مغامرة جديدة تبدأ ، ضحك بصوت عال وقال :

ـ كيف عرفت مكاني ؟

لم ترد ، بل راحت بسرعة تعيد ترتيب المكان ، كان الكسل يتملكه لهذا جلس مسترخيا في المقعد ، يبدو أنه نام ، انتبه على يدها وهي تدفع اليه بكوب الشاي الساخن ، منظر الشاي أغراه بقبوله ، اعتدل في جلسته وبدأ يشرب ، راعه أن الحجرة أخذت شكلا مقبولا قال في نفسه هذه الفتاة لها مزاج خاص ، جميع الفتيات اللاتي يحضرن اليه لايهمهن الا الحديث ، انهن يدخلن من الباب وتظل كل واحدة منهن تتكلم حتى تنصرف يقلن عن بيته المخبأ ، أو الجحر مجرد جحر يختبئن به وقتا ، وهو أيضا مجرد ضيف مثلهن، ليس عليه أن يفعل شيئا سوى الاستسلام ، ان كل واحدة تأتي الى هنا تشعر انها الوحيدة التي لها حق امتلاك هذا المخبأ وان الأخريات مجرد ضيوف ، لهذا فان كل واحدة تحضر الى هنا ، تكون مستعدة أن تفعل كل ما يحلو لها ، ماعدا الاهتمام بهذا الجحر وهكذا ترك الجحر على حاله منذ أن توفي أستاذه (بوتنر) ٠

ما كاد ينتهي من شرب الشاي الساخن ، حتى وجد طبقا من البيض المقلي ، وقطعا من الجبن وخبزا وبعض المشهيات قد وضعت

على المائدة وكريستيل تدعوه الى الطعام ، لم تعد الدهشة تكفى ، عليه أن يحذرها من أفعالها هذه ولكنه بدلا من ذلك وجد نفسه يجلس ويأكل وهى تنظر اليه ، ثم تذهب وتأتى له بالقهوة ، كان بوتنر يفعل هذا ، كان ينظر اليه وهو يأكل ، وسيد يأكل كأنه جائع منذ أن ولد ، وأن هذا الطعام آخر ما سوف يأكله انه يبتلع كل شىء دون ترتيب ، انه يلتهم الجبن كله مرة واحدة ثم يلتهم البيض دفعة واحدة ثم الخبز ، وهكذا ولكثيرا ما حاول بوتنر أن يعلمه كيف يأكل ، أو على الأقل يجعله يأكل فى تمهل ، الا أن بوتنر فشل ، فاكتفى بالفرجة عليه ، والفرجه على سيد وهو يبتلع الطعام لا تستغرق سوى دقائق فقط ، لهذا ما كادت كريستيل تنظر اليه فى دهشة حتى انتهى الطعام من أمامه ، جاءت بالقهوة راح يعبها فى جوفه فى رشفات سريعة ، ثم اضجع على مقعده وقال لها :

ـ وماذا بعد ياجميلتى ؟

ابتسمت ، فقد ادركــت انه يعاملهــا كما يعامل الفتيات الأخريات ، أنها حقا طالبة فى كلية طب الاسنان ، وانها تعمل فى بار الميدان ، وانها قادمة من ريف المانيا الشرقية ومعها أمها ، هربا من ظلم حاق بأهلها ، الا انها عشقت هذا الفتى وراحت تدور حوله، وتسأل عنه وتتعقبه دون أن يشعر بها حتى عرفت عنه كل شــىء وساعتها قررت أن تأخذه لنفسها مهما كلفها هذا وصارحت أمهــا المريضة بما توصلت اليه وعارضت الأم ، ولكن تلك الفتاة الريفية التى عاشت فوق سفح جبل وفى مناخ غاية فى القســوة ، وتحت ظروف أشد قسوة ، كانت قد عزمت على الزواج من هذا الفتــى الغشوم الذى ملأها هايلدبرج بحكاياته ومغامراااته ، ولم تنجو فتاة فى هذه القرية المحيطة بالجامعة من الوقوع فى هواه ، سواء تلك

التى استطاعت مصاحبته او من لم تستطع ، وامتلأت احلام كل منهن بهذا البدوى الذى يشبه الوعل الجبلى ، والذى يمشى كانه يكاد يسقط على وجهه الصامت الذى اذا تكلم ضحك ثم لا يكــف عن الضحك ولا يقول شيئا كريستيل تعرف هذا ، وتعرف اكثر انهــا احبته وانها أمام شاب لم يعد يهمه شىء ، ولا يتمتع بأى موهبة فى أى مجال ، حتى الرقص فانه ما يكاد يقف فى حلقة الرقص حتى تنهد تحته الارض وتبعثر الرفاق فى كل جانب ، وهو لايكف عن الرقص والضحك حتى يتعب ونادرا ماشعر بالتعب ، كل ما يميزه عن الآخرين انه لا يسبب ضررا لأحد ولم يتهجم فى أى يوم على أحد فى القرية كلها ، وانه يداوم على دفع ديونه ، وانه على استعداد للحفاظ على شرفه دوما ، والحفاظ على شرف من يرافقه ، كانت لديه شهامة رجل لا يتخلى عن الاصدقاء ،، كما كانت لديه القدرة على تحويل العداوة الى صداقة ، لهذا لم يكرهه أحد ، ولم يعاديه أحد ، حتى أساتذة الكلية فعلى الرغم من هروبــه الدائــم من الامتحانات وحيله المكشوفة لكى يؤجلوا له الامتحان لولا انهــم يحبونه ، ويعلمون أن لديه من حسن الادراك والمعرفة ما يؤهلــه للنجاح فى الامتحان النهائى للكلية ، ومع هذا يقول انه غير مستعد ثم يذهب للعمل فى أقل الاعمال اعتمادا على العقل وأكثرها اعتمادا على قوة جسده ، وفى كل عمل يقوم به تراه وقد تحول الى آلــة سريعة الحــركة ، قوية العــزم ، ومازالوا يذكــرون دوره فى ازالة الجليد فى شوارع القرية ، بل وفى طلاء بيت العمدة عندمــا احتفلت القرية بأحد الاعياد الهامة ، واعتمدوا عليه فى اعادة برميل الخشب الاثرى الى مكانه فى قلعة هايلدبرج ، وكانوا يعرضون عليه دوما أجرا مضاعفا ، ولكنه يرفض ويأخذ الأجر العادى مثلــه مثل كل العمال ، لهذا قررت كريستيل ان تحول هذا الوعل البــرى الى انسان يحسن المعاشرة ، نظر اليها وقال :

ـ انت من الصنف الذى يعجبنى ·

قالت فى عفوية وبسرعة :

ـ اما انت فلا

قال فى دهشـــة :

ـ ولماذا ··

صاحت فى ريفية واضحة :

ـ لا تكمل ، انا لم احضر من اجلك

انتبهت كريستيل انها تمضى فى طريق الكذب ، وان مشروعها معرض للانهيار من اول لحظة ·· كفت عن الكلام (واخذت تفكر فى مخرج لها من هذا الذى وضعت نفسها فيه) ، ساد الصمت،ارتبك سيد ، قال بعد برهة :

ـ لا اقصد انما اردت

قالت بسرعة وبنفس العفوية :

ـ بل جئت من اجلك انت ، اقصد اننى اعلم انك ·· ثم اننى ·· لا استطيع ان اقول كل ما اشعر به ·· صاح فى دهشة وهو يغالب الضحك :

ـ هذا يذكرنى بحواديت جدتى

قالت فى اهتمام شديد :

ـ اريد ان اعرف كل شىء عن جدتك هذه ، وعن امك وعن اخوتك وعن العالم الذى جئت منه ··

قال بزهو وقد تمدد بجسده كله فى مقعده :

- تريدين معرفة أهلى حقا ؟

ردت فى حماس :

- نعم

حاول أن يستمتع باللحظة الراهنة الى ابعد الحدود ، ولكن لسانه تلعثم وقال فى برود وقد زال عنه كل الحماس :

- كل ما اذكره عن عالمى مجرد أحلام

قالت وهى تشعر أنها اقتربت منه :

- أود سماع الاحلام ٠٠ احلامك !

بدت دموعه تنزلق غصبا عنه ، جرت على خده ، اسرع فمسحها بكفه ، وانزلقت غيرها ، احس بشاربه يرتعش ، واذنه اليسرى ترتعش ، ثم خرج منها صفير حاد ، شله الحزن فكف لسانه عن النطق وأطرافه عن الحركة ، كان يود أن يصيح بصوت عال :
- أمـــى !

كان يود أن يندفع الى احضان أمه ، أن تهدهده بيديها ، أن تهمس له فى اذنه بآيات من القرآن ، كان يتحرق شوقا الى صدر أمه ، داخله طفل ضاع فى سوق البندر ، يرتعد خوفا من لص مجهول ومن عفريت السوق ، من يد تمتد اليه فجاة وتخنقه ، صاح فى جزع خائف :

- أمـــى ؟

اندفعت كريستيل اليه ، أخذته بين أحضانها ، وضعت رأسه على صدرها راحت تهدهده بيديها ، مشطت شعر رأسه بأصابعها

وهمست اليه بكلمات حلوة شهق عدة شهقات متوالية ، راح الصفير يخرج من اذنيه ، وصدره يعلو ويهبط وأحس أن الملاك الابيض قد جاء ، وانه يشمله برعايته ، تسللت الطمانينـــة الى نفسه ، بدأت انفاسه تنتظم ، قل الصفير فى اذنيه ، كان يشعر انه جرى لمسافات طويلة ، وانه مرهق ، لكن الخوف تلاشى واضاء الآمن من حوله الدنيا ·

(٢)

تسلل بدوى الى بقايا داره ، كانت السيول قد نجحت فى هدم اغلبها واصابته هو بكدمة مؤلمة فى كتفه ، لهذا كان يتالم فى صمت حاول أن ينام بجوار الحائط الذى قاوم السيل ، ولكن الجوع منعه من النوم ، كانت نفسه زاهدة فى الذهاب الى دار البكرى الكبيرة ليسال عن طعام ، وكانت العجائز قد جمعت كمية كافية من الدقيق ورحن يصنعن الخبز والفطائر للاطفال والشيوخ ، واكتفى الرجال بالفول الناشف ، أما بدوى فلم يذق طعاما منذ أن هجـــم على بيت مبروكة وهاجمه السيل هناك وبعدها سقط بجوار الباب الذى كاد يصطدم به ، تشبث بدوى بالباب حتى انحسرت عنه المياه ، بعدها نام ، وأحس كأن ناعسة تقترب منه ، تمسك بكتفه وتجذبه نحوها ، صرخ من الألم ، ثم صحا وجد نفسه يكاد يموت من البرد ، قام وجلس بالقرب من الاحجار التى دفعتها المياه عند جدار بيت مبروكة ، اعتلى الاحجار ونام ، مرة اخرى تجىء اليه ناعسة ، وتضحك لنومه على القش ، نادته أن يدخل الى القاعة ولكنه رفض ، عادت ومعها الحرام الصوف ألقته على جسده ، وغطته ، شـــعر

بالدفء نام ، ولكن عدوى ابنه جاءه وقال له : انهم سيقومون بدفن الشيخ ابراهيم ، فزع وقام مسرعا ، بكى وهم يضعون جسد أخيه فى التراب ، نظر الناس اليه ، بعضهم جاءه مواسيا والبعض الآخر كاد يقتله بالنظر اليه فى غيظ ، انسل من موكب الجنازة وجاء الى داره ، وقبل ان يتعرف على ما الم بها ، كان قد نام ثانية ـ احس انه ينام على سطح سفينة وان تلك السفينة تعبر البحر الى البـر الآخر ، ثم رأى فى البر الغربى الطعام يقدم لكل الناس ، جلس على أول مائدة قابلته واكل ، أرزا ولحما وفاكهة ، ظل ياكل ولا يشبع ، قام بدوى ، تسلل الى عقله ذباب راح يطن ، ازداد الطنين ، وقال فى نفسه : لابد اننى أصبت فى عقلى واننى لم أعد أعرف الفرق بين الواقع والحلم ، جلس بجوار الجدار الباقى ، أحس بالجوع لم يشأ الذهاب الى هناك ، أراد أن يتأكد من أن ما مر به لم يكن حلما ، وانه شاهد النساء المسنات يعجن الدقيق وان ابنه عدوى قدم له حفنة من الفول الناشف ، رفع يده فاذا هى خالية ، الطنين يملأ دماغه ، والخوف من الجنون يدفعه الى الجنون ،

قرر بدوى ان يذهب الى هناك ٠٠

(٣)

جلس الناس على الاحجار ينظرون الى عثمان الذى جلس بجوار بكرى ، قال عثمان :

ـ من أراد ان يقبل (المعونة) فليذهب ، وليس عليه من شيء

لزم الجميع الصمت ، كرر عثمان القول :

نكس الجميع الرؤوس وظلوا على حالهم ، نظر عثمان الى بكرى وقال :

ـ والآن يابن اخى الكلمة لك ونحن لك طائعون

قال بكرى فى هدوء :

ـ لن يأخذ أحدكم الصدقة كما قال جدى رحمه الله ، ولكن يجب أن نفكر فيما سوف نصنعه لأنفسنا ، والأمر لكم جميعا ٠

كان من عادة آل البكرى أن يكونوا اصحاب رأى ، وان الشورى عادة تأتى بعد اقتراح الرأى ، ولكن على ماذا هم يقترحون ان الأمر امامهم غير واضح ، لم يفكر احدهم حتى الآن فيما يجب فعله ، وهذه أول مرة تواجه منشية البكرى هذا الموقف قال عدوى ابن بدوى البكرى :

ـ نسأل أولا عن الطعام الذى لدينا والى أى وقت يكفينا ، ثم نسأل ثانية عن طعام لدوابنا ومواشينا ، ثم نسأل ٠٠

قال عثمان :

ـ ويحك ياعدوى ، ولما كل هذه الاسئلة ونحن أمام موقف أهم واشمل وهو ماذا نفعل وقد دمرت السيول دورنا ومزارعنا ومراعى اغنامنا ٠٠

قال بكرى ٠٠

ـ عماه ، عدوى على حق فى طرح الاسئلة

كان كلام بكرى على هذا النحو فيه ملامة للشيخ العجوز فكف عن الحديث ، وانتبه القوم الى عمدتهم الجديد وشيخ المنشية الذى ما يزال فى ريعان الصبا ، قال أحدهم :

ـ قل لنا انت ياشيخ ماذا نفعل ونحن نفعله ؟

القى الرجال المسئولية كلها على كتف الشيخ الصغير ، اوما الرجال استحسانا لهذا الراى ، احس عدوى بان الأمر يضيق على صديقه وابن عمه فقال :

ـ اردت من طرح الاسئلة ان نعلم جميعا بما لدينا من طعام ونحاول أن نتدبر الأمر سويا ٠٠

لزم الجميع الصمت ، قال بكرى :

ـ حسنا ، يقوم بعضكم بحصر هذا الطعام ، وحساب المدة، ويقوم البعض بحصر ما تلف وما بقى صالحا ، وفى الصباح يخرج الشباب مع صادق ليدلهم على مناطق الجذور التى يمكن اكلها ، ولنا فى الغد لقاء ٠

وقام بكرى ، فقام الجميع ، ولم يشعر بكرى وهو منطلق الى الخلاء الواسع أن قومه قد بدأت قلوبهم تتفرق ، وأن الأيام تحمل له ولهم هما كثيرا ٠

(٤)

اخذت مبروكة وزوجها سليمان يبحثان فى همة لاتعرف الكلل عن ما فقدوه ، لم تحاول مبروكة أن تفتح فمها بكلمة واحدة ، وكذلك زوجها ، احسا معا انهما فقدا كل شىء ، ليس لهما الولد والآن لم يعد لهما المال ايضا ، تعب كل هذه السنين ضاع ، لماذا تجشمت مبروكة كل هذا العناء اذن ، لماذا اضاعت حياتها فى رحلات تهد الحيل من اجل ارضاء رجال المنشية ونساء المنشية ، كانت تتحملهم بصبر لا ينفذ كل رجل له طلب من البندر ، عليها أن تحضره كما يصفه تماما ، فاذا احضرته بعد مشقة ، تأفف وتعجب ثم دفع النقود فى تشكك وغيظ مفضوح ، ومع هذا كانت تبتسم وتضحك فى أحيـــان

كثيرة ، كان فى امكانها أن تفضحه وأن تشهر به ، أن تخبر زوجته عن تلك الأشياء التى يرسلها فى طلبها من البندر ، ولكنهـــا أبدا مافعلت ذلك ، بل كانت تخفى عن الزوجة ما طلبه الزوج وتخفى عن الزوج ما طلبته الزوجة ، هى صندوق أسرار لا مفتاح له ، من أجل ماذا فعلت كل هذا ، أليس من أجل المال ؟ ، والمال أين ذهب ، ابتلعه الماء ، أم ضاع فى تراب الدار التى تهدمت ، أم سرقه سارق ، أين ذهب المال يازوجى ، أين ذهب تعب العمر كله ٠

جلست مبروكة ، منذ مدة وألم غامض يدب فى ركبتها اليمنى يمنعها أحيانا من السير أو الوقوف ، عندما ذهبت الى الخواجه موريس صاحب الاجزخانة فى البندر واشتكت له ضحك منها وقال لها :

ـ الشيخوخة يامبروكة هى التى أصابت ركبتك ٠٠

يومها أحست ان موريس سكب على رأســـها ماء باردا ، أيقظها من حلمها الذى عاشت فيه ، انها لم تعد صـالحة للانجاب اذن ، لم تكن تصدق ذلك ، رغم انقطاع الحيض من مدة الا انهـا قادرة على الحمل ، أو على أقل كانت تغالط نفسها لا تريد أن تعترف انها لم تعد تلك الزوجة التى يمكن أن تنجب فى يوم من الايام ، ولكن ما قاله الخواجه ، موريس رغم انه كان ـ فقط ـ يداعبها ، جاء قاطعا لكل الأحلام والأوهام ، فعلا لم تعد ذات نفع الآن ، يومها ملأت سلالها بكل ماوسعها ذلك من مال وجهد ، وعادت الى المنشية وجلست فى دارها ، ضاربة بعادتها عرض الحائط ، وقالت لأول سيدة سألتها عن طلبها : انها لن تذهب الى أصحاب الحاجات وعلى كل منهم الحضور الى بيتها ، وجاءوا وهم يعتقدون انها بالتأكيد مريضة هذه المرة ، وانها لن تفعل بهم هذا مرة أخرى ، جاءوا اليها فرادى وجماعات يبتسمون ويقدمون لها الفطائر والحلـوى التى صنعنها من أجلها حينما علمن بمرضها ، بل أحضر بعضهم بعض

الفاكهة والازهار البرية ، ومع هذا ضاعفت مبروكة الاثمان ، وغالت فى ذلك ، وعاملتهم بجفوة وحدة فى طبع لم يعهدوه فيها من قبل ، حتى ان زوجها كان يعتذر لهم معللا ذلك بمرضها ، ولما انتهت من كل مامعها من سلال ، جاء اليها زوجها ونظر اليها فى اشفاق ، وقال :

ـ لماذا ؟

ارتمت مبروكة على الأرض وراحت تبكى ، كانت تردد فى هوس كلمات لا معنى لها ، وازداد هياجها فى منتصف الليل فراحت تشق ملابسها وتمزق كل ما تجده من ملابس زوجها ، ولسانها يردد كلمات عن شجرة السنط والبغال والوحدة وقلة الحيلة وزوجها ، يرشها بالماء والملح ، ويضع على راسها عطورا ذات فائدة مؤكدة لهدوء السر ، ومع هذا لم تهدأ الا عندما احست بالاجهاد فنامت ، وفى الصباح كانت قد تحولت الى سيدة اخرى غير تلك التى كانت بالامس فقط ، ولاحظت هى ذلك ، وكذلك لاحظ زوجها وكل من قابلها من نساء ورجال ، ورغم انها حاولت ان تعود الى طبيعتها القديمة الا انها لم تستطع ابدا ، وكل ما احتفظت به من طباع قديمة هــى امانتها وحفاظها على اسرار زبائنها ، اما وجههــا فقد امتــلأ بالتجاعيد ، وتحولت عيناها الى احجار حمراء وصار خدها الأيمن يرتعش كلما تكلمت ، وتعود الناس منها كل ذلك ، ونسوا مبروكة التى كانت اجمل نساء المنشية .

(٥)

كان زوج مبروكة صبيا جميل الطلعة ، مات عنه ابوه وتركه مع ام لاحول لها ولا قوة ، كانت وحيدة ، تكاد لاتعرف لها اخـــا

ولا اختا وكان زوجها يعمل فى دار سالم البكرى فلما مات أرادت ان تواصل هى العمل بدلا منه ، ولكن سالم البكـــرى رفض وقال

ـ سوف يظل أجر زوجك باقيا

وكانت تحصل على أجر زوجها ، كما كانت تحصـــل على نصيبها من عوائد بيع النبات بعد ذلك ومع هذا كانت دوما فى دار سالم البكرى ، وكان طفلها يلعب مع أبناء سالم وارتبط بصداقة خاصة مع عثمان ابن سالم البكرى وذهبا معا الى « الكتاب » وتعلما القراءة وحفظا القرآن كله ·· وكانا رغم اختلاف فى السن قليل ·· متلازمين ، لهما طباع واحدة ، فلما كلفا بالعمل فى الزراعة لـم ينجحا ، بل وفشلا ايضا فى رعى الاغنام لانشغالهما الدائم بقراءة الكتب الموجودة فى دار سالم البكرى ·

وتحدث بعض الشيوخ الى سالم البكرى ، فقرر أن يرسلهما الى البندر ليعلما المزيد من العلوم وهكذا وجدا (عثمان وزميله) فرصة لمزيد من القراءة والمعرفة ·

ونجح عثمان فى تحصيل العلم ، أما سليمان فقد شغف حبا بفتاة كانت تسكن بجوار المعهد الذى التحقا به ، وكانت الفتاة على جانب كبير من الجمال ، فكانت تنظر الى سليمان كلما جاء أو ذهب، وهو يكثر من ذلك ، فاذا دخل المعهد وجلس بين يدى الشيخ يكون عقله مع الفتاة ، واذا جلس بجوار أمه يكون عقلـــه مع الفتاة ، ونجح عثمان ولم ينجح سليمان ، وتهيأ عثمان لكى يكون ابنا وارثا للشيخ سالم وكانت كل الظروف تعده لذلك ، فهو حكيم عاقل شجاع جسور ، تعلم العلم فى المعهد الدينى وكان من المتفوقين ، ولكن فشل صاحبه وقرينه أحزنه ، فلما جلسا فى المساء تصارحا ، واعترف سليمان بحبه للفتاة ، وقررا الذهاب فى الصباح اليها ، ســليمان يدفعه حبه وشغفه ، وعثمان يدفعه فضوله وخوفه على زميله من فتنة دهمته ·

ورآها عثمان ، واحس انه هو الذى وقع فى هواها وان كـل الكلام المكتوب فى كتب ابن عبد ربه والجاحظ والوزير والعالـم وكتاب طوق الحمامة ونثر الدر ، كله يقع عليه وينطق بحاله ، وعاد هائما صورتها لا تفارق خياله ، انفصل الصديقان ، أصبح لكل منها أسراره واصبحا يذهبان الى البندر خلسة ، كل منهما يحـاول أن يدارى عن صديقه ، فلما تقابلا عند دارها خجل عثمان وأحس بذنبه فبكى لصاحبه ووعده ان يكف عن ذلك ، وقد وفى عثمان بوعده ، فعاد الى المنشية وتزوج وأنجب ، ونذر ان يخدم العلم ، وأن يتعهد بنفسه كتاب القرية بعد أن مات معلمه ، وأصبح عثمان كل شاغله كتاب القرية ، لايحيد عن ذلك ، وليس له داره وزوجته ثـم كتبه وعلمه ٠

أما سليمان ، الذى لا يدرى من أمر نفسه شيئا ولا يعـرف عملا آخر ، فقد ظل يذهب الى البندر مداوما وأمه تخشى عليه ، فلما جاء فى المساء ، جلست اليه وصارحته بما تحدثت به مع نفسها من قبل ، واعترف سليمان بحبه لبروكة فتاة البندر الجميلة ٠

فلما كان الصباح ، خرجت أم سليمان مع ابنها وقد عزمت أمرا لن يرد مهما كانت النتائج ، ووصلا الى دار الفتاة ، وطلبت من ابنها أن ينتظر فى الخارج حتى ترى بنفسها الفتاة وتعلم عن حالها ما يمكنها معرفته فتقرر بعد ذلك امرها ٠

ودخلت أم سليمان ، وكانت الدار صغيرة ، والفتاة جميلـة بحق أجمل مما وصفها العاشق ابنها ، فجلست اليها ، حتى جاءت أمها ، وقالت الالسن ما خبأته الصدور وصارحت أم الفتاة بحالها ، هم فقراء مات عنهم العائل ، والحال تزداد سوءا ، ولولا اشتغالها ببعض المشغولات ، وبيعها لماتت هى وابنتها من الجوع ، وبكت ام الفتى وقالت :

ـ لولا اننا نعيش فى المنشية ، حيث الكل فى واحد وعلائق القربى والمحبة تغطى كل الناس لحدث لنا ما حدث لكم ٠

وتحدثت أم الفتى عن فتاها ، وعن منشيتها ، منشية البكرى وعن سالم البكرى وعن الثريد واللحم فى المواسم والاعياد وعن فطائر كل خميس ، وعن البيوت المفتوحة لكل الأهـــل وعن الامن والامان اللذين يحيطان بالمنشية والفتاة تسمع وقد شغفها ذلك حبا ، وكادت تقتحم حديث المرأتين وتقول :

ـ سأتزوج سليمان حالا

ولكن بعض حياء ، وكثير من ذكاء ، فقد احست أن هذا الكلام الذى يقال ، هو بالتاكيد مفتاح الزواج ، لهذا آثرت أن تصمت ، وانصرف ذهنها الى ماسوف ينتظرها هناك فى المنشية ٠

وتزوجت مبروكة من سليمان ، وجاءت لتعيش معه فى المنشية هى وأمها فى دار سليمان التى ورثها عن ابيه ، ولكنها للاسف لم تجد الصورة كلها جميلة ، فقد صدها عداء الناس لها ، ولم تكلمها النساء وانصرف البنات عنها ، وبقيت بين أمهـــا وأم ســـــليمان المنشغلتين دوما بالحديث عن الزوج الذى رحل أما سليمان فقـد عز عليه حال زوجته ، كما عز عليه انصراف رفاقه عنه ، وجفاء الأهل ، ومعايرة الرجال له بزواجه من بندرية سوف تجلب لـــه العار وتحيل حياته الى جحيم ٠

وقد أثر هذا فى نفسه ، فابتعد هو الآخر عن الناس ولولا حاجته الى المال والطعام والشراب لأسرته التى أصبحت كبيرة الآن لانقطع عن دار البكرى ، بل فكر كثيرا فى أن يهجر المنشية ويذهب ليقيم فى البندر ٠

(٦)

عندما أحست مبروكة ان زوجها سليمان يلاقى تجاهلا من قومه ، أخذت امها وعادت الى البندر ، ولكن لم تمض عدة أيام الا وسليمان ينضم اليها وقد فقد أمه أقترحت عليه مبروكة أن يعمل بالبندر ، ولهذا اشتغل حمالا فى اجزخانة موريس أو الخواجه موريس ، وخلال هذا العمل استطاع أن يتعرف على تجارة موريس الحقيقية وهى تجارة النباتات التى تنبت فى جبل قومه ، وانه يشتريها بمبلغ زهيد من المال ، وكان سالم شيخ البكرية قد توفى ، فتشجع سليمان ذات يوم وصعد الى المنشية وقابل صديقه عثمان وقص عليه ما عرفه من خلال عمله مع الخواجة موريس وانه توصل الى ان الخواجة يبيع النباتات التى يشتريها من المنشية لتاجر آخر ولكن بمبالغ كبيرة ، واستطاع ان يعرف اسم التاجر ومكانه ، وقد جاء ليعرض على ابراهيم البكرى التعامل مع التاجر مباشرة ، وبالفعل استقبلهما ابراهيم البكرى بترحاب ، وأنصت الى حديث سليمان ، وكان من نتيجة هذه المقابلة أن موريس رفع سعر شراء النباتات بعد أن علم بخبر العرض الذى قدمه التاجر عن طريق سليمان ، وعاد سليمان وزوجته الى الاقامة فى المنشية بعد أن قدما خدمة جليلة لأهل المنشية ، وعرضوا عليه كافة الاعمال لكنه أصر على العمل مع عثمان البكرى فى الكتاب معلما متفرغا لتعليم الصبيان أما مبروكة فقد كانت قد تعلمت الشراء والبيع عندما عاشت هى وزوجها بجوار اجزخانة موريس لهذا سارعت باحضار أول دفعة من طلبات أهل المنشية وتوالت بعد ذلك الطلبات ، وأصبح عمل مبروكة هو الذهاب الى البندر مرتين أو ثلاثة فى الأسبوع لشراء احتياجات أهل المنشية ٠٠ وضاعت السنوات فى الطريق بين

البندر والمنشية ، سنوات لم تحسبها وقضتها فى حساب المكسب والخسارة ، بكم اشترت وبكم باعت ، اما سنوات عمرها فلم تحسبها جيدا ، ولم تعرف انها وصلت الى نهاية المطاف الا عندما قال لها الخواجة موريس فى سخرية ضاحكة :

ـ الشيخوخة يامبروكة

الشيخوخة ياموريس ، لماذا لا تشيخ ياموريس ، لماذا انت دائما هكذا مبتسم دوما مهما كانت الظروف لم تره يوما باكيا ولا شاكيا ، اما هى فقد بكت كثيرا وعاشت ليالى الوحدة الباردة تحلم بحلم واحد لا يتغير ، طفل يقول لها يا أمى ، ولكن هذا الحلم لم يتحقق ابدا ، ولم يات الطفل ، والآن ياسليمان ، ضاعت نقودى ، وفقدت أموالى ، واختفى الكنز ، من أخذه ، من سرقه ، نظر كل منهما الى الآخر ولم ينطقا بكلمة واحدة ، جلسا بجوار الحوائط المهدمة ، وكل منهما يصرخ من أعماقه :

ـ من يقدر على اعادة ما مضى ؟ !

ولكن الماضى ذهب ، العمر ذهب ، ولاشىء الآن سوى الاطلال المهدمة داخل الصدور وخارجها ٠

الفصل الخامس

(١)

كان الجنود الذين يحرســـون عربات التموين والاغطية فى دهشة دائمة من تصرف هؤلاء الناس ، يرفضون أجولـــة الدقيق وعلب الزيت والجبنة ، وينقبون طوال النهار فى الجبل عن جذور نباتات طعمها مر ليأكلوها ، يقطرون على أنفسهم فى كل شـــىء ، وعربات التموين تقف أمام عيونهم ، حاولوا اغراء بعض الاطفال بعلب الحلوى ولكن الاطفال رفضوا واسرعوا هربا من أمام الجنود ، حاول الضابط الصغير أن يتحدث مع بكرى ، ولكن بكرى كان مصرا على موقفه ، قال له ، اذا أخذنا هذه المعونة فكم يوما تكفى ، سوف تنفد ، هل نعيش فى انتظار ما تجود به المدينة أم نعود الى الجوع ، لقد قررنا ان نجوع من الآن ونتعود على هذا الجوع ، حتى نعيد المراعى والحقول الى ما كانت عليه الحال قبل السيول ٠

اكتفى الضابط الصغير بأن ارسل تقارير كثيرة الى الرؤساء الذين اوفدوا اناسا ذوى اهمية وتوالت الوفود ، وفى كل مرة يعود وفد البندر برد واحد ، ان المنشية سعيدة لأنهم تذكرونا فارسـلوا بعضا من طعامهم ، ولكنها فى نفس الوقت ترفضه وان المنشية تحفر بأسنانها لكى تعيش ٠

وكفت الوفود عن العودة ، ولكن لم يسحبوا عربات التموين ، وضعوا عليها حراسة قليلة من جنود حديثى الخدمة ، سرعان ما أخذ هؤلاء الجند فى الاندماج مع شباب المنشية فيما يفعلون ٠

(٢)

احس بكرى أن الجذور التى يحصلون عليهـا تكـاد لاتفى بالطعام لكل الناس ، كما ان الحبوب بدأت تنفد ، وكذلـك الزيت والسمن والسكر ، وعرض بكرى على شباب القرية أن يكونوا فرقا للذهاب الى البندر والاشتغال فى اعمال تدر عليهم نقودا ٠

وبدأ بكرى بنفسه ومعه ابن عمه وأولاد اخواله وانضم اليهم آخرون ، ولكن مرت الايام وما يحصلون عليه من أجـر لا يفـى بالحاجة ٠٠ وتحدث عثمان الى بكرى :

– المسألة ليست فى طعام اليوم بقدر ما هى فى طعام الغد ٠

وكان لابد من الاشتغال فى اصلاح المراعى وأيضا اصلاح المناطق القابلة للزراعة وحذر بعض كبار السـن من أن النباتات الجبلية التى يبيعونها للخواجة موريس تكاد تكون نادرة بعد ان أزال ماء السيول الكثير منها ، وتكومت القضايا على دماغ بكرى ٠

همست مبروكة الى بكرى ، وقد عودتها الايام على نسيان حزنها :

– قبل أن يرحل عنا والدك رحمه الله كان قد كلفنى أن أذهب الى الست رتيبه الزيات بخصوص زهور الحنضل الجبلى ٠

تشاور بكرى مع عمه أولا ، ثم مع مجموعة كبار السن حـول رسالة والده الى رتيبه الزيات ، كانوا جميعا يجهلون هذا الأمر ، ودهشوا لأنهم لأول مرة يسمعون بهذا الاسم ، ولم يجدوا الا سليمان زوج مبروكة هو الذى يعرف من تكون رتيبة هذه فقال انها صاحبة معصرة للزيوت ، ووكالة لبيع البذور وأيضا تعمل فى بيع وشراء الحشائش الطبية ، وقد ورثت كل هذا عن أبيها الحـــاج محمود الزيات ٠

وأبدى بعض الشيوخ تخوفهم من حضور هذه الســـيدة الى المنشية ، ولكن الاخرين قالوا نجرب فربما كان وراء ذلك خيرا ، وقرر بكرى أن يذهب هو وعمه عثمان وسليمان معلم الكتاب الى السيدة رتيبة لكى يعلموا منها مايمكن أن يعينهم على معرفة غرض الشيخ ابراهيم من احضارها الى المنشية وأبدى بدوى استعداده عندما علم بالخبر ، السفر مع المجموعة ولكنهم رفضوا خوفا منه ومن غدره ٠٠

وفى اليوم التالى لهذا القرار كانوا فى دار الست رتيبة بعد أن سبقتهم مبروكة اليها لكى تخبرها بأمر الزيارة ٠

(٣)

عندما ياتى المال فانه يتدفق دون قواعد ، هكذا صار حـــال الست رتيبه الزيات ، فقد مات عنها ابوها وهى ما تزال فى ســـن البنات الصغيرات ، ولم تجد بجوارهـــا من يعاونهـــا فى أدارة المعصرة ، فشمرت عن ساعديها وتركت لعبة الحجلة ونط الحبـل وشراء غزل البنات من عليوه النزهى وذهبت الى المعصرة ، كان حجر المعصرة مثل تل الزهاوى ، تخاف أن تقترب منـــه ، وكانت الثيران التى تدير هذا الجبل ، تبدو فى توحش مخيف ، وكذلك رأت رتيبه زينهم وقناوى هما المكلفان بتشغيل الثيران ودوران حجرهـا الضخم ، كل شىء بدا لها وكأنه قادم من عالم العماليق ، ووقفت أول مرة وقد تلبسها الخوف ، ولكنها اصرت على عـدم الهروب والبكاء ، وزمت شفتيها حتى لا تبكى ، وعندما تحدث اليها قناوى نظرت الى عينيه ، هالها أنها وجدتهما باردتان لا اثر فيهما للحياة ، ابتسمت عندما تلعثم قناوى ونادى على زينهم لكى يتكلم بدلا عنه ، ولم يكن حظ زينهم بأحسن من حظ قناوى ، احست رتيبة انها تنظر الى عرائس مثل تلك التى كانت تصنعها من الطين ، وكانت تضربها بقسوة لأنها خالفت لها امرا ، او هكذا كانت تتخيل فى عرائســـها الحركة والخطأ والصواب ، فكانت تضحك عندما تفعل العرائس شيئا جميلا وكانت تقطب جبينها عندما تفعل العرائس خطأ ما لهذا نظرت الى قناوى وزينهم على انهما عرائس ، فاشاحت عنهما قبل أن يقولا لها شيئا ، وقابلت زكى افندى ، وهو الكل فى الكل فى المعصرة حاول ان يعاملها على انها ابنته الصغيرة ، ولكنها نظرت الى عينيه وقالت له فى جراة :

ـ انت لص •

ارتبك الرجل ، وكاد طربوشه يسقط من على راسه ، حاول ان يثور ولكنها عاجلته باتهام آخر :

— ومزور

وقبل ان يفيق من كل هذه الاتهامات ، قالت ان اباها كان يعلم كل شيء عن افعاله وانه كان يتغاضى عطفا عليه ولكنها لن تفعل ·· ارتبك زكى افندى حاول ان يتماسك ، ولكنها تمادت فى تحديه ، تحول الى مجرد موظف يخاف على رزقه من صاحب الرزق ، وشرح لها زكى افندى كل شيء حكى لها كل اسرار العمل ، وافاض فى ذلك وهى لا تبدى حماسا وان كان عقلها الصغير يسجل كل شيء ·· بعدها اصبحت تجلس على راسه ، تنظر اليه وهو يكتب ويحسب ويجمع النقود ، عرفت انه يعشق تدخين النرجيلة ، هى لذته الوحيدة فكانت تتركه يضع نرجيلته دوما امامه وعندما جاءهم موريس لعصر ما يريده من بذور لم تاخذ عن ذلك اجرا ، امرت ان تعصر البذور التى يريدها دون مقابل ، ولم تنفع اعتراضات زكى افندى ··

ورغم ان موريس ، او الخواجة موريس ، يعد من اذكياء البندر ومن المتعلمين فى بلاد الفرنجة الا انه لم يكن كذلك امـــام تطفل رتيبة الفتاة التى لم تكمل اعوامها العشرين وقال لها كل شيء عن البذور الجبلية ، ولم تمض عدة ايام الا وكانت رتيبة قد بدات اتصالها بتجار بذور زيت الحنضل وعرفت منهم التركيبـــة التى يصنعونها منه لشفاء الاوجاع والالام ، وبدات رحلة رتيبة نحـــو الثراء ، وبدلا من معصرة واحدة اصبح لها اكثر من واحدة وبدلا من الاتجار فى بذور الكتان وزيت السيرج تاجرت رتيبة فى بذور عباد الشمس والحنضل وزيت زهرة العتر وغير ذلك من زيوت · حتى اشتهر اسمها وراجت بضاعتها ، وخلال هذا كله نست الزواج والأولاد ، وعاشت حياتها لا تبتسم على الرغم من ان استاذها فى العمل الخواجة موريس دائم الابتسام ·

ويوم أن جاءتها مبروكة لتخبرها بزيارة شيخ البكرية ، عاد الى صدرها حلم الزواج بابراهيم البكرى الذى رأته لأول مرة مع أبيه سالم عندما حضرا الى أبيها وأكلا عندهم فى الدار ، يومها أطلت على ابراهيم ، ورغم صغر سنها الا انهـا أحبت هذا الفتى البدوى ، وانحفر اسم ابراهيم البكرى فى صدرها ، وظل محفورا كحلم مستحيل التحقيق ، تابعت هى اخباره وأخبار المنشية من بعيد، ولكنها أبدا ما فكرت فى الذهاب الى أبعد من ذلك ، لهـذا ارتعش قلبها عندما أخبرتها مبروكة أن هذه الزيارة كانت من ترتيب ابراهيم لولا أن لحقه الموت فى مياه السيل لكان الآن على رأس الوفد،ومع ذلك فان القادم بضعة منه ، هو ابنه بكرى الذى يحمل كل قســـماته وملامحه وتزينت رتيبة الزيات واستعدت لاستقبال رجال المنشية ٠

(٤)

جلس بكرى يتأمل السيدة رتيبة ، كانت ذات تكوين متين ، تبدو عليها علامات الصحة والقوة ، تكلم عثمان ، قال :

ــ سمعنا أن أخى ابراهيم كان قد أرسل فى طلبك قبل أن يرحل الى رحمة الله ٠

قالت :

ــ ذهب بسره ٠

قال بكرى فى قليل من الحدة :

ــ خالتى !

انتبهت رتيبة الى صوته ، أيقظت الكلمة التى نطق بها قلبها النائم ، كان يجب أن يقول : أمى ، ومع هذا فقد تغير حالها عندما

سمعت كلمة خالتى تخرج من فم ابن ابراهيم ، قالت وابتسامة مشجعة تسبقها :

ـ لا تتسرع ياولدى ٠

قال عدوى ، وهو يشير الى بكرى :

ـ هذا شيخنا بكرى ابن شيخنا المرحوم ابراهيم وله الكلمة علينا ٠

لم تذهب ابتسامة رتيبة ، بل ازدادت وقالت :

ـ قل لهما ياحاج عثمان الا يتعجلا

نظر اليها عثمان فى رجاء صامت

قالت رتيبة :

ـ من أجل المرحوم ابراهيم أنا افعل لكم كل ما تطلبون

قص عليها عثمان ما حدث للمنشية ، وحكى لها معرفتهم بأمر استدعاء ابراهيم لها ، وسألها فى نهاية حديثه ، أن تجيب على السؤال الذى من أجله جاءوها هل كانت زيارتها للمنشية ، ولو كانت تمت فى زمن ابراهيم ، لها علاقة بشىء فى المنشية أو كما خمنوا لها علاقة بالحشائش والنباتات التى يبيعونها لموريس ؟ ٠٠

قالت رتيبة :

ـ اكذب لو قلت لكم انى أعرف الذى كان ينوى الشيخ ابراهيم أن يقوله ، ومع هذا ، وبعد ان عرفت حال المنشية ، أنا على استعداد للمعاونة فى زراعة الحنضل وقسمة الأرباح ٠٠

ظل بكرى ساكتا بينما نظر عدوى الى عمه عثمان ، قالت رتيبة وهى تقدم لهم الغداء انها على استعداد هى وثلاثة من تجار البذورفى البندر معاونة المنشية فى اعادة زراعة الجبل سواء بالنباتات الطبية المسماه (الجنديل) أو بالشعير والفول والحنضل وانها تضمن هؤلاء التجار الذين يقدمون كل ما يحتاج اعادة الزراعة من أدوات

وأموال وبذور فى مقابل شراء المحصول على أن يخصم من ثمنه التكاليف ..

وراحت رتيبة تحدثهم عن تلك المزارعة أو المشاركة التى تفيد المنشية وأهل المنشية ولم تكتف رتيبة بالكلام بل أرسلت الى كل من الحاج الزيات تاجر البذور والمعلم السرجانى تاجر الزيوت والعطور وقد حضرا معا وأبديا استعدادهما ، خدمة لرتيبة أولا ثم خدمـــة لأهالى المنشية ، لتقديم ما يلزم هذا الأمر من مال وأدوات دون مقابل الا شراء المحصول وخصم التكاليف ، وراحا يحـددان أصـــناف النباتات التى يريدونها والتى من الممكن أن تدر ربحا عاليا ، يضمن سداد التكاليف الباهظة لردع اضرار السيل .

وهبط الليل ، وقام الرجال فى دار رتيبة وأخذوا يتناقشون فى المشروع طوال الليل ، بينما جلست مبروكة مع رتيبة تتحدثان عن ابراهيم ، الذى راح ضحية السيل كما راحت رتيبه ضحية حب من جانب واحد لابراهيم الذى لم يشعر بذلك الحب وحرمها الناس من الافصاح عنه .

وعاد الرجال الى المنشية .. وقد انقسم الوفد الى فريقين ، كل فريق متيقن انه على حق فيما ذهب اليه ، ولم يستطع بكرى أن يصل الى قرار ، كانت أفكار جده سالم تمنعه من قبول هذا العرض كما رفض معونات رجال الشرطة ، ولكن الواقع الذى أصبح فيه أهله يحتم عليه قبوله ، وطالما ان اصلاح الجبل يحتاج الى أموال حتى يأتى بالخير فانه من الواجب قبول ماتعرضه رتيبة ومن معها ، ولكن الخوف من أن يكون هذا العرض هو ما حذر منه جده سالم ماذا يفعل ؟

اذا كان الوفد وهو قلة من الرجال قد انقســـموا على هذا النحو ، فان من المتوقع انقسام الرجال فى مجلس المشورة ، وأن عليه وحده يقع حمل اصدار القرار الأخير .

الفصل السادس

(١)

علم بدوى أن الرجال فى جلسة المساء انقسموا الى فريقين ، وان معظم كبار السن رفضوا العرض الذى قدمته الســـيدة التى تسمى رتيبة ، وان قلة من الشيوخ وكثير من الشبان وافقوا ، ولكن المجموعة التى رفضت والتى على رأسها عثمان وعدوى تبدو هــى الأقوى ، وان كان القرار الذى أصدره بكرى بحكم منصبه جعــل الاتفاق مع رتيبة واجب النفاذ ، لهذا فكر فى أن يفعل شيئا وان يستفيد من هذا الخلاف الذى وقع لأول مرة ، ربما حقق لنفســـه ولولده شيئا ما ، اقله زواج ابنه من غزالة ، وخاصة وان ولده يقف فى جانب عثمان وغزالة ، لهذا تسلل ليلا وهبط الى البندر ، وهناك قابل ناعسة ٠ ٠

انطوى عثمان حزينا على نفسه وعلى أهله وما وصلوا اليه من حال لم يستطع أن يبتلع حبات الفول التى قدمتها له ابنته غزالة نظر اليها وقد بدأت تذبل ، وراعه اصفرار ظهر على وجهها وضمور فى جسدها كله • أمسك بيدها واجلسها الى جانبه قالت :

ـ ذهب الجند بعربات المعونة ، قال الضابط للبنـات ، اذا أرادوا الدقيق عليهن الهبوط الى البندر واللجوء الى دار العسكر •

لم يجب عثمان ، اكتفى بالنظر اليها ، قالـــت فى محـــاولة للتسرية عنه :

ـ كل شدة الى زوال

ابتسم عثمان وهو يسمع ابنته تشد من ازره وهو الذى كان يود أن يفعل ذلك ، وضع حفنة الفول فى فمه وبدأ يطحنها باضراسه فى قسوة وكأنها هى التى تقف بين أهله وبين الخير ••

قالت غزالة :

ـ بكرى اضطر الى قبول الشركة

استيقظ عقل عثمان وبدأ يفكر فى كلمة (الشركة) التى قالتها غزالة عفوا أدرك أن أرض المنشية لـــم تعد ملكا لاهلها وحدهـــم بل صار لهم فيها شركاء تحولت منشية البكرى الى شركة ، مجـــرد شركة تبقى طالما هناك ربح وتزول ان زالت الأرباح انفعل باكيا ، وتذكر أجداده الذين كانوا أحرارا فى ذهابهم وايابهم ومراعيهم ، كانوا يملكون كل الأرض ، ولا تملكهم الأرض ، والآن صارت منشية البكرى مجرد شركة •

ادركت غزالة فداحة ما الم بابيها وباهلها ، فراحت تحضر له الطشت والابريق ورجته أن يتوضا ، لن يذهب عنك الحـــزن الا الصلاة والصبر ..

(٣)

اريد أن يناقشنى احد ، لماذا لا تتكلم ياسليمان وانت اقـرب الأصدقاء الى عمى عثمان ؟ وانت ياعبد الصادق انت طبيب المنشية وحكيمها ، انت وافقتنى على قبول المشاركة مع تجار البندر ، لماذا لا تتكلم ، قولوا اننى على خطأ أو قولوا اننى على صواب ، تحدثوا معى ياقوم ، لما هذا الصمت ، عدوى أعلن رفضه للمشاركة دون أن يقول لماذا اين عمى بدوى ، ابحثوا عنه ، ربما يكون لديه ما يقوله لنا عن هؤلاء التجار ، لقد عاش مع أهل البندر ويعلم عنهم ما لـم نعلمه ، وانت يا سليمان لقد عشت مع الخواجة موريس وتزوجت من بندرية ، بل انت وزوجتك تعلمان كل شىء عن رتيبة هذه ، قولا من تكون ؟ لماذا رفض عمى عثمان ، وانتم ياقوم ، مالى اراكـــم تلوذون بالصمت وتهربون من الاجابة ، انا بكرى الذى اعلن القرار وعلى استعداد ان اتراجع عنه لو انكم نطقتم بالبديـــل ، ها انتم جوعى ، وانا كذلك ، وامى واخوتى وابناء عمومتى واخوالى كذلك، فهل نسكت على الجوع ام نذهب ونتسول الطعام ، أم نقبل الصدقات ماذا نفعل ؟ ورددت الجبال حيرة بكرى .

كانت هذه « كلمات بكرى » عندمـا جلس فى بحرايـــة دار البكرى وحوله بقية من أهل المنشية لم ينفضوا عنه بعـد انتهـــاء

الإجتماع ، ظلوا يستمعون اليه لايريد أحدهم أن يقاطعه حتى انتهى من كلامه ، قال سليمان :

ـ ياشيخنا ، مما تخاف ، سوف ترى بنفسك ما سوف يحدث فاذا لم تطمئن اليه ، قل لهم انصرفوا بسلام ٠

تشجع عبد الصادق وقال :

ـ طول عمرى وأنا اقول ان العتر والحنضل واللبخ وعبـــاد الشمس تدر ذهبا بعد عصرها واستخراج الدواء منها ، ولكن لم يفهم احد ، أن لدينا كنوزا لا نحسن البحث عنها ٠

قال الدغيدى ، وهو اكثر الرجال حماسا للمشروع الجديد :

ـ ما قررته ياشيخنا صواب ، سوف تجنى المنشية ثماره بعد أشهر ، وسوف يرى الناس الذهب والفضة بعد ان كانوا لا يـــرون الا للشعير والتمر والفول الناشف ، قال حمدان :

ـ ليس امامنا من حل الا ما قررته يابكرى ، فلا تتراجع

وقام بكرى وقد استراح قليلا بعد سماعه كلام الناس وذهب فى اتجاه قمة الجبل كان يود ان يختلى بنفسه لكى يفكر فى غزالة لقد داهمه السيل وداهمته الاحداث فلم يجد وقتا للتفكير فى غزالة والآن يمكنه ان يفكر بهدوء وهو فوق قمة الجبل ٠

(٤)

أخذته كريستيل من يده ومضيا نحو الجامعة كتبت بخـــط يدها طلب دخول الامتحان ثم دخلا معا الى أستاذه ، أبتسم عندما شاهد كريستيل ملتصقة بسيد البكرى ، قال له الأستاذ :

ـ بكرى انت محظوظ •

ولما ساله سيد عن قصده ، قال الأستاذ :

ـ هذه الفتاة سوف تصلح من حالك •

اشر الاستاذ على طلب سيد وحدد له موعد الامتحان ثـــم اعطاه خطابا الى المشرف لكى يسجل له هذا الموعد ••

كان الاستاذ سعيدا على غير العادة ، او هكذا لاحظ سيد ، نظر الى كريستيل وقد برق فى ذهنه خاطر ، قال فى نفسه من المحتمل وجود علاقة بين استاذه وكريستيل ولكن هذا الهاجس الذى ضايقه تراجع بسرعة ، فهى تدرس فى كلية اخرى ثم أن هذا الأســتاذ بالذات ليس من المشهورين بالتهور مع البنات وقد عايشه سيد طوال السنوات الماضية التى امتدت الى اثنى عشر عاما ، وسيد يعلم ان كريستيل لم تقابل الأستاذ الا اليوم ، ترك هذا الخاطر الذى ذكره باخلاق اهله ، ابتسم وهى تشير له بالتقــدم ومضـــى معها الى المستشفى ، قابلا المشرف وانهيا اجراءات تسجيل الامتحان ، كان على سيد ان يهجر العمل فى السينما ويجلس ليذاكر ، ولكن كيف يهجر الشراب والتسكع مع الشلة طوال الليل كيف يهجر شوارع وحوارى هايلدبرج والجرى فى دائرة حول اشجار ميدان الهيتس •

حمل سيد كتبه بعد ان انتهى من جولته فى المستشفى وقـــرر الذهاب توا الى المنزل كانت كريستيل قد تواعدت معه على الحضور بعد ان تنهى دراستها اليوم فى كلية طب الاسنان ، ولكن سيد لم ينتظرها ، مضى بحماس نحو داره ، وصعد الطريق وهو يفكر فى وضع نظام للاستذكار ، يجب أن ينجح لقد ضاق بوضع الطالب الذى عاشه كل تلك السنوات ، اخذ يغنى بالالمانية أغنية (من أضاع قلبه فى هايلدبرج) لم ينجو احد ياسيد يابكرى من فقد قلبـــه فى

هايلدبرج ، الجميع جاءوا وقلوبهم فى صدورهم ولكنهم بعد قليل فقدوها هنا ، تلك الشوارع شهدت مصارعة القلوب ، وتلك الأشجار ابتسمت لعشاق بكوا من شدة العشق ، وهذه الهضبة التى اقـام عليها (بوتنر) بيته ، كم شهدت آلاف القصص لشباب وشابات ، وانت ياسيد يابكرى ألم تفقد قلبك ، غريبة ان سيد البكرى لـم يفقد قلبه ، ربما فقده ولم يشعر ، وربما ولد بدون قلب ، ضـحك سيد وتذكر كريستيل ، الفتاة الريفية التى تجيد صناعة الشاى ، تذكر سيد البكرى هذا ، ان الشاى الذى شربه من يدها كان ألذ وأطعم شاى ، لم يذقه من مدة طويلة ، بل ذكره بشاى الاسكندرية ، انها تصنع شايا كما كان يصنعونه فى الاسكندرية ، تذكر بهية السمراء الجميلة التى كانت تخطب وده ، وكانت تاتى الى مسكنه وتهديه طعاما اعدته امها ، كانت تقول له أن امها صنعت هذا الطبق من اجله ، وان الليلة ليلة موسم ويجب أن يشاركهم طعام هذه الليلة ، وكانت بهية تعد له الشاى وهو ياكل ثم تصبه له فى اكواب صغيرة بعد أن يفرغ من تناول طعامه وكانت تكتفى بابتسامته وتذهب وقد امتزج لونها الاسمر بحمرة الخجل ، اين ذهبت بهية ياسيد يابكرى ، ضاعت بل تركتها ياسيد ، شبعت من الطعام ومن ليالى الموسـم ومن شاى بعد العشاء ، التصقت باستاذك الالمانى وعشقت بـلاد الغربة ، لم تودعها بكلمة ، لم تقل لها الى اين انت ذاهب ، كانت تحضر لك الطعام كما هى عادتها اكلت انت كما هى عادتك ثم شربت الشاى فى تمهل كوبا وراء كوب ، ثم ابتسمت ، طارت هى الى دارها وهى تحمل ابتسامتك ووعاء الطعام الفارغ بينما كنت انت فى طريقك الى الميناء ، وركبت السفينة وطعام بهية فى جوفك ، لم تقل لها كلمة وداع ، والآن ياسيد يابكرى تتذكر بهية ، بعد اثنى عشر عاما فى الغربة تتذكر بهية ، افتح الباب يارجل ، كم قابلت من بنات فى

جمال بهية ، ولكنهن أبدا لم يكن مثلك يابهية ، ولم تكن بهية مثل تلك الفتيات العابثات يابكرى ، انها كانت تبحث عن القمر فى قلبك وهى لاتعلم انك بدون قلب ٠

ـ من ؟

صاح سيد عندما وجد الفتاة السمينة نائمة فى أول الصالة ، قامت الفتاة مذعورة أو هكذا أرادت أن تكون واندفعت الى صدره ، دفعها سيد بعيدا ولكن أبدا لم يستطع ابعادها أكثر من ذلك ، وبدلا من المذاكرة ، عاد الى المدينة والفتاة السمينة تلهث خلفه ، وقضى الليلة عند مارى يشربان ويرقصان ونسى المذاكرة والامتحان ٠

أما كريستيل عندما انتظرته كما تواعدا ولم يحضر ، انطلقت الى بيتها وهناك ظلت تبكى لمدة طويلة ولما حضرت امها ورأت ما هى عليه ، قالت :

ـ لن يعيده البكاء ٠

رفعت الفتاة رأسها وسألت :

ـ فماذا أفعل ياأمى ؟

همست الأم وهى تتحرك لاعداد الطعام :

ـ كما يفعلون فى بلادك يابنتى ٠

وماذا يفعلون فى بلادى ياأماه ؟ ، توقفت كريستيل عن البكاء وأعادت السؤال على نفسها ، انها من فلاحى قرية الجونز ، التى تقع عند تلال فريدريك الأكبر ، فى المانيا التى تسمى الآن المانيا الشرقية ، ماذا يفعل الفلاحون فى قرية الجونز ، وبالتحديد ماذا تفعل الفتيات اللائى فى مثل سنها ، فى مثل حالتها وراحت كريستيل تفكر ٠٠

(٥)

جاءت رتيبة ومعها التاجران ، وجلس الجميـع فى مندرة دوار البكرى ، قال بكرى ·

ـ انه موافق على مشروع الشركة

وقال أيضا :

يجب وضع قواعد ثابتة ومعروفة للجميع لأن هناك من بين الناس من يعترض على هذه الشركة ·

قالت رتيبة :

ـ القصد من هذه الشركة هو اعادة زراعة الأرض ، وان كل ما يهمنا أن نضمن النقود التى سوف ندفعها وعندمـــا قالت هذا ، شعر بكرى أن الأمر يحتاج الى مجموعة من الرجال الذين يفهمون فى مثل هذه الاتفاقيات ، لهذا طلب تأجيل الحديث حتى يقدم لهـم واجب الضيافة ، وأشار الى أحد الرجال فقام الى الخارج من أجل احضار الرجال وأيضا ارسال الطعام المعد لهذه المناسبة ·

(٦)

جلس موريس مستمعا الى بـدوى وكانت تجلس بجوارهما ناعسة ، وأحس كل من موريس وناعسة انهما أمام عمـــل جديد لم يعهداه من قبل ، قالت له ناعسة :

ـ يابدوى موريس رجل يعرف حق الرجال ٠

كانت تنظر الى موريس ٠٠ وكان الاحساس الذى جاءهـــا عندما سمعت كلام بدوى مايزال طازجا لاتدرى كيف جاءهـــا ذلك الاحساس ولا كيف واتتها الفكرة ، وكل ما تعرفه انها مقبلة على دنيا جديدة تلعب فيها دور الجازية على أن يلعب بدوى دور الزناتى خليفة ، وزادها هذا الاحساس جمالا على جمالها ، بل يمكن القول أن جمالها لم يظهر بهذا الحسن الا الآن لهذا كانت تجلس والرجلان ينظران اليها يريانه لأول مرة ، بدوى كان قلبه يخفق بشدة وهو يسترسل فى الحديث عن أرض المنشية ومشــروع رتيبة صـــاحبة المعصرة ، أما موريس فقد عاد اليه ماء الحياة ، وعاد اليه شبابه متدفقا بالعشق والصبابة ،كان مثل الفتى الولهان امـــام نظرات الجميلة ناعسة ، قال وكأنه مجرد خادم لناعسة :

ـ ماذا نفعل ياست الكل ؟

شملته ناعسة بنظرة حانية ، وابتسمت نصف ابتسامة ثـــم قالت :

ـ ادخل شريكا انت الآخر

صرخ بدوى ، وقد احس أن الأمر سوف يفلت من يده ، وقال :

ـ كيف ؟

اعتدلت ناعسة ، وقد اسعدها انها اصبحت صاحبة الحـل والربط ، وهى لم تزد عن كونها صاحبة المقهى الصغير الواقع على قارعة طريق البندر ، الآن تملك امر هذين الرجلين ، احدهما كان يتعفف أن ينظر اليها ، ومجرد ذكر اسمها يضايقه ، وهو موريس الثرى الذى تجرى الخيول فى حدائقه ، والآخر من كانت تتمنى

أن ينظر اليها ويجالسها بدوى البكرى عين أعيان المنشية ، والآن موريس وبدوى البكرى يجلسان فى انتظار نصائحها الغالية ، وكان عليها قبل أن تواصل الحديث تعرف نصيبها من العملية

لهذا قالت فى دلال :

ـ ما الذى أناله أنا لو قلت لكما كيف ؟

ود موريس فى لهفة ٠

ـ لك ما شئت

نظرت الى بدوى ، ثم وضعت يدها على كتفه ، وقالت :

ـ لنا النصف ياخواجة ٠

ابتلع موريس لعابه بصعوبة ، وقال :

ـ النصف من ماذا ؟

ردت ناعسة فى غموض ؟

ـ من أرض المنشية

وأومأ بدوى موافقا وتظاهر بأنه يفهم ما ترمى اليه ناعسة ، بينما ظل موريس يتأمل ذلك الوجه الجميل الذى أبدع صنعه الخالق جل شأنه ، الجبهة الواسعة البيضاء ثم انحـداره تلمس الجفنين لمسا رقيقا ثم تبدأ أرنبة الأنف فى استقامة لتنحدر ثانية فى عنف ملتقية ببحيرة تزين الشفة العليا ، وشفتان كأنهما أطباق من عسل مصفى، سمع صوتها ، وشفتاها تتحركان ، وقال :

ـ موافـــق

ارتعشت خدودها وازداد احمرارها ، وشعر موريس أنـــه يغوص فى بركة من فضه وذهب لا يسمع ما تقوله ناعســـة ، التى تحكى بكل حماس كيف يدخل الخواجة باسم ناعســـة وبـــدوى كمشتر لأرض الجبل باسعار مغرية وكيف يقـدم القروض الفردية لكل رجل من المنشية على حدة وبدوى يستمع فى اعجاب ، تلـك الفكرة لم تواته عندما جاء الخواجة ، كان كل همه أن يفسد الشركة التى سوف تتم بين رجال المنشية ورتيبة ، لم يكن يهمه المال الذى سوف يناله من موريس عندما يخبره أن تجار البذور سوف يأخذون منه البقرة التى تحلب له عسلا ، لكان كل همه ان يفسد ما يدبره بكرى ابن أخيه ، والآن يسمع من ناعسة تلك القروية التى لاتجيد الا النظر بعينيها الجميلتين كلاما يشبه السحر ولو تـــم تنفيذ كل ما تقوله هذه الحسناء فسوف يصبح بدوى خلال عدة أعوام منأغنياء المنطقة كلها بل انه فكر من الآن فى طرق خداع الخواجة موريس حتى يأخذ منه كل شىء وليس فقط النصف ، وخاصة وان موريس قــد سقط فى بئر ناعسة ، ماذا لو باعها بدوى للخواجة وأخذ بدلا منها المال ؟ !

وبدأت رحلة ناعسة وخلفها موريس فى يده المال والأوراق ، وأمامها بدوى يرشدها الى الضعفاء من قومه ·

(٧)

راجع سليمان ومعه اربعة من الرجال كل العقود المكتوبة من التجار وبكرى نيابة عن أهالى المنشية ، وقال سليمان أمام الجميع انه راجع كل الكلام المكتوب ، وأن هذا المكتوب لا غبار عليه ، فهو

يضمن حقوق أهل المنشية فى أرضهم وزراعتهم ومواشيهم كمـــا يضمن للتجار أموالهم التى سوف ينفقونها بمعرفـة بكـــرى ومن سيحدده بعد ذلك وأن الأوراق تحدد كل شيء بالتفصيل ، وأن التجار لا شأن لهم بالأرض وأنهم سوف يقومون بعد التوقيع على الأوراق بارسال الآلات والماكينات والمعدات التى ستعمل فى اصلاح أرض الجبل بسرعة ، ثم يرسلون البذور وما يلزمها من مواد حديثـة تجعلها تثبت بسرعة ، وعلى أهل المنشية تقديمكل معونة ممكنة حتى يتم الاصلاح وزراعة الأرض ونضج المحصول ، وبعدها يتم الحصاد، الذى يتم بيعه بالاسعار المعروفة تكون قسمة المال ، وقال رجل بعد أن استمع الى كل هذا من سليمان :

ـ فاذا كان المحصول رديئا

قال عطيه السرجانى ، نيابة عن التجار :

ـ كما أن الربح لنا ولكم فالخسارة علينا وعليكم

أحس الناس بالراحة ، وقالوا لبكرى :

ـ أعقلها وتوكل ٠

ووقع بكرى نيابة عن الأهالى ، وتحمس أحد الشبان فاطلق عدة أعيرة نارية ، فأحست النساء أن خيرا جاء الى المنشية وسوف يعمها فانطلقت النساء تزغردن سعيدات ، ورقص بعض الأطفال فى الشوارع ، وارتعشت أيدى النساء المسنات وقالت احداهن :

ـ اللهم اجعله خيرا

هذا ما حدث فى دار بكرى البكرى ، أما حدث في دار عثمان البكرى فقد كان أمرا عجيبا ٠

جلس عثمان ينظر الى اخيه بدوى الذى اخذ يروى له حكاية عجيبة عن رغبته فى الاحتكام الى الناس لكى يعود الى المشيخة وخاصة ان بعض الناس قالوا كيف يكون بكرى وهو ما يزال طفلا هو شيخ المنشية ولا يكون عمه الأكبر عثمان او بدوى ، وقال بدوى انه مصمم هذه المرة لكى يأخذ حقه ، وانه سيترك للناس فى المنشية الحق فى الاختيار فاذا اختاروا عثمان كان له الأمر واذا اختاروه هو اى بدوى سوف يكون باذن الله وامره ابر ابناء المنشية باهليها ، جاءت غزالة بالشاى ووضعته امام عمها ثم انصرفت ، كانت تسمع من مكانها حديث العم ، الذى هاجم تصرفات بكرى ، وقال ان الشركة التى وقعها مع الاغراب سوف تكون وبالا على المنشية ، وأن الناس متضررون لغاية ، ثم قال فى نهاية حديثه أن بعض الاهالى يرغبون فى بيع الأرض التى تخصهم الى آخرين ، ولما ساله عثمان عن هؤلاء الذين سوف يشترون الأرض أو عن الذين سيبيعون ، لم يجب بدوى واكتفى بانه ربما يشترى لنفسه بعض الأرض اعانة للاهالى الذين اهلكهم المرض والفقر ، وانه دبر لذلك بعض المال ، وساله عثمان عن المال من اين اتى به قال بدوى انه كان يدخره لابنه الوحيد ، ثم قام بدوى منصرفا ، ولم يقل له عثمان شيئا ، فقط نظر اليه فى دهشة وتركه ينصرف دون ان يذهب معه الى الباب الخارجى كما تجرى العادة مع الضيوف ، ولاحظ بدوى ذلك ولكنه لم يعقب عليها واكتفى بانه اشعل راس اخيه بالفكر ، وكان هذا ما أراده ، وذهب بدوى لتوه الى عبد الصادق حكيم القرية الذى يداويهـا من الأمراض ، وكان عبد الصادق فى تلك الايام مثل الملح تجده فى كل مكان ومطلوب فى كل دار،فالجوع والسيل اوجدا أمراضا كثيرة فى المنشية واشتكت

النساء من سقوط شعر الرأس ، ومن جفاف حلوق الاطفال كما بدأ الرجال يشتكون من صداع وامساك مؤلم واقصى الأمراض واكثرها شيوعا مرض الصفرة الذى انتشر هذه الأيام ويقال عنه انه مرض خبيث والعياذ بالله لأنه يصيب الرجل فى اسنانه وفى قوته كمـــا يصيب النساء بالآم حادة فى البطن والدماغ ، ولاحظ عبد الصادق انه يبدأ بانتفاخ فى البطن وينتهى بالموت كما حدث فى حالة جنيدى الدهل الذى مكث اياما يتالم ثم مات ٠٠ وعبد الصـــادق يبذل كل جهده للحد من هذا المرض بأدويته التى اكتسب صناعتها بتجاربه وورث بعضها عن اجداده ولكن يبدو أن هذا المرض جديد عليه لهذا لم يستطع معالجته بالادوية التى معه ، حتى جاءه بدوى البكرى ، وظن فى أول الأمر أن أحدا من عنده يشكو من اعراض الصفرة ، ولكن بدوى قال له :

ـ اذا علم اطباء البندر بما تفعله فسوف تشنق

انتفض عبد الصادق ، وقابل تهديد بدوى بما يليق به وعايره بالمشى مع المطاريد ومع ناعسة ، أدرك بدوى انه أخطأ فى ايجاد الوسيلة الى قلب عبد الصادق وعقله ، فتحمل اهانات عبد الصادق حتى أحس انه أخذ بحقه ، وقال بدوى :

ـ اتفقت مع عثمان على أن نحتكم الى الناس من أجل المبايعة على المشيخة ٠

قال عبد الصادق الذى كان يميل الى بكرى كثيرا :

ـ وبكـرى ؟

قال بدوى فى تظاهر بأن الأمر قد انتهى :

ـ هذا كلام أخى عثمان ، فهو الذى كان أحق بالمشيخة من أخى ابراهيم رحمه الله وقال لى اليوم انه يطالب بحقه ، فقلت لـه أنا أحق منك فقال اخى عثمان نترك هذا الأمر للناس ٠

قال عبد الصادق فى تحد :

ــ وماذا تقصد ؟

قال بدوى فى حـــدة :

ــ اقصد أن اخى عثمان يريد أن يكون شيخ المنشية ٠

ابتسم عبد الصادق فى تهكم وقال :

ــ ثــم ؟

قال بدوى :

ــ سيلغى المشروع الجديد وستذهب احلامك فى الهواء ، ولكن اذا ما اختارنى الناس شيخا لهم ٠٠ ربما فكرت فى ابقـــاء المشروع !

سكت عبد الصادق برهة ثم قال :

ــ هل هذا رأى الحاج عثمان نفسه ؟

قال بدوى فى ثقه :

ــ اذهب واسأله بنفسك فانا أعلم انك صديقه الأثير ٠

قال عبد الصادق فى غيظ وثورة :

ــ يابدوى ٠٠ الا يكفيك ما صنعت بنا

انفجر بدوى وكأنه امام محاكمة ويريد أن يدافع عن نفســه وانطلق يعدد خدماته لأهل المنشية ، مقللا من شأن اخطائه معددا ما فعله وما سوف يفعله ، وانهى مرافعته بانه اتفق من الخواجة موريس صاحب الاجزخانة على ان يعطى لعبد الصـــادق الدواء

الشافى لمرض الصفرة ، واكد على تلك العبارة حتى أن عبد الصادق ساله فى لهفة ..

ـ حقــا .. ؟

احس بدوى انه امتلك امر ذلك الداهية ، فتأمله برهة والآخر ينتظر التأكيد ، ثم قال :

ـ ولكن على شرط

نظر عبد الصادق الى وجه بدوى ، انه يعرف ان هذا البدوى لن يساعده الا اذا كان وراء ذلك منفعة ما ، ولكن الكارثة تكمن فى ان بدوى لا يفكر الا فيما هو شر ، سال عبد الصادق فى توجس :

ـ ماذا تنوى عمله ؟

قال بدوى دون مواربه :

ـ اشترى أرض من يريد البيع

قال عبد الصادق فى استفسار :

ـ ومن الذى يريد البيع ؟

قال بدوى وهو يبتسم :

ـ أنت أدرى بهم ، سوف ادفع الثمن الذى يحدده صــاحب الأرض ، ولك انت الآخر سوف ادفع (الحلوان) ..

قال عبد الصادق ، وهو تائه فى الغاز هذا البدوى :

ـ ولكن من يشترى ارضا خرابا اكلها السيل وجرفتها المياه

قال بدوى :

ـ ولماذا يشارك تجار البذور عليها ، اليس من أجل اصلاحها

قال عبد الصادق :

ـ لديهم الاموال والآلات

قال بدوى فى ثقة :

ـ واناكذلك ، وبدلا من رهن الأرض لدى هؤلاء التجار ، ساشتريها انا ٠

وسكت عبد الصادق ، اما بدوى فقد أخبره بما يجب ان يعلمه من مشروعه ، فهو سيشترى الأرض بما لديه من أموال اخذها من سيدة جليلة فى البندر احست بمأساة أهل المنشية فأرادت مساعدتهم ، وان الخواجه موريس هو الذى عرفه بالسيدة وان موريس سوف يعطيه دواء الصفراء اذا وافق على معاونة السيدة الجليلة على شراء الأرض بقصد مساعدة الاهالى الفقراء وان رفض عبد الصادق فان الناس سوف يموتون بمرض الصفراء ، ويحمل عبد الصادق ذنبهم فى رقبته ، ولم يدعه بدوى الا بعد ان أحس ان عبد الصادق بدأ يقتنع ، بعد أن وعده باحضار عينة من الدواء ٠

وذهب بدوى الى ناعسة لكى يخبرها بما حدث ، ثم اتفقا على الذهاب الى موريس لكى يخبراه بما سوف يفعلانه بعد ذلك ولكى يأخذ منه بعض المال الذى يكفى لعقد أول صفقة ٠

اما عبد الصادق فاتجه راسا الى دار عثمان ، وبدلا من أن يتحدث معه مباشرة عن حكاية بيع الأرض ، اخذ يلومه لأنه سيفرق كلمة الاهل بتحريض وتعريض حق بكرى ابن اخيه للطعن ، وراح عبد الصادق فى رعونه انسته مقام عثمان البكرى يكيل السباب لعثمان واتهامه بتفريق الجماعة وقطع شمل المنشية طمعا فى الدنيا وفى سبيل مآرب شخصية ، ولم يستطع عثمان ازاء هذا كله الا أن

يأمر بطرد هذا المأفون ، نقصد عبد الصادق ـ الى الشارع ، حمله الرجال والقوه فى الشارع ، فراح يكمل امام الناس الذين تجمعوا حكاية منافسة الحاج عثمان لابن اخيه بكرى فى المشيخة لأنـــه لايوافق على راى الجماعة ، وارغم عبد الصادق وازيد ، وفهم كل الناس من كلامه أن عثمان ، يسعى الى زعزعة الثقة فى شيخهم الشاب بكرى وفى مشروعهم الجديد وسادت الظلمة ديار المنشية ، ونام الناس ليلتهم وقد استشعروا الاخطار التى سوف تهدد وجودهم وكأنهم كانوا فى حاجة الى المزيد من الماسى حتى تاتى لهم مأساة عراك كبارهم واختلافهم ، ألم يكن من الاوفق أن يظل عثمان فى حاله التى ارتضاها لنفسه منذ أن اعتزل المشيخة بنفسه وتركها لاخيه ، ألم يكن من الأحسن أن يشترك معهم بالرأى فى حل مشاكلهم التى يبدو وكأن لا حل لها ، لقد تصوروا أن دخول شركاء لهم بالمـــال لاصلاح الأرض سوف يحل لهم مشكلة الطعام والكساء ولكن ها هو عثمان يعارض ذلك ، ليس بالرأى فقط ، انما يريد أن يعتلى امرهم فاذا كان له الأمر عليهم رفض المشروع كله ..

وجلس سليمان على عتبة دار عثمان يفكر هل صحيح ما يقوله هذا الرجل عبد الصادق المسمى بالحكيم أم انه يدعـــى ذلك على عثمان ، فاذا كان عثمان قال هذا فعلا فهل يجوز أن يخلع بكرى من منصب المشيخة بعد أن بايعه أهالى المنشية عن بكرة أبيهم واطاعوا كلمته ، وما العمل اذا نجح عثمان ، ولاشك انه سيكون الأقـــوى فى نزع السلطة من ابن أخيه ، هل يبقى مشروع الشركة أم يلغى ، فاذا ألغى هل يتمسك الشركاء بالحقوق المكتوبة فى العقد ، ان مشكلة سليمان هى انه احد كتبه عقود المشاركة مع التجار ، وانـــه كان متحمسا لحقوق المنشية،كان يود أن يحصل لى أكبر قدر من الحقوق فى العقد ، انه يعلم فى قرارة نفسه أن الشركاء من تجار الحبوب

والبذور لن يدفعوا كل تلك الأموال رحمة بأهالى المنشية او حسنة انما هم يدفعونها لكى يحصلوا عليها بعد ذلك مضاعفة ، لهذا كان يؤكد على الحقوق ، فليحصل التجار على أموالهم ومضاعفة أيضا ولكن يجب ان تعود الأرض لأهالى المنشية ارضا خصبة تنبت الحب والزرع ويعود الأمن والأمان لاهله ولكن ان يعوق صديقه الأعـز عثمان البكرى هذه المسيرة فهذا لم يكن فى حسبانه أبدا ، وقرر أن يدخل الى عثمان يناقشه فى الأمر كله ٠٠

ودفع سليمان الباب وقابل رفيق عمره ٠

الفصل السابع

(١)

فى الصباح كانت المنشية تشهد مالم تره من قبل ، فقد بدأ عدد كبير من السيارات الكبيرة يشق طريقه صاعدا الى الجبل ، كانت السيارات تحمل معدات ذات الوان صفراء وحمراء تبرق وتلمع ألوانها تحت ضوء الشمس ، والطريق الى الجبل لم يكن سوى مدق تستخدمه الجمال والخيول ، لهذا لم يكن ممهدا لسير مثل تلك الشاحنات الكبيرة التى راحت تهتز بقوة مصدرة صوتا عاليا مزمجرا وكأنها تلعن هذا الجبل وطريقه ، خرج الاهالى ينظرون الى الشاحنات فى فضول ويلوح الاطفال لسائقيها الذين كانوا يقودونها بحرص شديد ، وتوقفت الشاحنات بعد عدة أمتار وهبط سائق الشاحنة الاولى ودار حول شاحنته ثم سار على قدميه بضعة خطوات والناس ترقبه فى اهتمام،بينما جرى حمد السيد شقيقمهرانالسيدالى

دار البكرى ليخبر الشيخ بكرى بما يحدث ، كما خرج بدوى الذى كان قد عاد قبيل الفجر من البندر ، خرج ينظر ذلك المشهد الذى يكاد يقضى على أحلامه ، وفى نفس الوقت الذى خرج فيه كل من عثمان البكرى وهما لايزالان على خلاف فى تفسير أقوال عبد الصادق ٠

توقف سائق الشاحنة ونظر الى الرجال ثم قال فى أمر مشيرا الى مجموعة من الرجال ٠

– انتم تعالوا الى هنا ٠

واستدار السائق ليقف امام الشاحنة ناظرا الى أعلا ، ولما لم يسمع للرجال حركة استدار ثانية تجاه الناس ، وأعاد الأمر ثانية بلهجة أكثر حدة ، فلما لم يجبه أحد ، صرخ فيهم ثم سبهم بكلمات قاسية ، عند ذلك تقدم أحدهم معاتبا ، لكن السائق كان قد تملكه شيطان الغضب فلم يقبل المعاتبة وأهان الرجل ، وصمت الرجل لحظة وهو يتمالك نفسه ، لكن السائق كان قد ركبه الشيطان ، وازداد تحديا وسبا ، فلم يملك الرجل الا أن ضربه بقسوة ، الأمر الذى جعل كل سائقى الشاحنات يندفعون نحو زميلهم ليخلصوه من يد الرجل ولكنهم ما كادوا يفعلون حتى تولى الرجال ضربهم بشدة جعلتهم يصرخون من الألم ، ولولا حضور بكرى لكانوا صرعى هذا التحدى الذى قاده زمليهم سائق الشاحنة الأولى ٠

ولما أحس السائقون انهم أفلتوا من أيدى الرجال راحوا يتشاكون فى تذمر مصحوب بتهديد باعادة الشاحنات بما فيها الى البندر ، وبكرى يسمع لهم حتى نفد ما لديهم من كلام ، عندها أمر بكرى بالشاى للسائقين معتذرا عن رجاله ، وتحدث السائق الأول وقال انه يريد شق الطريق الى أعلا لوضع الآلات فى مكانها الملائم وأن هذا يستدعى عمل كل الرجال لتمهيد الطريق ٠

ونظر بكرى الى الطريق وفكر فيما قاله السائق ووجد أن المهمة شاقة على أهله ، وانه اذا طلب منهم هذا فانه يكون بذلك ليسخرهم من أجل عربات الشركاء ، وكان بعض الذين احاطوا بالسائق وبكرى قد سمع ما قاله السائق ، ونقله الى الآخرين وقفز الولد أحمد الرفاعى وقال فى سخرية :

ـ من أولها هكذا

رد عليه الولد يونس ابن خالته قائلا :

ـ يبدو أن الشركة سوف تجعلنا عبيدا عندها

ومن كلمات الولدين ، انتشرت شرارة الرفض والاحتجاج بل الثورة ضد أعمال الشركة ٠

وعندما أحضر الرجل الشاى للسائقين كما أمر بكرى ، كان بدوى هو الآخر قد وصل الى مكان الشاحنات وكذلك سليمان وعثمان وعبد الصادق والمرأتان ترك ومبروكة ٠٠

ونظر الناس نحو عثمان البكرى ثم نظروا نحو بكرى وأحس عامةالناس أن الايام القادمة تحمل لهم هما كثيرا ، وتحدث بدوى معارضا أشتراك الرجال فى أعمال الشركة ، وقال عبد الصادق أن الأوراق ليس بها مثل هذا الفعل ، ولزم سليمان وعثمان الصمت وكان صمت عثمان أشد على الناس من كلام بدوى ، ونظر الجميع الى بكرى الذى انتظر حتى شرب السائقون الشاى وكف الهمس ، واللمز وانتهى كل ولد من قوله ونظر الى عثمان ، وقال :

ـ اقترب منى ياعماه ٠ فاطاعة عثمان حتى وازاه واقفا ، قال بكرى ، ناظرا الى سائق الشاحنة الأولى :

ـ سنمهد لك أنا وعمى الطريق فحدد لنا انت نهايته ٠

وخلع بكرى جلبابه ، بين صمت الناس ودهشتهم ، وكذلك فعل عثمان مثل ما فعل ابن اخيه ، واشار بكرى الى احمد السيد فأحضر له فأسا امسكها بكرى فى عـــزم واتجـــه نحو الطريق الصاعد أمام الشاحنة الأولى ، وتبعه عمه ٠٠ ، وما هى الا لحظات حتى اندفع الرجال حاملين فؤوسهم خلف بكرى ، واستشاط بدوى غضبا ، وراحت صرخاته المعترضة هباء ٠٠

وعند الظهر كانت الشاحنات قد انتهت الى مكانها المأمول وبدأ الرجال وفقا لارشادات سائق الشاحنة الأولى فى انزال المعدات والآلات ، شارك كل رجال المنشـــية فى هذا الحدث وقد غمرهـــم الشعور بالأمل والفرحة حتى انهم نسوا ألم (الصفرة) وأكلـــوا الفول المجروش الناشف وتقاسم معهم السائقون طعامهم ، كما قدموا لهم ما معهم من طعام احضروه من البندر ٠٠

ونسى الناس الى حين ما قال عبد الصادق ، كما نسى سليمان معاتبة عثمان فقد شغلهم مرض غزالة !

(٢)

أكد سليمان ضرورة حضور طبيب من البندر لكى يعالـــج غزالة ، ولكن عثمان رفض وقال ان عبد الصادق سوف يقوم بهذا العلاج ، كانت ترك تلازم غزالة مـــلازمة الأم وكانت على درايـــة بتمريض المرضى ، لهذا كانت تبذل كل جهدها لكى تخفف الألم عن الفتاة التى بدأ الشحوب والهزال يغزوان جسدها الجميل ، وبدأ المرض ظاهرا وقد حولها الى انسان ضعيف لايقوى على شىء ٠

وحاول سليمان مرة أخرى أن يثنى صديقه عثمان عن عناده ويرسل فى طلب طبيب البندر ، الا أن هذه المحاولات لم تنفع وظل عثمان لايوافق ، وكل مايفعله هو الدعاء الدائم لابنته والجلوس أمامها ثم السهر طوال الليـــل للصلاة والعبادة ٠٠ حتى جاءه عبد الصادق ذات يوم وأخبره أن شقيقة بكرى قد أصيبت هى الأخرى بنفس مرض غزالة ، ونظر عثمان الى عبد الصادق وقال :

ــ لو كان قلبك خالصا لله لوفقك الله لشفاء الناس ولكنك منذ ان سلكت طريقك الى الخواجـــة وقلبك قد تحول ، وتحولت عنك البركة ٠

ولـم ينطـق عبد الصـــادق آلمته كلمات عثمان ولكنه لـــم يستطع الرد ، كان بالفعل يحضر الدواء من عند الخواجة موريس كما وعده بدوى ، ولكن الدواء لم يأت بنتيجة ، وأن كل ما فعله الدواء الجديد انه كان يعاون المرضى على تحمل الآلام ٠

ونظر عبد الصادق الى عثمان ، وقال :

ــ ستشفى بأذن الله ٠

ومضى عبد الصادق مفكرا ، فقد عاون بدوى فى عقد صفقتين لشراء أرض محمد حسن ونبوية موسى واخذ منه ذلك الدواء الذى وعده بدوى وبعض المال اشترى به طعاما وأخفاه فى بيته ، وكانت هذه الفعلة هى المرة الأولى التى يفعها رجل من أهل المنشية وأصبح عبد الصادق وزوجته ترك يأكلان من طعام المدينة سرا ، خوفا من أن يعرف الناس أن لديهما طعامامنالمدينةفىالوقتالذىلايزالالناس تأكل الفول الناشف والجذور الباقية فى الأرض ، وهذا يكفى لطردهما من المنشية ، من أين ياعبد الصادق ؟ من أين لك هذا الطعام ؟ تقول اشتريته ؟ أو أخذته من المعونة ؟ أو اخذته صدقة من اهالى البندر

أتكون انت أول من خالف عقيدة أهلك وجلبت عليهم العار والتشرد ماذا تفعل ياعبد الصادق ، لماذا سرت مع بدوى فى هذا الطريق ··

وصرخت أعماق عبد الصادق وكاد يقع فى حفرة فى الجبل لولا يد أمتدت اليه · ولم يكن عبد الصادق هو الوحيد الذى كان يأكل سرا من طعام البندر ، فقد لحق به عدد آخر عرفوا الطريق الى طعام أهل البندر ، أولهم بدوى الذى كان يبيت معظـــم لياليه مع ناعسة ، فاذا حضر الى داره المهدمة فى المنشية أحضر معه مايكفيه ومع بدوى كان هناك آخرون عرفوا كيف يحصلون على طعام أهـــل البندر ·· بطرق لم تكن معروفة قبل حدوث السيل ··

ومع الطعام الذى تسرب الى المنشية ، كانت هناك أرزاء أخرى وقعت فى المنشية وكأن الطعام لم يأت وحده انما جاء معه سلوك جديد بدأ يتفشى بين الناس ، مثل ذلك المرض الذى لم يقدر على علاجه عبد الصادق ··

(٣)

ظلت كريستيل تفكر حتى اهتدت الى رأى ، وذهبت الى العمدة من فورها وقالت له أن الفتى الاسمر المسمى سيد البكرى قد تهجم عليها ليلا وهو مخمور وانها لا تستطيع أن تعود الى أمها ، وأخذ العمدة ينظر اليها فى ضيق فقد كان يعرف أخلاق سيد البكرى ــ لم يعرف عنه هذا السلوك الشائن ، ولم يعهد فيـــه هذا التصـــرف اللاأخلاقى ولكن أمام اصرار الفتاة التى يعلم عنها ايضا مـــدى استقامتها بل مدى تشبثها بالاخلاق المسيحية فانه ظل يفكر فى الأمر ·

وارسل العمدة الى سيد البكرى ، وبعد أن حذرته الفتاة من أن سيد سوف ينكر وأنها مراعاة لظروفه لأنه سوف يدخل الامتحان بعد فترة وجيزة ترجو العمدة أن يحبسه فى سجن القرية حتى موعد الامتحـــان ثـــم بعد ذلك يحـــول الى المحكمـــة ، وعندما جـاء سيد البكرى ووقف أمام العمدة ، لم تكن كريستيل موجودة ، وكان العمدة لا يدرى ماذا يفعل به ، وفكر فى كلام كريستيل هل يحبسه فى السجن الخاص بالقرية حقا كما أشارت وهل هذا من حقه ، ثم لماذا يفعل ذلك ، لماذا لا يحوله الى المحكمة تقتص منه أو منها أيهما يستطيع اثبات صدقة ، نظر الى سيد البكرى وقال :

ـ اين كنت اليلة البارحة ؟

حاول سيد أن يتذكر ، ولكنه فشل ، فقال فى تردد :

ـ فى دارى

قال العمدة فى غلظة شديدة :

ـ لم تكن فى دارك ٠

يبدو ان العمدة يعرف ، لهذا قال سيد :

ـ اذن فى بار مارى أو فى أى بار آخر ٠٠

صاح العمدة فى استياء :

ـ بل كنت تتهجم على النساء مثل خنزير معتوه

تقزز سيد عندما شبهه العمدة بالخنزير ، واحس بالمهانـــة الشديدة ، وقال :

ـ اتحداك أن تقول نفس الجملة أمامى مرة أخرى ٠

بالفعل لم يعد اليها العمدة الذى سكت قليلا ثم قال :

– متى تؤدى امتحانك الأخير ؟

زام سيد ورفع يده ثم أعادها فى حركة لا ارادية وقال :

– بعد مدة وجيزة

قال العمدة مقررا :

– ستوضع فى السجن حتى موعد الامتحان

تلفت سيد حوله ، لم يكن يحسب لهذا حسابه ، فقد فوجىء بما قاله العمدة ، ووجد نفسه بين رجلين يدفعانه الى حجرة معزولة فى دار العمدة والباب يغلق من دونه ..

دار حول نفسه كأنه سقط فى بئر ، حاول ان يفتح الباب ، لم يستطع استدار نحو النافذة ووجد عليها شبكة من حديد متين ، راح يدقق النظر فى الحجرة فاذا بها حجرة لا بأس بها ، بها فراش معقول وبعض المقاعد وحوض ماء ، والنافذة تطل على خضـــرة جميلة ، شعر بالارتياح ونام ..

(٤)

فى اليوم التالى جاءت اليه فى الحبس ، انفتح الباب ودخلت، كان معها طعام ساخن وحقيبة ملابسه وأيضا حقيبة كتبه ، وقفت أمامه فى منتصف الحجرة شىء ما فى داخله أعلمه انها تدبر أمرا ، توقف قبل أن يضربها ، أراد ان يتأملها وهى ترتعش فى خـوف ،

ابتعد عدة خطوات ، وضعت هى ما معها على المائدة ثم بدأت تعد له الطعام ليأكل ، كان جائعا ، ولكنه لايزال تحت تأثير حالة الغيظ منها ، أشاح عن الأكل بوجهه ، كان يود ان يقول لها كلاما عنيفا ، ان يؤنبها ، أن يضربها ، ولكنه اكتفى بالابتعاد عنها ٠٠ غادرت هى الحجرة بسرعة ، اكتشف عدم وجودها فجأة ، أحس بالغيظ يشتعل فى صدره وجلس يلتهم الاكل الساخن ، سمع صوت الحارس وهو يزمجر بالخارج لم يهتم وواصل الاكل ٠٠

(٥)

جلست ترك بجوار غزالة ، كانت ترك قد دست تحت وسادة غزالة بعض الطعام اتت به فى الخفاء أسفل طرحتها السوداء ، ترك تجد صعوبة فى ابلاغ غزالة بأمر الطعام ، وكانت غزالة شاردة هدها المرض وأرقدها الالم ، سمعت أصوات الآلات وهى تعمل فى اكل الجبل ، حاولت ان تتناسى صوت الآلات ولكن الصوت كان قويا ورتيبا ، نظرت نحو ترك ٠٠

ـ خالتى ٠٠ ماذا يفعل الناس ؟

قالت ترك وهى لا تفهم :

ـ يعيشون

أعادت غزالة السؤال :

ـ أقصد ياخالتى ٠٠

لم تدعها ترك تكمل وقاطعتها فى رد :

ـ يابنتى الناس تريد أن تعيش ٠

ـ والآلات

ـ أصبحت مصدرا للرزق

ـ لكل الناس ؟

سكتت ترك برهه ، ثم قالت :

ـ لبعضهم

ـ والباقون ؟

ضحكت ترك وقالت :

ـ يتفرجون

ـ والطعام ؟

وجمت ترك وهى تنظر الى الوسادة ، ثم قالت :

ـ بعض الناس يأكلون من ٠٠

توقف ترك ولم تكمل ، نظرت الى غزالة فى اشفاق ، دست يدها واخرجت لفافة بها قطعة من طعام البندر ، دفعتها الى غزالة ، امسكت غزالة باللفافة ، نظرت اليها والى ترك ، وقالت ترك مشجعة:

ـ انت فى حاجة الى هذا

رفعت غزالة راسها الى ترك وقالت :

ـ والناس ٠٠ هل يأكلون منه ؟

لم تستطع ترك أن تقول لها شيئا ، كفت عن الحديث ، اشاحت

بوجهها عن غزالة ، وضعت غزالة لفافة الطعام بعيدا ، حاولت أن تنظر من خلال النافذة ولكن كانت النافذة عالية ..

(٦)

لم يضع محمد حسن وقتا بعد أن وقع على ورقة أمام بدوى وعبد الصادق انه باع ما يخصه من أرض الجبل الى الست ناعسة الحلوانى وقبض المال ، فقد انصرف عقله الى افضل طريقة لاستغلال هذا المال وزيادته ، وجاءت اليه الفكرة سريعا وهو واقف يتأمـل العمال الذين يديرون الآلات ، انهم يحضرون طعامهـــم من البندر وكثيرا ما اشتكوا من تلف الطعام نتيجة وضعه فى الشمس لـمدة طويلة ، وفكر محمد حسن ونفذ ما جاء على فكره ..

(٧)

وكانت الآلات عندما بدأت العمل فى حاجة الى من يديرها ولما كان الاهالى يجهلون كيف تدار هذه الاشياء العجيبة ، فقد استأذن التجار من بكرى لكى يسمح لهم باحضار مجموعة من العمال الخبراء الذين سيقومون بتشغيل الالات ، ولم يستطع بكرى أن يرفض رغم أن هذا لم يكن ضمن ما كتب على الورق ، وجاء العمال وركبوا الآلات وبدأ العمل فى ردم الخندق الذى أحدثه السيل ، والعمال من

الرجال ، وهم فى حاجة الى طعام وشراب ومأوى للراحة وايضا فى حاجة الى الاحساس بالامان والامن · ولكن المنشية ليس بها طعام الا ذلك الطعام الجاف الذى يحرصون على عدم الاسراف فيه فالجذور يحصلون عليها بصعوبة من باطن الجبل ، والفول والبقول يوزعونها كل صباح على الرجال فقط ، ولهذا بدأت احدى العربات تذهب الى البندر كل يوم لاحضار ما يلزم للعمال ، ولكن حتى الطعام الذى تحضره العربة لايكفى للعمال ، وبعد الطعام يريدون شـرب الشاى والشيشة وما الى ذلك من أمور تجعل العمل فى الجبل سهلا ·· لهذا عندما وضع محمد حسن بعض الالواح الخشـبية على الاحجار وجعل منها مقاعد ثم جاء بأدوات الطهى والشاى وبدأ فى اعداد أطعمه بدوية أقبل عليه العمال وتركوا الطعام القـادم من البندر ، والتهموا طعام محمد حسن وشربوا الشاى الأسود من يده ، واشار عليه بعضهم لاحضـار أدوات ـ التدخين وبالفعل احضر لهم مايريدون ··

وبعد أسبوع جاء الاسطى أنور زغلول رئيس الوردية بجهاز عجيب ، وضعه فى ركن من (المطعم) وجعله يصدر أصواتا عالية ، بعضها كان غناء وبعضها كان كلاما يقال ، وأحدث هذا الجهاز دوامة من الضجة جاء على اثرها الكثير من أهالى يتفرجون على (الراديو) الذى كان معروفا فى البندر ولم يكن معروفا فى المنشية وسـخر بدوى من جهل أهله لانهم حتى الآن لا يعرفونه وحدثهم سليمان عن ذلك الجهاز السحرى ، ولم يألفوا هذا الجهاز العجيب الا بعد أن جعله الاسطى زغلول يقرأ القرآن ، بعدها كانوا يتحلقون حوله بعد صلاة العشاء ليسمعوا منه الاغانى والكلام الذى يقال ، والذى اتضح انه أخبار الناس فى البلاد البعيدة وذهب صادق الى بكرى وقال له أن (الراديو) يمكنه أن يعرف أخبار سيد البكرى ·

اضطر سيد البكرى الى ان يفك حقيبة الكتب وان يتسلى بالقراءة التى هجرها منذ وقت طويل ، وكان الليل فى الحبس طويلا ومملا ، وليل سيد يختلف عن ليالى الآخرين ، فهو يبدأ من العاشرة مساء ولاينتهى الا مع طلوع الشمس ، وليل سيد ملىء بالحركة ومفعم بالسرور ، فهو ينتقل من مكان الى آخر ناقلا معه المرح والبهجة ولا يهدأ سيد الا بعد ان يذهب الى داره ويرتمى على سريره ، وحتى فى داره لا يكون وحده ، لابد أن يكون معه أصدقاء وصديقات ، وتعود سيد على وجود من يتحدث معه أو يناقشه أو يتشاجر معه ، لم يتعود على الصمت والهدوء لهذا كان ليل سيد فى الحبس طويلا ومملا ويحتاج الى صبر لكى يتحمله ، وسيد لم يتعود على الصبر ٠

وضع الكتب التى أحضرتها كريستيل ، واخذ فى قراءة تلك الكتب ، وأحس أن رأسه لا تستوعب ما فى تلك الكتب ، أعادها الى المائدة ، راح يحرث أرض الحجرة فى غيظ ، الوقت يمر ببطء شديد، عاد الى الكتب ، حاول أن يفهم ما يقرأ لفت نظره ، عندما تصفح صفحة من وسط الكتاب أن ما بها كان يعرفه ، بل قرأ تفصيله فى كتاب آخر استعاد فى ذاكرته ذلك الكتاب (علوم ما بعد العلوم) ٠ كان ذلك اسم الكتاب الذى تذكره ، أخذه من مكتبة بوتنر يومها لم يتركه الا بعد أن أتى عليه ، تذكر الآن كيف حفزه الكتاب على قراءة المزيد من هذا العلم وتذكر أن بوتنر أيامها شجعه على ذلك ، وقال له : ان هذا العلم هو علم المستقبل وان دراسة العلاقة بين نتائج التحاليل والامراض المستترة فى الجسد البشرى يمكن أن تفيد

الطبيب فى معرفة طريقة العلاج ، وقرأ سيد فى هذا الباب ، وعرف ان الجسد البشرى به من الامراض مالا يمكن عده ، وان الكثير من هذه الامراض لا يعرفها المريض نفسه ، وانها تظل معه ولا تتركه وهو لا يعلم عنها شيئا ، وسعد سيد بانه تذكر هذا كله ، وراح يقلب فى الكتاب من جديد ، لاحظ انه سبق أن وضع بعض العلامات والخطوط والدوائر على بعض الكلمات ، وعاش سيد ليلة جميلة مع كتاب من كتبه ، وهكذا بدأ سيد رحلة استذكار لم يكن يتصور انه سوف يمضى فيها أبداً وعندما جاءته كريستيل فى الصباح حاملة الطعام والملابس النظيفة لاحظت أن الكتب وضعت باهتمام ، وأن سيد يبدو عليه بعض الانتعاش ، ولكنها لم تكن تضمن تقلب مزاجه وخافت أن تناقشه فى أى أمر من الأمور ، لهذا وضعت الطعـــام وانصرفت بسرعة قبل أن يفاتحها هو بالحديث ، وكان سيد يود أن يفهم على وجه اليقين لماذا حبسوه ، لم يعد الحبس يضايقه بقــدر احساسه بالظلم من ذلك الحبس لهذا كان يود ان يعرف منها الحقيقة ولكن كريستيل كانت تخشى أن تفقده لو علم منها انها هى التى دبرت هذا الحبس لكى تجبره على المذاكرة ٠

واستمر سيد منكبا الكتب ، واستمرت كريســـتيل تحضر له الطعام والملابس النظيفة وتفر منه قبل أن يبدأ الحديث معها ، وعندما أحست انه على وشك الانفجار وانه لا محالة سيجبرها على الحديث والتكلم ـ أصبحت ترسل له الطعام والملابس النظيفة مع الحارس ، وانغلقت فى وجه سيد كل أبواب العالم الخارجى ، ولم يبق الا عالمه الداخلى وتلك الكتب التى أصبحت الآن تشاركه ليلة ونهاره ٠

كان بكرى قد خلى الى نفسه ، فى محاولة لأن يعرف ماذا يدور داخل صدره منذ الصباح وهو يحوم حول الآلات التى تعمل بلا كلل تأملها ، تأمل العمال ، راح يقيس بعينيه ما ينجز من عمل ، سأل العمال عن أشياء ، أجابوه بما يعرفون بدأ يفهم مايدور حوله ، ولكن يبقى هذا الشىء الذى يأكله فى صدره ويدفعه الى طرد تلك الآلات ، ولولا بعض الحكمة لفعلها وطردهم جميعا ٠

وعندما اقترب من قهوة محمد حسن سمع ضجيج الراديـو عاليا ، كان صوت المطربة التى تتغنى بالحب يبدو جارحا ، وصوتها قبيحا ، وكلمات الاغنية مبتذلة ، ولكنه شاهد الرجال يجلسون حول الراديو ، تبدو عليهم السعادة ، كانوا يأكلون أرزا مخلوطا ببعض الحبوب الاخرى ، وهى الاكلة التى جلبها محمد حسن من البندر قالوا أن طعمها جميل ، ولكن من أين لهـــؤلاء الرجـــال من نقود ليدفعوا ثمن ما يأكلون وما يشربون وعندما أصـــبح فى محازاة (القهوة) وقف الرجال يحيونه ، رفع يده بتحية فاترة ومضى فى طريقه ، كانت المطربة لا تزال تشكو من هجر الحبيب الغائب وهى تعلم انه شغف حبا بأخرى ، حاول الا يسمع بقية الاغنيـة ، لكن الراديو كان يغطى بصوته مساحة كبيرة من أرض المنشية ويدور هكذا طوال النهار واجزاء طويلة من الليل ٠

فكر بكرى فى كل هذا ، وشاهد عمه بدوى وهو يتخذ لنفسه مكانا أمام داره جاعلا منها (مندرة) يشرب فيها من يحضر اليه الشاى ومشروبات أخرى لها مذاق العسل ، وقد أحضر بدوى من

البندر رجلا يقوم على خدمة مجلسه وينحنى أمامه باحترام ، عجز بكرى عن معرفة مصدر المال الذى ينفقه عمه ، وعندما تحدث الى عمه عثمان بهذا الخصوص رفض العم الحديث مكتفيا بذكر الآثر السيىء لكلام عبد الصادق عندما قال انه سيدخل منافسا لبكرى ، لـــزم عثمان الصمت ، كان عثمان هو الوحيد من أهل بكرى الذى ظل على حاله لم يتغير ٠

كان بكرى يجلس مع نفسه فى محاولة لفهم ما يدور حوله ، رجال المنشية لايكادون يعملون شيئا ، ودورهم مهدمة وحقولهـم مخربة ، ومع هذا يراهم يضحكون ويذهبون الى (قهوة محمد حسن) ويستمعون الى الراديو ، بل ويأكلن (الكشرى) من أين لهم النقود ، ان المنشية الآن ليس لها دخل من زراعة أو تجارة ، السيل قضى على كل شيء المفروض انهم فى حالة سيئة ، ولكن ما يراه لا يدل على ذلك ، محمد حسن أقام مقهى ومطعما واشترى جهاز راديو ، والست نبوية موسى بدأت تنافس مبروكة ، وراحت تبيع الاقمشة الملونة لسيدات وبنات المنشية وظهرت النساء والبنات فى ملابس ملونة بألوان فاقعة ، وبدأت كل أمرأة تمشى فى الشارع وكأنهـا تمشى بهدف عرض ما ترتديه ، والرجال أيضا أصبح لهم ملابس جديدة وبعض الشباب بدأ يقلد شباب البندر فى ملابسه وكاد بكرى يصرخ وهو يجلس بمفرده ، من أين لهم هذا ، من أين جاءهم كل هذا ؟ ٠ حتى صادق دقاق الطبله والذى يؤدى دور الحانوتى ظهرت عليه هو الآخر علامات التغير ٠

اندفع احمد السيد الى بكرى واخترق عزلته صائحا :

– العمال يعتزمون مهاجمة المنشية ٠

استدار البكرى نحو احمد السيد ، كان احمد الســـيد يلهث وكانت حالته تدعو للرثاء ، شرح فى كلمات متقطعة بداية المأساة فقد ضبط الحاج محمود نوفل أحد العمال وهو يغازل ابنته فأمسك به وضربه ضربا مبرحا ذهب العامل الى رئيس الوردية واشتكى له ، جاء رئيس الوردية الى الحـــاج محمود الذى كان يجلس فى قهوة محمد حسن وعاتبه ، دهش الحاج محمود من معاتبة رئيس الوردية ، وضرب كفا بكف فقد كان يأمل أن يقوم (الاسطى) بضرب صبية الذى تجرأ وغازل فتاة من المنشية ولكن رئيس الوردية ، قال فى تحد ٠٠ ؟

ـ ولكنهما متحابان

وما كاد ينطقها حتى امسك به الحاج محمود نوفل ورمى به على الأرض بقسوة شديدة ، ولولا تدخل بعض الرجال لقتله ، وعندما علم العمال بهذا تجمعوا وقرروا الانتقام لرئيسهم والهجـــوم على المنشية وقتل كل من سيتعرض لهم ٠٠

اندفع بكرى وخلفه احمد السيد ، وصلا عند أول المنشــية ، وجد بكرى العمال وقد تجمعوا وأمسك كل واحد منهم بقضـــيب حديدى ووقف أحدهم يحمسهم من أجل الانتقام لرئيس ورديتهم ، وما كان العمال يرون بكرى حتى كادوا ينقضوا عليه لولا تدخـــل الاسطى الذى يعلم مكانة بكرى وأمرهم بالكف عن الصياح ثـــم استدار نحو بكرى قائلا :

ـ لا تتدخل انت ياشيخ بكرى

حاول بكرى ان يتكلم ولكن العمال عادوا الى سبه ، تراجع بكرى وقد أخذته العزة بالاثم ، نظر نحو احمد السيد الذى اسرع نحو المنشية وقد فهم عن شيخه مايريد ، تراجع بكرى وقال :

– انتم ضيوفنا يا أهل البندر فاذا أردتم الاقامة معنا فاحترموا تقاليدنا ..

هاج العمال ، واندفع احدهم فى رعونة حتى بكرى ودفعه فى صدره بما يحمل من أداة حديدية ، تألم بكرى ولكنه لم يفصح ، عاد يقول فى هدوء بعد أن أبعد الاسطى العامل المتهور .

– اذهبوا الى معسكركم وسوف اتحدث مع الاسطى .

ولكنهم لم يذهبوا ، اختلطت الأصوات ، وسمع بكرى كلاما لم تألفه أذنه ، قال بعضهم ان الفتاة هى التى أغرت زميلهم بل اخذت منه نقودا وحليا وملابس ، فاذا كانت لا ترغب فى زميلهم فلماذا أخذت منه كل هذا ، ومادام أبوها لا يريد زميلهم فلماذا لايمنع ابنته ، بل سمع أحد يتهكم على بنات المنشية ، وقال الآخر بصراحة ، انهم يتعرضون لنا ونحن الذين نتعفف ، كان احمد السيد قد وصل الى مندرة البكرى واحضر ((المقروطة) وعاد ومعه خلق كثير ، وعندما لمح بكرى تجمع رجاله قال وقد ضاق صدره بما سمع من العمال :

– عودوا الى معسكركم بالحسنى .

احس الاسطى ان بكرى يهدد ، اندفع نحوه وقال :

– ياشيخ بكرى العمال سيحولون الأمر الى فوضى ففرق أنت أهلك وانا افرق رجالى ..

قال بكرى فى تحد :

– رجالك يستحقون الأدب وانا كفيل بذلك

هبط قلب الأسطى الى رجليه ، قال فى توسل :

– ياشيخ بكرى أرجوك

كان بكرى قد اغاظته كلمات العمال ، ورغم أنه أحس أنها صحيحة وأن ما يراه من ملابس وطعام مصدره العمال ولعن الفقر الذى عرض أهله لهذا الهوان ، ولهذا رفع يده فى قسوة وضرب بها أول من صادفه من العمال فصرخ العامل من الألم فى الوقت الذى صاح فيه بكرى :

ـ سوف اعلمكم احترام هذه الأرض

وأمسك فى يده بالسوط الاسود وفى اليد الأخرى (المقروطة) وهى بندقية قصيرة ولكنها شديدة المتانة ، صنعها هو بنفسه من بقايا حديد قديم ، وهوى بالسوط جهة العمال وصاح :

ـ اتحرثون أرضى فسادا

واندفع العمال فى فوضى ، زاغت عيونهم فى خوف ، فقد تحول هذا الشاب الى شيطان فى لمح البصر وانهال عليهم ضربا ، واندفع رجاله يضربون العمال فى قسوة كان الرجال الذين يضربون العمال من هؤلاء الذين ظلوا بعيدين عن قهوة محمد حسن وكشرى العمال ، كانوا يضربون الفساد الذى حل بأرضهم ، كانوا يضربون الفقر الذى جعلهم يتشاركون مع هؤلاء ، وعاد العمال الى مخيمهم ولكن بعد أن ذاق كل واحد منهم ألوانا من الضرب لم يذقه طوال حياته ، وبكى البعض منهم من شدة الألم ، ولم تنفعهم أدواتهم التى كانوا يمسكون بها ، وراحوا يتخبطون فى الخيام وهم يسمعون طلقات المقروطة تدوى حول خيامهم ..

وعاد بكرى بعد أن لقن العمال درسا قاسيا ، ولكن لا تزال المشكلة كما هى ، ولا يزال السؤال المطروح ، دون اجابة ، كما ان حكاية البنت التى شجعت العامل تحتاج الى تحقيق انها سابقة

لو تركت دون ردع لأصبحت مثالا لكل فتاة فى المنشية ولهذا قرر بكرى ان يتفرغ تماما لمعرفة حقيقة ماقاله العمال ··

وفى الصباح ارسل الى الحاج محمود نوفل ، والرجال جلوس فى المندرة ··

ـ ياحاج محمود ·· انت تجلس على المقهى وتشرب الشاى وتأكل هذا الذى يسمى كشرى ··

قال الحاج محمود فى تردد :

ـ نعم ·· نعم ··

قال بكرى :

ـ والنقود ·· اقصد من أين لك ثمن كل هذا ··

أحس الحاج محمود بالحرج الشـــديد ، تردد فى الاجابة ، تلفت حوله ، كانوا جميعا ينظرون اليه ، لو قال انها نقوده ، فسوف يقال وهل كانت معك نقود واخفيتها عنا ونحن نبحث عن طعـــام للاطفال والنساء ، فاذا قال لهم انه يستدينها من محمد حسن لقالوا وكيف تأكل بالدين والمنشية تمنع هذا ، فماذا يقول ، وبكرى ينظر اليه ، قال :

ـ ياشيخنا ·· انا والله استحيى ان اجيبك ··

ولكن بكرى كان مصمما ، فقال :

ـ قل حتى نعرف ونعفوا ·

قال الحاج فى تردد :

ـ من مهر ابنتى

ارتفعت الدهشة على وجوه الحاضرين ، ولم يمهلـــه بكرى وقال :

ـ ومن هو خطيب ابنتك ياحاج محمود ٠

أطرق الحاج محمود برأسه ٠٠ وقال بكرى فى لوم :

ـ فى هذا الوقت العصيب توافق على خطبة ابنتك وبدون مشورة ولا رأى لنا ودون علم أهل الحل والربط فى المنشية ياحاج محمود ؟

قال عثمان وقد كان حاضرا :

ـ ومن هو العريس ؟

تحشرج صوت الحاج محمود ، وقال وهو يبلع ريقه بصعوبة

ـ عبد الرازق

صاح احمد السيد ماخوذا :

ـ العامل الذى ضربته !

ران الصمت على المندرة ، لم يكن هناك ما يقال ، احاق بهم خطر حقيقى ، احسوا جميعا انهم ينزلقون الى هوة سحيقة ، لقد رفضوا معونة البندر وتحملوا الجوع والعطش وألم المرض من أجل الحفاظ على تقاليدهم وعاداتهم من أجل الحفاظ على شخصـيتهم والآن يقع رجل من اهم رجال مجلسهم فى بئر العار ، يسقط ركن من اركان مجتمعهم ، الرجل قبل خطبـــة ابنته لعامل من البندر ، غريب ثم يضربه بعد ان اخذ امواله ويكذب على اهله ويتسبب فى مشاجرة يعلم الله الى ما كانت تنتهى اليه هكذا ياحاج محمود ٠٠

رفع بكرى رأسه قال :

ـ احضروا عبد الرازق الى هنا ٠٠

واحس احمد السيد الذى انطلق نحو مخيم العمال ، أن الأمر لن ينتهى الى خير ٠

« ١٠ »

لم تمض عدة أيام الا وشاع فيها خبر ابنة محمود نوفـل ، وتأكد بكرى أن الأمر ليس مجرد أمر فتاة أعجبها منظر العمال فى ملابسهم الزرقاء ، بل ان الأمر اكبر كثيرا من ذلك ، فى البداية راعه اعتراف العامل امامه بانه استجاب لاغراء البنت التى اعطته كل شىء ، وعندما استيقظ ضميره لم يجد الا ان يطلب زواجها من أبيها ولكن الأب رفض ، وحاولت الفتاة من جانبها مساعدته ولكنه كان جاهلا بأمر العلاقة التى نشأت أو يتجاهل لأنه كان يعطى الفتاة نقودا وهدايا ، وكان يرى بعض ما اعطته مع ابيها ، وعندما حاول التحدث معه فى المقهى ، ضربه محمود نوفل ولما اشتد عليه الضرب عايره بما حدث لابنته ٠٠

الأمر الذى جعل بكرى مصـدوما وغير مصـــدق أن محمود نوفل لم يستطع اخفاء معرفته بما جرى لابنته ، وايضا لم يستطع ان يبرر سكوته ٠٠

وأصبح الأمر بعد ذلك لبكرى ، بعد أن ضرب العمال الذين ابتعدوا عن المقهى بعد ذلك ، وبعد أن عرف كل شىء عن حكايــة البنت وردة بنت محمود نوفل ، واحس بكرى أنه بحاجة الى غزالة

فى هذا الأمر ، فهى لاشك كانت تهديه الى الرأى الأفضـــل ولكن غزالة ترقد الآن أسيرة المرض والفراش وان لم يكن يمنعها المرض من سماع ما يدور فى الشارع ، ولم تكتف ترك بابلاغ القصة الى غزالة بل حكت لها كل ما يقال من اقوال وصلت الى حد أن وردة بنت محمود نوفل ليست هى الوحيدة بين البنات ولكن يقال انهن اكثر من واحدة ٠٠

اتجه بكرى الى عمه عثمان الذى كان يجلس عند عتبة الدار ، وما تزال الدار بها آثار السيل ، وما يزال عثمان يمضغ حبـوب الفول الناشف ويتقوت عليها ، جلس بكرى بجانبه وسألة الرأى ، طأطأ الشيخ الكبير رأسه ولم يرفعها وظل صامتا ، فهم بكرى رأى عمه عثمان أن لم يكن لم يقله ، وعرف أن عليه أن يذبح وردة لتكون عبرة للبنات ، كما ان عمه كان ضد استخدام الشركة وضد استخدام العمال لهذا لم يقل رأيه صراحة حتى لا يقال انه يتدخل فى شئون المشيخة ، وخرج بكرى من عنده وقد قرر أن يستدعى وردة امامه ٠

(١١)

كانت وردة بنت الحاج محمود نوفل ، وحيدة أبويها ، وكانت تحلم كثيرا ، بل تعيش فى الاحلام التى تصنعها بنفسها ، فهى تارة تعيش فى البندر فى قصر من القصور التى سمعت عنها من مبروكة عندمـــا تأتى الى امها وتجلس بالساعات تتكلـــم عن قصـــور البندر ، وعن البهوات الذين يذهبون الى العمل فى الصباح ويعودون بعد صلاة الظهر لياكلوا مع أولادهم ، ويظل (البيه) منهم مقيما فى

القصر بين أولاده حتى صباح اليوم التالى ، وأحيانا تعيش وردة مع فارس من الفرسان الشجعان الذين كانوا مع أبى زيد عندما فتح عكا · وانه حملها على ذراعة ، وطار بها الى لواق لواق ، وجلسا فى حديقة كبيرة بها اشجار كثيرة يتدلى منها ثمر فاكهة لذيذة الطعم، حلوة الرائحة ، تجلس وردة بجانب الفارس يتناجيان ويقول لهـــا مثل الكلام المكتوب فى الكتاب الاصفر الذى يقرأ فيه أبوها محمود ·

أو تحلم بانها ذهبت مع سيد البكرى وتاهت ، وضــاعت فى الدنيا ، ويقول الناس لقد ضاعت وردة ، ويقول الناس لقد اختفت وردة ، ويقول الناس لو كانت وردة تعود وتكون هى فى عالم جديد، لم تضع ولم تفقد ، انما هى تعيش مع الملك ناروبين ملك الأرض الخضراء ، وهى ملكة ذات حسن ودلال ولديها من الجوارى والعبيد العدد الوفير ، فاذا أشارت فألف ألف من البنات يقلن شبيكى لبيكى، واذا عطست جاءها الحكماء والاطباء ، واذا جاعت فان الشـجر ينحنى اليها فتأكل من ثماره والطيور تسقط مطبوخة أمامها ، محمرة شهية لكى تأكل منها ، والويل لمن يعصى لها أمرا فان زوجها الملك ناروبين سوف يأمر مسرور السياف ليقطع رأس العاصى ، فهى تعلم ان كل ملك يسير بجواره سياف واسمه مسرور ، هكذا سيكون زوجها ملكا ويسير بجواره مسرور السياف يقطع رقاب العصاة الذين لا ينحنون لها احتراما وأحيانا تعيش وردة ، مع شاب شحات، لا يجد قوت يومه ، ويعود اليها وقد هده الجوع والمرض وتجلس بجواره ، تبكى بكاء مرا ، وتنام بجواره وهى ترتعد من الجوع والخوف بعد ان سقط زوجها مريضا وتذهب هى الى الدور تسأل الناس احسانا ، ولكن النساء يطردنها ويضربنها ـ انهن يشعرن بالغيرة منها لأنها جميلة ، وهن عكس ذلك ، وتعود الى زوجها الذى لا يقدر على الحركة يسألها الطعام والماء ، ولكن يا للأسف لاشىء

لديها ، فتضطر للذهاب الى ناعسة لتبيع لها شعرها الطويل وتشترى الطعام لزوجها بثمن شعرها الأسود الناعم الطويل ، هى الآن بدون شعر ، هى الآن صلعاء يجب أن تخفى ذلك عن زوجها لن يعلم بذلك ، لن يعلم بتضحيتها من اجله ، ويقوم زوجها ويسأل من أين لك هذا الطعام ، ومن اين جاءك المال ، أنت خائنة ؟ !

الويل لك ، يجب أن اقتلك ، لا تقتلنى ياوليد ، انتظر سوف اقول لك كل شىء · اعترفى بخيانتك ياخائنة ، وليد انى أموت ، وتموت وردة ، تموت فى اليوم الف مرة وتعيش فى الاحلام الف مرة ، حتى قابلها عبد الرازق ، كان حلو القسمات ، باسم الثغر ، ضحك فى وجهها ، لم تستطع ان تنظر اليه ثانية ، ذهبت فى اليوم — التالى تعللت بانها تسعى الى ابيها ، راته هناك ، نظرت اليه ، عادت الى دارها وهو معها فى خيالها ، لامها لأنها لم تعد له الطعام ، حاولت أن تعتذر ، ولكنه انهال عليها ضربا حتى سقطت على الأرض وبكت ، بكت بشدة سالتها امها عن سر هذا البكاء رفعت وردة يدها واكتشف انها تبكى فعلا ، ماذا تقول لامها ، أبى لايريد أن يعود ، ابتسمت الأم وقالت :

ـ دعيه يتسلى !

لم تكن قد عاشت تجربة الحلم والواقع معا ، لهذا راته فى اليوم الثالث وهو يشير اليها بيده ، كان يحمل فى يده قطعة حلوى ، لا تذكر الآن هل اخذتها من يده أم ردته هل قبلته فى الواقع أم فى الحلم ، لم تعد تدرك الفرق بين الاثنين ، كانت تبكى فى الحلم وعندما تفيق تجد انها تبكى فعلا ، عندما عشقته من كل قلبها لم تكن تعرف اهو ذلك الفتى الذى تقابله بالنهار ام هو الآخر الذى

يعيش داخلها بالنهار والليل ، لم تعد تـــدرك أن هناك فارقا بين العالمين ، اندفعت بكل وجدانها تهيم حبا بفارس الحلم وفارس الواقع كلاهما اصبح واحدا ، وان اختلفت الأماكن ، رأت امه وأخته ، رأت داره ، رأت أصحابه ، عاشت معهم ، تكلمت مع أهله ، خاصمت أخته ، تصالحت معها ، كل يوم لها حكاية ، ثم ٠٠

وجلست أمام بكرى ، كانت تخفى كل وجهها ، عيناها كانتا تنظران اليه ، وكان وجهه محروقا بالالم والحزن ، وعرفت هذا عندما نظرت اليه ، لا تدرى هل تقول له كل شىء أم تسكت ، ان عالمها أصبح مضطربا ، النساء والبنات يتحاشينها ، أمها صامتة ، هى لم تعد ترى أباها فى الدار ، قالوا لها انه يجلس فى الجبل ، وانهم يخشون عليه من الموت ، وان الشيخ بكرى يريد أن يراها ، وجلست أمامه ، ماذا تقول له ، هل تقول له انها لم تعد تفرق بين الحلم والواقع ، وانها لاتستطيع ان تجزم بأن عبد الرازق هذا هو فتاها أم انه شخص آخر غيره ، هل هى فعلا تريد الزواج منه أم لا تريد ٠

(ياشيخنا البكرى دلنى الى الطريق أو اقتلنى بيديك ، ابى لا يطاوعه قلبه على قتلى وليس لى أولاد عم يفعلون هذا نيابة عن ابى ، اقتلنى انت ، فانت شيخ البكرية وبيدك انت تستطيع انْ تريح ابى وأمى ، وأن تغسل العار عن أهلك ، ٠٠ ياشيخنا قل لى هـــل انا أخطات ، هل انا فعلا من يقولون عنها كل هذا ، هل انا فعلا أصبحت فى تلك الحالة التى قالوا عنها ، أنا أشك فى ذلك ـ أنا أعترف بأن عقلى لم يعد عقلى وأن قلبى لم يعد قلبى ، ولكن جسدى هو جسدى لم يمسه رجل ، أنا اعرف هذا ، ولكن كيف اعرفه وعقلى لم يعد هو الذى كان معى والذى كان يعرف حقيقة جسدى ـ ياشيخنا البكرى

اغرز سكينك فى قلبى ارحمنى من عذاب النظر الى امى ، أرحنى من عذاب ما اسمعه باذنى ، ياشيخنا ‥ انا مثل غزالة ابنة العم التى تعشقها ‥ انا من تعرف يابكرى ‥ فهل انا مازلت انا ‥)

صاح بكرى فى غضب :

ـ اريد أن أعرف الحقيقة

نظرت اليه فى اضطراب ارتعش قلبها داخل صدرها صـــاح فى غيظ :

ـ يجب أن أعرف ياوردة ‥ يجب

لم ترد لم تستطع الرد ، كانت قد ضاع منها اللسان ايضا

الفصل الثـــامن

(١)

لم تنس الناس ما حدث لوردة بنت محمود نوفل ، التى قتلها ابوها فى ليلة حزينة ، أخذها من يدها ومضى بها حتى خرجا من المنشية بعدها مشى امامها وهى خلفه كانت لا تسأل وهو ايضـــا لا يتكلم حتى وصلا الى حافة الجبل الجنوبى هناك فعل ما فكر فيه طويلا ، دفنها وعاد ، هكذا يقولون ، لم ير أحد من الناس شـيئا ، فقد خمنوا ذلك ، وعاد محمود نوفل الى الجلوس فى داره حزينا مطرقا ، وركب الهم بكرى واحس انه كان السبب فى مقتل الفتاة ، اما عبد الرازق فقد ارسلته الشركة بعيدا عن المنشية ولم يعد أحد يسمع عنه شيئا ..

ورغم هذا فان الاقوال تناثرت عن بنات اخريات ، ولكن فى

هذا المرة دون مشاجرات أو حتى دون حديث صريح ، قالوا عن بنت كساب النزهى ولكن لم يتحرك أحد لتحرى الحقيقة ، وايضا بكرى تظاهر بانه لايعلم شيئا ، وقالوا عن بنت حنفى ياقوت ، وهى مجرد اقوال ، لم يسرع احد بتكذيبها وايضا باثباتها ، لقد انقسمت المنشية الى قسمين ، أحدهما من قهوة محمد حسن ودنياها ، والآخر يجلس داخل الدور المهدمة فى انتظار حصاد المحصول ٠

والمحصول يوشك على النضج ، وبكرى لا يفارق عربات الشركة ولا تغيب عنه الاتها ، كل يوم يطوف بالحقول ويـــرى الآلات وقد انبتت الجبل زهورا شكلها جميل ، يشعر بكرى ان الجبل تغير لونه، كما تغيرت المنشية اصبح لها عدة الوان بدلا من لون واحد ، حتى هو نفســـــه لـــم يعد هو نفســـه ٠٠ تغير ، تحــول الى لـــون آخر غير اللون الذى كان له من قبل ٠٠ لم يعد هو الرجل الذى يتكلم فيسكت الجميع ، لهذا لم يعد يتكلم بعد ان لاحظ انشغال الناس عنه ، وايضا لم تعد مقهى محمد حسن هى المقهى الوحيد فى المنشية، بل تنوعت المقاهى ، وتنافست فى اصدار الضوضاء وعمل المطبوخات ذات الرائحة النفاذة ، وصار الناس يجلسون طوال الليل على تلك المقاهى وكما تعددت المقاهى تعددت المحال التى تبيع الأشياء ، تذكر بكرى أول تلك المحلات عندما شاهد نبوية موسى وقد زهدت فى مواصلة عمل مبروكة الجوالة بين البندر والمنشية ، فاقامت دكانا لبيع الدخان للرجال والحلوى للاطفال والعطور للنساء ، وجاء زوج ترك يشكو اليه منافسة نبوية موسى له ولعطوره ، ويومها ضـــحك بكرى ــ فلم يكن زوج ترك يملك شيئا من عطوره القديمة ، ولم تعد لديه زهورا كى يقوم بتقطيرها كما كان يفعل فلم الشكوى ؟

صمت زوج ترك وانزوى منسحبا من مجلس بكرى وقال احمد

السيد ، ان الرجال لم يعودوا كما كانوا ، وأن سليمان وعبد القادر اشتكيا اليه من عدم مقدرتهما على النوم مع زوجتيهما وكذلك قال آخرون ، وعلق احد الناس بقوله أن الخير ضاع وضاعت معه عافية الرجال ، ولم يتكلم بكرى كان على وشـــك البكاء ولكنه تمـــالك نفسه ، قال ان المحصول عندما يتم حصده وتوزع أرباح بيعه على الناس سوف يعودون الى حالهم ، عند ذلك كف الحاضرون عن الشكوى ٠

(٢)

همست ناعسة الى بدوى :

ـ المحصول أوشك على النضج ، فماذا تنتظر ؟

برقت عينا بدوى فى طمع ، وقال :

ـ انتظر الحصاد

قالت ناعسة فى تخوف :

ـ أخشى أن تخرج من المولد بلا حمص !

انزعج بدوى ٠٠ وقال فى حسم :

ـ لن يحدث هذا

قام من فوره من عندها ، دون أن يشرب الشـــاى ودون أن يغتسل ، ذهب من فوره الى الخواجة موريس ، وتحدث معه بشأن الاجراءات ، ابتسم موريس كعادته وقال :

ـ اصبر

قال بدوى فى غيظ :

ـ والى متى ؟

قال موريس ، وهو ينظر الى بدوى :

ـ الى أن أقول لك ماذا تفعل

خرج بدوى من عند موريس وهو أشد غضبا ، صـــعد الى الجبل ، دار حول الأرض التى انبتت الزهور الملونة ، رأى زهرة عباد الشمس وهى تبرق كالذهب فى وهج الشمس ، ورأى ثمار الحنضل راقدة على الرمال فى كسل ، وشم رائحة عطر نبات العتر ، حصـــد بخياله المحصول ، تأكد انه وفير ، عاد الى داره وأغلق الباب ، أخذ يحسب حساب المحصول ونصيب كل قطعة ارض ، لقد اشترى عشرة انصبة ، يقصد اشترى بمال الخواجة موريس ومعاونة ناعسة عشرة انصبة لعشرة رجال ٠٠ راح يحسب الانصبة ، ولكنه نسى أن الأمر حتى الآن بيد موريس فمعه الأوراق والتى تعطيه الحق فى المطالبة ٠٠ ولأن البيع والشراء كان سرا وظل كذلك فان المنشية لاتعلم عنـــه ، وحتى يمكنه الحصول على حقه يجب أن يعرف بكرى الذى سيقوم بالتوزيع ، وأراد ان يذهب الى بكرى ليخبره ، ولكنه تذكر ما قاله موريس ، المال مال موريس والورقة مع موريس ، وناعسة لن تتركه يأكل بمفرده ، وقرر العودة الى البندر للتشاور مع ناعسة ٠

تكلم غدوى الى عمه عثمان ، وقال انه يجب نقل غزالة الى البندر لعرضها على الطبيب ، رفض عثمان ، وسأل عبد الصادق عن أدويته ، قال انه جرب مع غزالة كل ما معه من أدوية وأنه يعترف بفشله،وقال ان النساء المريضات بمثل مرض غزالة حالتهن اكثر سوءا، ولكنه ينتظر تمام نضج نبات الكورا لاخذ بعض حبوبه فهى التى تصلح لمثل حالة غزالة ، وتمنى الجميع ان يتم نضج المحصول ، قبل موسم الامطار ، وعندما قال حمدان البكرى أن السيول ربما تعود أحس الحاضرون بالذعر ، وفكر كل واحد فى أهل بيته ، لـم تكن بيوتهم قد انصلح حالها ولم يكن لديهم ما يخـــافون عليه من السيول ، ورغم أنهم الفريق المعارض للشركة فانهم يأملون الا تأتى السيول لتأكل حصاد عام كامل ، وأراد حمدان أن يغير مجـــرى الحديث ، فقال :

– تقرر أن يكون عرس زايد الزناتى بعد اسبوع ..

(٤)

وضع بكرى قطع الخشب على أول حجر لامسها ثم دفعها ، زجر رفاقه لانهم تهاونوا ، حاول عشرة منهم رفع الحجر الى أعلا ، سقط حجر صغير على قدم عويس الجبلاوى ، صرخ من الألم ، انفجر الشبان فى ضحك عال ، قاطعهم بكرى ولكن بصوت غير حـــازم وطالبهم بالكف عن الضحك ، كان أول من ضحك هو العريس نفسه،

زايد ، كان هو أول من ضحك أو قل أول من حاول أن يفلت من حالة الارهاق ، وكان أيضا أول من انضم الى بكرى بعد انتهاء نوبة الضحك ، ونجح بكرى اخيرا فى وضع الحجر أسفل عرق الخشب ، وهكذا استطاع أن يعدل من وضع الباب الخارجى لدار العريس انطلقت زغاريد أمه وأخواته البنات ، وتصايح الفتيات فى طلب (المونة) ، واشتد على بكرى ألم فى ساقه اليسرى ولكنه تحامل على نفسه ، كان الفتيان يضحكون وهم يثبون على السقالات الخشبية ٠٠ يحملون الاحجار ويثبتونها بالمونة التى تضعها البنات قال أحدهم أن عليا له صوت جميل ، تمنع على ثم انطلق يغنى ٠٠

(الليل حرم العشاق من التلاقى ، لكن نبات الصبار همس فى أذن الحبيبة بكلمات العشق التى سمعها من الحبيب ، ومالت زهرة عباد الشمس نحو الحبيب ولامست خده ، وقالت كيف تكون بجمال الشمس ، قال الحبيب ان الحب هو الذى لونه بلون الشمس وجعله هكذا أجمل ، جاءت النحلة وحامت حول زهرة عباد الشمس ، قالت لها الزهرة اقتربى ، ودعينى أقبلك يا أجمل الجميلات ، قالت النحلة ولكنى أشعر بالغيرة من الفتى الذى لامست خده ، قالت الزهرة ياليتنى كنت عروسة ، تعالى أقبلك ثم اذهبى لتسقى عروسة العسل المصفى) ٠٠

الغناء يدفع الدماء فى عروق الفتيات والفتيان ، حائط ودار يرتفع ، لم تعد ساق بكرى تؤلمه جاءت لهم أم العريس بلقيمات جافة ، كان الزناتى مع الرجال فى المندرة قد حدد موعد العرس ، قالوا له أجعل موعده بعد الحصاد ، قال لا يعلم الغيب الا الله ، وحدد الموعد مبكرا ، وجاء رفاق ابنه ومعهم شيخ المنشية ليعيدوا بناء الدار ، كان العمل يستمر ليلا ، وفى الليل تدار حلقات الغناء والرقص ٠

(٥)

فى أول الليل ، جاء السرجانى الى دار رتيبة ، وسأل عن موعد الحصاد ، قالت رتيبة ان المهندس أخبرها بأن الموعد اقترب قال السرجانى انه سوف يذهب ليرى بنفسه ثم يعود اليها فى الليلة التالية ومعه الشريك الثالث ، احست رتيبة ان موعد الشقاق حل ، وانها يجب أن ترتب الأمر فى ذهنها فقد أخبرتها مبروكة عن مؤامرات تحاك من قبل بدوى يعاضده موريس ، يبدو أنه موريس لا يريد أن يكف عن معاكستها ، لن تخسر المال الذى دفعته فى اصلاح الجبل ، ثم انها لم تتعود على الخسارة ، ولكن كلمات مبروكة جعلتها تفكر فيما يمكن أن يفعله بدوى ومعه تلك العقرب ناعسة ، وخلفهما مطاريد الجبل ، لهذا قررت ان تبدأ بالهجوم ٠

(٦)

سمع سيد البكرى دقا متصلا على الباب ، ثم سمع صـــوت الحارس وهو يتحدث فى ضيق ، وبعد ذلك انفتح الباب ودخـــل مصطفى السعدنى ومعه أربعة من زملاء الجامعة كان مصطفى قد جاء بعده الى هايلدبرج لدراسة الفلسفة ، ولكنه لم يلبث حتى تحول الى بائع شاورمة وانضم الى شلة بار (ماريا) ، وكان معه بيتر وكارل وادولف وهاريس زملاء سيد البكرى فى الجامعة وأيضــا زملاء شلة البار ، كانوا قد شعروا بغياب سيد بحثوا عنه فى كل مكان ولم يجدوه ، ولكن أحد حراس سجن العمدة كان يشرب معهم

يوم الأحد وقال لهم أن سيد محبوس ، واندفعوا نحو دار العمدة ، وحاصروه بالاسئلة واضطر العمدة الى الاعتراف بأنه قام بحبس سيد بناء على شكوى مقدمة من فتاة طالبوه بأن يفرج عن زميلهم والا اضطروا لرفع الأمر الى حاكم الولاية وخاصـــة وأن شرطة المدنية لا تعلم عن ذلك شيئا ، وأمام ثورة زملاء سيد وخوفه من ثورة الطلاب ، استسلم العمدة وتركهم يقتحمون حجرة الحبس لاخراج سيد البكرى ٠

وداخل بار (ماريا) كان الاحتفال مهيبا وفخما بالعثور على رأس الشلة وحامى ديارها واخرجت ماريا أجود ما عندها من نبيذ وقالت ان الشراب اليوم على حساب ماريا ذاتها ، انضم الى الشلة آخرون ، كانوا يتشوقون لقفشات سيد ومرحه وخفة ظله وايضا انتهازا لفرصة الشرب على حساب صاحبة المحل !

وبينما كان سيد وسط شلته يضحك فى سعادة كانت كريستيل تبكى فى حجرتها بعد أن علمت بنبأ الافراج عن سيد ، وكان ســيد عندما خرج لم يأخذ معه الكتب والملابس ، لهذا جاء الحارس اليها واعطاها كل ما يخص سيد ، وعندما رأت تلك الأشياء زاد نحيبها ولكن أمها قالت :

ـ لن ينفع البكاء على اللبن المسكوب !

وقررت كريستيل ان تناضل من أجل رجلها ، نعم ســـيد هو رجلها ، ولن تتركه لهؤلاء ، لن تدعه يهدم نفسه ويضيع مستقبله ، اذا كان مصطفى السعدنى تحول من طالب فلسفة الى بائع ، فانها لن تسمح لسيد أن يفعل ما فعله قريبه ـ أليس مصطفى السعدنى من بلد سيد وهو الذى تزعم عصابة الشبان لاخراج سيد من الحبس ،

ويتصور انه قادر على التأثير على سيد ، ولكنها لن تدعه يخرب بيتها تقصد بيت سيد على اعتبار انها قررت أن تتزوج من سيد ، ولكن قبل ان تتزوجه يجب أن ينهى دراسته فى الجامعة ثم يصبح طبيبا فى احدى المستشفيات الهامة ٠٠ ولم تنم ليلها ٠

وفى الصباح ذهبت كريستيل الى منزل سيد ، كان نائما فى أول الردهة وكان مخمورا حملته والقته فى الحمام ، اندفع الماء الساخن حتى أحاط به من كل جانب تنبه سيد الى انه يكاد يغرق ، اعتدل وقد شعر بالماء الساخن يدغدغ حواسه ، بدأت كريستيل تزيل عنه ملابسه المبتلة ، حتى صار عاريا حولت الماء فى الحمام من ساخن الى بارد مرة واحدة ، انتفض سيد كعصفور بلله المطر فجأة صاح فى استغاثة ، لكن كريستيل زادت من اندفاع الماء البارد على جسده العارى ، صاح مستغيثا ، تركته فى الماء وذهبت لتحضر له ملابس نظيفة وبعد ساعة كان سيد يمشى معها نحو الجامعة ، هناك فى الجامعة علم سيد أن الامتحان النهائى له قرب موعده ، قابل استاذه ووعده بالاستعداد ، عرضت كريستيل على سيد أن يذهبا الى منزلها حتى يأخذ كتبه ويتغدى مع أمها ٠

كان سيد مطيعا وهادئا ، وخرج من منزل كريستيل وقد وعدها بعدم الخروج من داره حتى موعد الامتحان ، وسألها أن تحضر اليه لتعرف انه يفى بوعده ، وفى المساء كان سيد يبدأ سهرته مع شلة الأنس فى البار ، كان قد نسى وعده للأستاذ وأيضا نسى وعده لكريستيل ٠

فى اليلة التالية ، ذهبت كريستيل الى دار سيد وهى تحمل له طعاما خاصا ولكنها لم تجده ، اندفعت تبحث عنه فى كل ملاهى وبارات هايلدبرج ولكنهم كانوا يقولون لها انه انصرف منذ لحظات، فى كل بار أو ملهى كانت تسمع كريستيل نفس الاجابة ٠

وفى اليوم التالى وفى الايام التالية ، والليالى التالية أيضاً ـ لم تجد كريستيل سيد أصبح يزوغ منها ، ولم تجد كريستيل بدا من اللجوء الى العمدة ، وصارحته بحبها لسيد ورغبتها فى الزواج منه ، ولكن قبل الزواج يجب ان ينجح فى الامتحان النهائى ٠٠ وقرر العمدة معاونة الفتاة وايداعه الحبس ٠٠

واستطاع جند العمدة العثور على سيد مخمورا فى ملهى قذر ، احضروه الى العمدة الذى قرر حبسه بتهمة التخريب ، وسيق سيد وهو مخمور الى احدى غرف الحبس فى القلعة القديمة وهناك فى حجرة ضيقة ليس بها الا نافذة علوية صغيرة تكاد تسمح بضوء قليل وهواء أقل ، قضى سيد البكرى أياما طويلة ليس امامه الا استذكار دروسه ، ولم يكن يرى الا حارسه غليظ الشارب الذى يحضر له الطعام كل مساء ، ثم لا يطرق عليه أحد بعد ذلك باب هذا الحبس الانفرادى حتى حل موعد امتحانه النهائى وساعتها تحركت كريستيل وذهبت الى العمدة تسأل الافراج عن سيد ٠٠

(٧)

ذهبت رتيبة مباشرة الى الخواجة موريس قالت له دون موارية :

ـ هل تشترى محصول المنشية ؟

ابتسم موريس ونظر اليها وفهم انها شعرت بشىء من الاعيب بدوى ، وقال :

ـ وهل هناك مشتر غيرى ؟

قالت رتيبة :

ـ كل المحصول ؟

قال موريس على الفور ؟

ـ كل المحصول

قالت رتيبة :

ـ والنقود ؟

قال موريس :

ـ جاهزة من الآن

قالت رتيبة :

ـ وانا التى ستحدد السعر

قال موريس :

ـ وهو كذلك

خرجت رتيبة متجهة نحو شريكيها السرجانى والزيات وجلست اليهما ، وقالت :

ـ انا غير مستريحة لما يفعله بدوى البكرى فى المنشية

قال السرجانى :

ـ كل ما يهمنا أن نحمل المحصول كله بعيدا عن المنشية ٠

قالت رتيبة وقد غاظها ما قاله السرجانى :

ـ يا أعمى

انتفض السرجانى وقد أهانته المرأة ، قال الزيات معاتبا :

ـ ليس على هذا النحو يتكلم الشركاء

تنهدت رتيبة ، وقالت بدلال :

ـ اغاظنى جهله

نظر السرجانى نحوها ، وهو لا يزال شاعرا بالاهانة ، قال بسخرية واضحة :

ـ ونحن لعلمك منصتون

قالت رتيبة وهى تنظر الى عينيه :

ـ هل ذهبنا الى الجبل من أجل محصول واحد ؟

صمت السرجانى والزيات ، وان كان عقل كل منهما بدأ يعمل على طريقة التاجر الذى يتشمم رائحة الصفقة ٠

اكملت رتيبة :

ـ نحن ذهبنا الى الجبل ليصير ملكا لنا

قال السرجانى مبترما :

ـ كيف ؟ والعقود تقول ٠٠

قاطعة الزيات فى ضيق :

ـ انتظر ياسرجانى زيدينا ياست رتيبة حتى نفهم ٠٠

قالت رتيبة فى حسم :

- لاداعى الآن ، المهم يجب ان تفهما أن الجبل صار ملكا لنا ولن نتنازل عنه ، واسمعا ماسوف أقوله ونفذاه بالحرف الواحد ..

واستمع الرجلان بشغف ولهفة الى خطة الست رتيبة لكى يصبح الجبل ملكا لهم بالفعل .

(٨)

أسرع الخواجة موريس باستدعاء ناعسة ، قال لها :

- لن يقدر على رتيبة الا رتيبة مثلها

سألت ناعسة فى دلال الانثى الواثقة من نفسها :

- كيف ياخواجة ؟

قالت موريس ولا تزال ابتسامته تملأ وجهه :

- مكرا يمكر وخبثا يخبث

ثم همس اليها بما يساعدها فى محاربة رتيبة ، وصعدت ناعسة الى الجبل لتقابل بدوى بينما ذهب موريس الى محكمة البندر ليحصل بمعاونة حسنين العرضحالجى على احكام تنفيذية باستلام ما يخصه من أرض الجبل .

دخلت مبروكة دارها ، فوجدت سليمان راقدا متوسدا جلبابه القديم ، كان سرواله متهرئا من فوق الساقين فظهرت عظام ساقيه ، تسلل الحزن الى قلب مبروكة وهى ترى زوجها قد تحول الى مجرد عظام بارزه ، جلست بجواره كان مستيقظا ، قالت مبروكة :

ـ الصراع سوف يبدأ ياسليمان ٠

لم يظهر على سليمان انه فهم ، أو على الأقل تظاهر بذلك ٠٠

فاردفت مبروكة :

ـ بدوى استقبل ناعسة فى عز النهار فى داره وهما الآن جالسان يتشاوران فى خطة الخواجة ٠

نظر اليها سليمان وقال بلا مبالاة :

ـ وما دخلنا ٠٠ أريد ماء لأشرب

قالت مبروكة فى حسرة :

ـ ما ادخرناه ضاع من بين ايدينا والآن يضيع كل شىء من حولنا ٠

كانت تتكلم دون انتظار لمجيب أو مستمع ، لهذا واصلت الحديث :

ـ ناعسة وبدوى من جهة ، ورتيبة والشركة من جهة أخرى ، ونحن ياسليمان ماذا نحصد ؟

كل الحصاد لهم ونحن ماذا ناكل ، هل ناكــل الآلات التى احضرتها رتيبة ، هل ناكــل طوب الجبل ·· الفــول الناشــف نفذ ياسليمان لم يعد لدينا ما ناكله ياسليمان ، سنموت من الجــوع ياسليمان ··

وكان سليمان قد نام وهو فى موضعه بجوار زوجته التى كانت فى يوم من الايام جميلة ، وكانت فى يوم من الأيام ذات مال ، ولكن ضـــاع الجمال والمال ولم يعد هناك الا الشكوى ·

(١٠)

صرخ محمد حسن على صبيانه ، بعد ان اصبح له صــبيان يقومون على خدمة زبائن المقهى والمطعم :

ـ اسرعوا فقد حان موعد الغداء

وانشغل صبيان محمد حسن فى اعداد الطعام ، حتى ارتفعت عالية اصوات مواقد الطهى وارتطام الاوانى وكركرة الماء المغلى ، وفاحت رائحة البصل المحروق وجاء احمد السيد الى محمد حسن واخبره ان بكرى يريده على وجه السرعة،ولكن محمد حسن قال فى تكبر ·· ؟

ـ بعد الغداء

ظهرت علامات الدهشة على وجه احمد السيد ، فهذه اول مرة

يرد أحدهم على استدعاء الشيخ له على هذا النحو ، ووقف أمام محمد حسن ولم يتحرك ، ولكن الأخير لم يكرر جملته انما اختفى داخل كشك المقهى لكى يراقب عماله وهم يجهزون طعــام الغداء لعمال الشركة ، واضطر أحمد السيد الى العودة الى مندرة الشيخ بكرى واجما ، وجلس ولم يتكلم بشىء ..

الفصل التاسع

(١)

كان عدوى قد توارى عن العيون منذ ان حدث الصدام بين عمه عثمان وبكرى ابن عمه بخصوص الشركة ، واختفى فى دار عمه عثمان او فى داره عندما يكون والده بدوى غير موجود ، وفى الاوقات التى يخرج فيها كان يزور بيوت بعض الاهالى الذين جلسوا فى انتظار الفرج ، لم يكن لديهم غير القليل من الطعام والكثير من الحزن ، ولايملك عدوى لكل هؤلاء الا الصمت ٠٠ ولكنه عندما دخل دار عبد الله البيومى ، وهو ابن عم اخواله ، لاحظ ان الهم قد ازداد على وجوه القوم ، جلس وقال :

– الحصاد قادم ، لعل الله يجعل لنا فيه مخرجا ٠

لم يجبه احد ، ولم يكن عدوى يتوقع اجابة من احد ، فالكل

يعلم بموعد الحصاد ، ويعلم بما تقوله أوراق الشركة ، ولكن ما لم يستطيعوا التعبير عنه أو تفسيره ، انهم جميعا يشعرون أن الحصاد سوف يجيء ومعه المشاكل ، بل أن بعض النساء من العجائز صرح بذلك ، ولهذا توجس الناس شرا ولزم كل منهم داره ، وخاصـة هؤلاء الذين ابتعدوا عن العمال ، وعن المقاهى ، والمتاجر التى جاءت مع العمال ، هؤلاء اكثرية ، كانوا يقابلون أحداث المنشية بالصمت ، ينظرون الى بكرى وينظرون لعله يأمرهم بشىء ، حتى لو كان هذا الأمر هو اقتلاع العمال والآتهم وأدواتهم ، واعادة الجبل الى قديم حاله ولكن هيهات ، فان بكرى يضع كل همه فى الحصاد ، ويدافع عن الآلات والادوات والعمال ، ويقول ، اصبروا وها نحن صبرنا ، قال عدوى وكأنه كان يفكر مع كل الناس ، لو أن الناس جميعـا يفكرون بصوت واحد ، قال عبد الله البيومى ٠

ـ ألن تحضر اجتماع بكرى بالقوم اليوم بعد العشاء ؟

ـ باذن الله

كان عدوى يحب صديقه وابن عمه بكرى ، ويريد لمشروعه النجاح ، واذا كان هو شخصيا قد عارض المشروع ، فانه يتمنى نجاحه ، لهذا أدار بصره فى وجوه الرجال ، وقال فى تصميم :

ـ سنذهب جميعا بالطبع

قال محمد بن عبد الله البيومى

ـ لقد رفض محمد حسن الذهاب الى دار البكرى

قال شقيقه محمود ، والشهير بالحصان :

ـ محمد حسن لم يعد من سكان المنشية ، لم يعد له شـيخ ، شيخه الآن الكشرى ٠

ضحك شقيقهم الأصغر ، نظر عبد الله البيومى الى أولاده زاجرا ، قال سعد العويسى :

ـ أى والله .. لقد أصبحنا فى زمن الكشرى ، شيخنا لم يعد له كلمة والست رتيبة هى التى تتفق على أرضنا وبدوى يدبر أمرا يعلم الله اى شر هو .

امتقع لون عدوى عند ذكر اسم أبيه ، قال البيومى فى محاولة لارضاء عدوى .

ـ كل واحد معلق من عرقوبه

لكن سعد العويسى لم يسكت ، بل قال فى تأكيد :

ـ يقال أن بدوى اشترى من بعض الاهالى أرضا فى الجبل

سأل محمود البيومى ، الشهير بالحصان :

ـ سمعت هذا ، وان ناعسة التى يعاشرها فى الحرام هى التى أعطته المال

قال عبد الله البيومى ، فى غلظه لابنه :

ـ ياولدى لا تخرف

اقسم ابنة بأغلظ الايمان ، انه سمع هذا مذ اكثر من رجل ، بل سمع أن بدوى سوف يعلن هذا الأمر يوم الحصاد

أضاف سعد العويسى :

ـ ويومها سيحدث مالا يحمد عقباه

انتفض عدوى واقفا ، فى الحقيقة لم تكن هذه أول مرة التى يسمع فيها مثل هذا الكلام لقد سبق أن سمعه ، ولكن ليس بمثل هذا الوضـــــوح والمواجهة ، قرر أن يذهب الى ابيه ، وتحـرك

خطوة الا انه سمع صرخة حادة صادرة من داخل الدار، اندفع الجميع الى الداخل ، كانت الفتاة تتلوى من الالم وتـــرك تمســـك بها ، وعبد الصادق يحاول أن يسقيها بعض الدواء ، ولكن كانت سالمة فى حالة سيئة ، صاح عدوى فى غيظ :

– كفى

وكأن صيحة عدوى هى التى أوقفت الألم ، فقد كفت الفتاة عن الصراخ وكف الكل عن الحركة حتى أمها ، ونظر عبد الصـــادق وترك نحو عدوى ، الذى قال فى حسم

– سأذهب الى البندر وأحضر طبيبا .

ولم يسمع عدوى اعتراض الرجال وأولهم عبد الصادق فقد مضى مسرعا ، بينما نهر الأب زوجته وأمرها بحمل ابنتهـــا الى القاعة ، وبسرعة حملت ترك والأم الفتاة التى كفت عن الحــركة تماما ، ودفع محمد البيومى الرجال ليعودوا الى الجلوس فى المندرة التى كانت فى حالة سيئة ، بل تكاد جدرانها تسقط على من فيها ، وعاد الوجوم والصمت حتى خرج عبد الصادق ليعلن ان الفتاة بخير الآن ، وان على الجميع حضور اجتماع الشيخ بكرى ، وما كاد يقول هذا حتى اندفع الحصان محمود بن عبد الله البيومى نحوه فى غلظه :

– انت ياحكيم الغبراء ، انت تدعونا الى مجلس الشيخ !

نظر عبد الصادق نحوه فى دهشة ، قال :

– وماذا فى هذا ياولدى ؟

قال محمود بغيظ شديد

ـ الم تكن وراء ما يفعلـــه بدوى ، الم تكن وراء كل تلك المصائب ، الم تحرض سليمان على صديق عمره عثمان ، الم تحرض عثمان على بكرى ، انت صنعت بنا كل المصائب ··

انفعل والد محمود وضرب ابنه على وجهه ، قال محمود :

ـ اتضربنى من أجل هذا الغراب

اندفع العويسى مدافعا عن عبد الصادق ، الذى وقف يبكى فى تاثر ودفع العويسى محمود البيومى فى صدره ، كان محمود البيومى متألما من ضرب أبيه ، لم يتحمل ما فعله العويسى فأمســك به ورفعه بين يديه ثم قذف به على الأرض اندفع شقيقا العويسى وشجا راس محمود البيومى ، صرخ فى لوعة فى الوقت الذى اندفع فيه أولاده نحو اشقاء العويسى ، وكان على اقارب العويسى الدفاع عن اقاربهم وكذلك فعلت عائلات الخميسى ، وزيدان ، وميســـور عندما سمعوا بهجوم عائلات العويسى واقاربهم ·· وحتى صلاة العشاء لم تكن المعركة قد انهت بعد ، رغم تدخـــل بكرى ورجاله ولم تتوقف الا عندما صرخت ام سالمة ملتاعة معلنة موت سالمة ، وتدافع الكل نحو الأم المولولة فى محاولة لمواساتها ··

بينما كان عدوى يصعد الجبل ومعه طبيب تطوع أن يذهـب الى المنطقة النائية والتى سبق أن رفضت كل معونة ، وكان شابا من أسرة ريفية قد تعود على العمل فى حقل أبيه حتى حصل على شهادة الطب ، وأصبح طبيبا لمستشفى البندر لهذا وافق على ان يذهب الى المنشية سيرا على قدميه لكى يقدم المعاونة ·· ولكن ماذا يفعل امام مرضى لا يريدون الشفاء وشاء حظ الطبيب الشاب ، واسمه فكرى ان يصل بعد اعلان وفاة سالمة التى جاء من أجلها ، ولكنه لم يصدم، وقرر مقاومة المرض كما كان يفعل فى مقاومةالدودةعندماكانصغيرا ينساق مع اترابه لكى يكونوا جيشا لمحاربة هذا العدو اللدود ·

(٢)

كانت نبوية موسى أرملة لرجل مات منذ زمن طويل وتركها وفى رقبتها ثلاثة من الأولاد الصبيان ، كانوا صغارا عندما تركهم الأب ورحل ، وحاولت نبوية موسى ان تربى الصغار ، وسلكت من أجل ذلك كل السبل ، ولم يكن يأتيها الا نصيبها من بيـــع النباتات وتحصل عليه بنسبة أرضها فى الجبل ، أما زراعة الشعير فلم تكن لديها الخبرة ولا الجهد لكى تزرعه فتركت زراعة قطعــــة الأرض لرجل من أبناء عمومتها كان يعطيها نصف المحصول ويأخـــذ هو النصف ، وما كان هذا النصف يكفيها لطعام أولادها لهذا كانت تلجأ الى العمل فى بعض دور المنشية من أجل المزيد من الارغفة ، ونبوية موسى كانت على جانب كبير من الجمال ، وحاول الكثير من الرجال التقدم اليها بقصد الزواج ولكنها كانت ترفض ، وحــــاول البعض الآخر أن ينالها بغير زواج ولكنها امتنعت عليهم ، اشتهر أمرها فى المنشية ، واحترمها الجميع وقدم كل منهم ما يستطيع لكى يساعدها فى تربية أولادها ، حتى صاروا من زهرة شباب المنشية ٠٠ لم يكن الأمر بالنسبة لها سهلا ، فقد كابدت لوعة النفس الوحيدة ، وأحست بلهيب الانثى المهجورة ، وواجهت لسعات الكلمات المشتعلة فى أفواه الرجال ، وسمعت بأذنها الكثير من الاشاعات على الرغم من انهـــا اثبتت للكل انها محصنة ضد الغواية ، ولهذا عندما تحدثت معهـــا ناعسة وعرضت عليها مبلغا كبيرا من أجل التنازل عن قطعة الأرض ، سحرها المال ، ورأت فيه العزاء ، ووافقت ووقعت على الورق بعد أخذ رأى ابن عمها الذى كان يزرع الأرض قبل السيل ، وبالطبع أعطته ما يعوضه عن فقدانه الأرض وجاءتها مبروكة عارضة عليها أمر المشاركة فى التجارة ولكن نبوية لم تكن سهلة كما تصـــورت

مبروكة فما كاد يقومان بأول رحلة الى البندر ، حتى اعلنت نبوية فى صراحة وبدون مواربة :

ـ ستى مبروكة ٠٠ انا لست مستريحة لهذه المشاركة

حاولت مبروكة أن تقنعها بالعدول عن رأيها ، ولكن نبوية كان فعلها من دماغها فلم تتراجع عن قرارها بالانفصال ، وبعد عدة أيام اقنعها محمد حسن شريكها فى بيع الأرض ، وأن تفتتح دكانا لبيع السجاير والدخان والحلوى للاطفال واشياء أخرى يحتاجها العمال ، وذهب معها الى البندر وطافا معا على المحلات واشتريت نبوية كل مايلزم ، وكانا على موعد مع الاسطى دسوقى اسطى ماكينة الرى فأستضافهما على الغداء فى أحد المطاعم وهناك عرفت نبوية لأول مرة أن هناك أطعمه أخرى غير خبز الشعير ، وقررت أن تصنع بعضها للعمال ، وهكذا عادت نبوية موسى لكى تحقق أحلاما لم تكن تراها أبدا ٠٠ وهى اليوم تنظر الى أولادها الثلاثة وهم يعملون فى الدكان وفى المطعم ، وتجرى الفلوس بين أيديهم وتقول :

ـ لا أريد أكثر من هذا

وتضحك ترك وهى تدس قطعة حلوى فى فمها :

ـ لا ٠٠ هناك الكثير يانبوية ينتظرك

تنظر نبوية الى ترك السيدة العجوز التى تدخل كل بيت وعلى يديها يأتى الأولاد والبنات الى الدنيا ، وتعرف كل البنات الجميلات

ـ زواجهم عليك انت

وتدس نبويةفى يد ترك بعض النقود ، فلا تجد ترك بدا من القول :

ـ كل شىء نصيب

ونبوية وترك ، تفكران بطريقة واحدة ، لهذا فهما مختلفتان فى كل شىء ، وعندما قالت ترك جملتها الأخيرة ، كانت نبوية تفكر فى محاسن ابنة عبد الشافى البكرى ابن عم الشيخ بكرى ، وهو من كبار القوم فى المنشية ، لتكون زوجة لابنها الكبير ، وتضـــع مايسة بنت الست خديجة البكرى فى بالها كزوجة للأوسط اما الأصغر فهى تتمنى أن تزوجه من ميسورة بنت خــال محمود أبو الفوارس وهو المرشح للزواج من شقيقة الشيخ البكرى نفسه ، بينما نبويةتفكر على هذا النحو ، كان تفكير ترك فى طريق آخر ، ويدور حول مستقبل نبوية نفسه بعد الحصاد ، ماذا ستفعل يوم المواجهة يوم يعلن بدوى عن شرائه لأرضها ، ماذا تقول نبوية لاهلها ، كيف تبرر خيانتها ، لقد نجحت فى الحفاظ على شرف أمومتها لاولادها اليتامى ـ ولكن يبدو أن شرف الأرض التى تركها لها زوجها لم تستطع المحافظة عليه وكانت البحراية التى أمام دار البكرى تشهد حشدا من الرجال لم تشهده ، منذ حدوث السيل ٠٠

(٣)

عندما وصل فكرى الطبيب الريفى المقيم بمستشفى البندر الى المنشية بصحبة عدوى كان خبر وفاة سالمة قد انتشر وقابلهما الخبر عند أول صعودهما نظر فكرى الى عدوى وقال ٠

ـ أعود من حيث جئت

أمسك عدوى بذراعه وقال :

ـ أهلك يحتاجون اليك ٠٠ أهلك فى منشية البكرى ، واذا كانت سالمة ماتت فهناك من ينتظر الشفاء على يديك ٠

وواصلا الصعود فى اتجاه المنشية ، ثم الى دار عثمان البكرى

كانوا جميعا فى دار البكرية يناقشون أمر الشركة ولم يكن يجلس مع غزالة فى وحدتها ومرضها الا زينات بنت الجيران ، ودخـــل عدوى ليخبر غزالة بوصول الطبيب ، وأسرعت زينات لكى تستدعى خالتها ترك حتى تكون مع الطبيب خلال اجراء الكشف ٠

وسرى بين الحاضرين فى دار البكرى خبر وصول الطبيب الى دار عثمان بصحبة عدوى البكرى ، ورغم أهمية ما يتناقشون فيه الا أن حضور الطبيب أصبح هو القضية الاساسية فقد كان الحديث حتى الآن يدور حول توزيع الانصبة وفقا للكية كل أسرة ، ولكن الأهـــم الآن هو ما يحدث فى المنشية وحضور الطبيب الرجل الغريب ودخوله على فتاة يعد أمرا غاية فى الخطورة ، وبعد تحديا للتقاليد ،

هكذا قال سليمان ، أعقبه رجل آخر منددا بكل ما يفعله محمد حسن صاحب المقهى ، وعقب ثالث أدان أهل المنشية الذين سمحوا بكل هذا الفجور الذى تفشى فى الجبـــل ٠٠ وراحوا يتبـــادلون الاتهامات ، وانهال كل منهم على الآخر لوما ، وتباكى الكل على حال المنشية ، ولم ينجح بكرى فى انهاء كلام الناس ، ولم يصـــل الجميع الى قرار ٠

كان فكرى قد عرف مرض غزالة وبدأ فى علاجها ، وعلم من ترك أن الكثير من البنات والنساء فى المنشية مريضات بمثل مرض غزالة ، وانصرف فكرى على وعد بالحضور فى اليوم التالى ومعه ما يلزم ، ومضى به عدوى فى الشارع ، ولم يتركه الا بعد أن وصل الى الطريق المنحدر نحو البندر ٠

كان الناس ينظرون الى فكرى بغيظ شديد ، ولكن عدوى كان يحميه ، والجميع يعلم من هو عدوى البكرى ، فهو ابن عم الشيخ وهو الفارس الذى لا ينازعه أحد فى فروسيته الا ابن عمه بكرى ٠

ولما اطمأن عدوى على الطبيب ، ذهب من توه الى دار عمه عثمان الذى كان يجلس صامتا ، وسأل عدوى زينات عن حال غزالة أجابته بأنها تنام نوما هادئا ، وان رعشة جسدها قد كفت ، نظر عدوى الى عمه ولكن العم لم يعيره اهتماما وظل صامتا وذهب عدوى الى بكرى ، كان بكرى فى حالة نفسية سيئة ، فهو يشعر منذ ان جاء بالشركة الى المنشية وهو يعانى انقساما داخل نفسه وانقساما بين قومه جعله هذا اقل جرأة ، واقرب الى الضعف منه الى القوة ولا يزال يذكر استهانة محمد حسن القهوجى من دعوته ، ويذكر تحدى عمه بدوى الذى لم يحضر الاجتماع بعد صلاة العشاء، حتى صلاة العشاء قل الرجال الذين يلتزمون بها ، حزن بكرى لأن المنشية صارت على يده الى مثل تلك الحالة السيئة ، حاول ان يتعلل بالسيل وما فعله ، ولكن السيل لم يقتل سالمة ولم يجعل الأب يقتل ابنته دفاعا عن شرفه ، السيل لم يتسبب فى فساد الاخلاق يابكرى ، صاح سالم ، جده سالم الكبير كان يقف ماردا أمام عينيه : تركت الناس تسقط فى الفاحشة يابكرى ولم تمنعهم بما لك من سلطة ، رأيت الناس تنصرف عن الصلاة فى الجامع الكبير ولم تقم عليهم الحد ، رأيت الناس يتقاعسون عن العمل ويجلسون على المقاهى ويدخنون ويلعبون النرد وأنت صامت ، حبيس دارك ، انت السبب يابكرى فيما ذهب اليه قومك ٠٠ صاح بكرى مستغيثا : ما العمل ياجداه ؟! ماذا أصنع بعد ان أغرق السيل سلطتى فغرقت المنشية فى العار ٠

ـ السلام عليكم

وقف بكرى ، وقد شعر بالخوف لأول مرة ، كان جده سالم حيا أمامه ، كان ممسكا بعصا غليظة ، واقفا أمامه صحيحا يتنفس، قال بكرى فى تلعثم :

ـ وعليكم السلام

جلس عدوى ، نظر الى ارتباك ابن عمه ، احس انه خائف منه .. كان عدوى خائفا من لوم بكرى له على احضار الطبيب ، لهذا جاء اليه عمه يقنعه بالرضاء عن حضور الطبيب ولكن ما هذا ؟ بكرى يرتعد خوفا ، قال عدوى فى خشونه :

ـ ماذا بك ؟

قال بكرى :

ـ ماقصدت بقومى سوءا

قال عدوى

ـ وهذا الخلاف الذى دب بينهم

قال بكرى :

ـ آفة الغرباء

قال عدوى :

ـ ومن الذى احضر الغرباء ؟

قال بكرى مدافعا بحماس :

ـ السيل وندرة الرزق

قال عدوى :

ـ انت الذى احضرت الغرباء وجعلتهم شركاء لنا فى الأرض والمحصول !

بكرى بدا يصحو من غفلته ، وبدا يتبين ملامح ابن عمه عدوى ، الذى اتضح له الآن انه ، فقط يشبهه ، عاد الى رشـــده ٠٠ قال فى غلظه :

ـ لولا هذا ما كان هذا الزرع وما كان هذا المحصول الذى ينتظر حصاده الأسبوع القادم ٠٠

انفجر عدوى فى ضيق :

ـ بدونهم كان من الممكن انبات الزرع وحصاده

قال بكرى فى تهكم :

ـ خلال عام واحد !

قال عدوى :

ـ لاتهم المدة ٠٠ المهم اننا كنا سنفعل هذا بايدينا دون أن يموت الذين ماتوا ودون أن نفقد من اخلاقنا ما فقدناه :

قال بكرى فى استنكار :

ـ من اجل هذا جئتنى الليلة لائما

قال عدوى فى محاولة للترضية :

ـ بل جئت من أجلك ، الست ابن عمى قبل أن تكون شيخنا ٠ واكمل عدوى ، تحدث عن حبه لابن عمه بكرى ، وعن رغبته فى ان تكون المنشية على عهد بكرى أجمل وأحلى ، وقال فى نهاية حديثه :

ـ دع الطبيب يرى مرضى المنشية

قال بكرى فى حسم :

ـ لست معارضا فى ذلك

وحاول بكرى ان يستغل رغبة عدوى فى احضار الطبيب لابنة عمه ، لكى ينزع منه موافقة على مشروعه اليس الطبيب للمريض مثل المهندس للأرض ٠٠ لماذا اذن يرفض الشـــركة ويوافـق على احضار الطبيب ، وكان عدوى لايريد معارضة بكرى حتى لا يسحب موافقته على احضار الطبيب لهذا ظل صامتا وبكرى يتحدث ، ثم قام من عنده لكى يذيع موافقة الشيخ على احضار الطبيب ٠

فى الحق كان عدوى رافضا لكل الغرباء ، ولكن عندما انفعل بعد رؤيته الام سالمة ، واسرع الى البندر لاحضار الطبيب ، وفى الطريق الى المنشية تحدث عدوى الى الطبيب وتحدث الطبيب الى عدوى ، واندفع تيار من الحب الى قلب عدوى ، اكتشف ان ذلك الشاب النحيف الذى يفهم فى علاج المرض ، ابن عباس أبو حسين المزارع بكفر العنبة ، وانهم أيضا يعيشون على الزراعة وانهم أيضا يعتبرون خروج البنات سافرات عيبا كبيرا ، ويعتبرون أن من يجلس بينما من هو اكبر منه سنا يتحدث اليه آثما كبيرا ، وهكذا أمسـك عدوى ذراع فكرى الطبيب ابن عباس أبو حسين وتحدث معـه عن أهله ووعد فكرى بأنه سوف يشحذ همته من أجل أهل عدوى ٠

ولهذا جاء الطبيب فكرى بن عباس أبو حسين فى الصباح وقد جلب معه عربة كاملة بها الكثير من الادوية والمعدات الطبية وسائق لديه دراية بالتمريض ، بعد أن كتـب على نفســـه تعهدا بمسئوليته عن نفسه وعن السائق والســـيارة ٠٠ وكان مديـر ٠٠

المستشفى لديه فكرة سيئة عن سكان المنشية ، وبدأ فكــرى رحلة الانضمام الى عالم المنشية ·· هذا ماحدث لفكــرى بن عباس أبو حسين الطبيب الذى كان يحلم بالسفر الى المانيا لاستكمال تعليمه ، ولكن لا يعلم الغيب الا الله ··

(٤)

فى الصباح جاء العمدة وفتح حجرة الحبس بنفسه وقال لسيد البكرى :

- انت من اليوم حر

رفع سيد البكرى رأسه نحو العمدة ، وقال

- دون محاكمة ؟ !

ابتسم العمدة وقال :

- فيما بعد ·· الفتاة فى انتظارك

ووجد كريستيل تنتظر كان معها أمها وثلاثة من طلاب الكلية ، ركبوا جماعة السيارة ، اتجهوا إلى الجامعة ، كان سيد يفكر فى الامتحان ، كل امله الآن ان ينجح لقد تعلم درســا قاسيا داخــل الحبس ، بقدر ما نفعه الحبس فى مراجعة كل كتب الطب المقررة ، بقدر ما سحب منه ذلك الشموخ الذى كان يعتز به ، خرج سيد من الحبس بعد ان دخل الحبس الى صدره ، وأصبح محبوسا فى داخله ، لم يضحك كعادته ولم ينثر قفشاته كما تعودوا منه ، لزم الصمت ولم تعلق كريستيل على صمته ، معللة الأمر برهبة الامتحان ، ولكن

سيد لم يكن خائفا من الإمتحان ، إنه الآن اصبح واثقا من علمه ، وكلما تذكر إنه كان يهرب من مواجهة الامتحان يسخر من نفسه ، انما كان خائفا على نفسه التى انزوت مذعورة فى قاع جسده ·

ودخل الى هيئة الممتحنين ، سالوا ، اجاب ، حاوروه ، حاورهم قال استاذه فى سعادة :

ـ كنت واثقا انك ستجتاز الامتحان لو رغبت ··

كان احد اعضاء لجنة الامتحان يكره سيد البكرى ، وسيد يعلم هذا ، ويعلم انه يتمنى رسوبه ، ولكن لم يستطع هذا الاستاذ الا ان يؤثر على التقدير النهائى فقد بخل عليــه بدرجة عالية ، واعلـن استاذه نجاحه ··

فى نفس الوقت قامت كريستيل باعداد زجاجة الشـــمبانيا والاكواب ، ولهذا عندما خرج سيد البكرى ووجهه ينطق بسعادة الناجح ، رفعت سدادة الشمانيا وارتفع زبدها وفارت مياهها فى دوى شديد تضاحكت كريستيل وقد طالها رزاز الشمبانيا ، وشرب الجميع نخبا لنجاح الدكتور سيد البكرى ، وبلغ خبر نجاح البكرى كل بيت فى هايلدبرج ، جزنت الفتاة السمينة ، وقالت ماريا صاحبة اشهر بار لطلاب الجامعة ·

ـ ياخسارة فقدت هايلدبرج بنجاحه فارسها المغوار ·

وتحدث الطلاب والبنات ، وبائعات الورد ، وساقيات الحانات، وعجائز البارات عن الخسارة التى منيت بها هايلدبرج ، بنجـاح البكرى !

اما سيد فقد ذهب مع كريستيل وامها الى دارهما حيث كانت الأم قد أعدت طعاما للعشاء لعشرين رجلا وامرأة ، حضروا من قرى

متفرقة حول هايلدبرج ، كانوا جميعـــا من النازحيـن من المانيـا الشرقية ، تربطهم الغربة برباط الأمل فى العودة الى قراهم لهذا اسرعوا فى الحضور لمشاركة كريستيل وأمها فرحهما بنجاح الفتى الذى اختارته كريستيل ليكون شريك حياتها ··

واكل سيد على راحته ، وضحك على راحته وداعب النســاء والبنات ، وانطلق يرقص رقصة الجبل ممسكا بعصا طويلة متخذا منها سيفا ، وراح يتقافز فى رشاقة اثارت اعجاب اهل كريســتيل واندمج الجميع فى سعادة حتى اشرق نهار اليوم التالى ·· وعند ذلك همست كريستيل الى سيد :

– احبك

(٥)

عندما جاءت رتيبة ومعها عمال الحصاد ، كانت المنشية تشهد حدثا هاما يؤرخ له ، فقد استطاع الدكتور فكرى شفاء غزالة وكل البنات والنساء اللاتى كن صرعى المرض الذى لم يستطع حكيـــم المنشية علاجه ، وامكن لغزالة ان تذهب الى دار بكرى وتقول له فى تحد :

– لن يحصد حصادنا الغرباء

نظر اليها بكرى فى دهشة ، عادت تقول :

– رجالنا اولى الناس بجمع المحصول بالمنشية

واصرعت غزالة التى كانت تعانى من الهزال ، لكن هذا الهزال زاد من جمالها وجعل لها سحرا لايقاوم ، واحتار بكرى فيما هـو

صانع امام تحدى ابنة عمه ، فهو لا يقوى على ضـــربها وايضا لايستطيع تركها تتحدى سلطانه امام الناس وخاصـــة وأن بعض الرجال اقتربوا من غزالة وظهر على وجوههم الاقتناع برأيها ، وحسمت رتيبة الأمر قبل أن يستفحل وقالت :

ـ هذا رأى سليم ، رجال المنشية أولى بحصادهم

أمرت رتيبة من معها من الرجال بعدم الاشتراك فى الحصاد

ويومها قال الناس أن غزالة هى التى ســـتقودهم من أجـل استعادة أرضهم !

(٦)

استطاع فكرى أن يحقق لنفسه نجاحا علميا بالقضاء على الأمراض التى هاجمت أهل المنشية بعد السيل ، واقام لنفسه مركزا اجتماعيا بارزا بين الناس وأصبح من المألوف دخوله دور الاهالى وتطبيب الرجال والنســاء ، ولم يتعفف عن مشـــاركة الاهـــالى الطعام الجاف الذى كانوا يأكلونه ، وساعدته غزالة على اقتحام منازل لم يكن أصاحبها يريدون دخوله ، وعن طريق غزالة استطاع أن يعالج كثيرا من النساء اللاتى كن قد اوشكن على الموت ، ومع هذا كن يرفضن الرقاد امام رجل غريب ويفضلن المـــوت ، وأحبته غزالة ، هكذا وجدت نفسها تعشقه ٠٠ دون أن تشعر تسلل حبه الى قلبها ، نسيت سيد البكرى الغائب ولم تعد تتذكر بكرى ، تعلمت من فكرى الصبر والهـدوء وأيضا تعلمـــت منه كل فنون التمريض ، أصبحت على دراية باعطاء الحقن ، وتطهير الجـــروح ، وقياس الحرارة ، كانت النساء تسعد بوجودها وتسر بحضورها ويلجأن

اليها طالبات العلاج ، ومن تستحي منهن عرض نفسها على الطبيب كانت غزالة تقوم بوصف حالتها له ، ثم تعود لكى تعطيها الدواء ، وفكرى بين عمله وراحته لا يفكر إلا فى نجاحه العلمــي وشفاء الناس ، وفى كل مرة يهبط البندر كان يترك مسئولية علاج المرضى لغزالة ويظل يوصيها باتباع تعليماته حتى تحفظها عن ظهر قلب ثم يهبط الى البندر لكى يرسل رسالة الى امه ونقودا الى ابيه ، وفي المستشفى يتندرون عليه لأنه ترك البندر وعاش وحيدا في الجبل بين أنــاس لا يهتمون بالعلاج ، وكان فكرى لايرد على سخرية زملائـــه ، كل ما يهمه الحصول على اكبر قدر من الادوية والمهمات الطبية بسرعة لكى يعود الى المنشية ، حاملا بعض الهدايا لغزالة ٠

(٧)

رحل سيد البكري الي المستشفي الذي عين بـــه طبيبا تحت الاختبار كانت الجامعة تشرف على هذا المستشفى رغم بعده عن مقرها ، واختياره استاذه لهذا المستشفي حتى يضمن عدم عودته الي حياة هايلدبرج وكان المستشفى على قمة جبــل لا يحيط به الا عدة مساكن اغلبها للاطباء المقيمين والعاملين بها ، ولا يزيـد سكان القرية التي بها المستشفي عن مائة فرد من نساء ورجـــال يعملون بالزراعة وبعض الخدمات اللازمة للمستشفي واقام سيد في مساكن الاطباء ، وبدأ عمله تحت اشراف الدكتور رالف ، الذى كان لا يزيد عمره عن عمر سيد ، وكان مرحا وبشوشا تخصص فى امراض القلب حتى نال فيها اعلا الدرجات ، واستطاع ان يشق طريقه بذكائه وعلمه حتى اصبح استاذا ورئيسا لقسم الامراض القلبية بالمستشفى

التابع للجامعة ورحب رالف بشدة ترحيبا ازال عن سيد كل خوف وجعله من أول يوم بدأ فيه العمل يثق بنفسه واختاره رالف صديقا ، فلم يكن رالف متزوجا ولم يكن له اصدقاء ، وكانوا يتعاملون معه بحرص لشدة انشغاله بعمله ، لهذا شعر العاملون بالمستشفى بالدهشة عندما شاهدوه فى مطعم المستشفى ياكل وبصحبته سيد الطبيب حديث التخرج ، ولكن بعد ذلك أصبح من المألوف وجود سيد فى مصاحبة رالف سواء فى العيادة الخارجية أو فى اثناء العمليات ، وأيضا خلال تناول طعام الغداء والعشاء واكتسب سيد سريعا خبرات كثيرة من رالف ولكن رالف لاحظ بعض الشرود على صديقه سيد ، وسأله ذات ليلة وهما فى مكتب رالف خلال استراحة بين عمليتين كبيرتين !

ـ أهو الحب أم الغربة

ابتسم سيد وقال :

ـ لم أعد غريبا ٠٠ فلا أكاد اذكر اهلى

قال رالف :

ـ اذن هو الحب

صمت سيد ولم يجب ، نادت الممرضة عليهما لدخول حجرة العمليات ذاهبا رالف كعادته وقف يصلى ، بينما وقف سيد يفكر فى أمر الحب ، أيحب كريستيل حقا ، هذه الفتاة التى حبسته حتى يذاكر ، ايحبها أم يكرهها لقد افاده الحبس ونجح فى الامتحان النهائى ، ولكن الحبس أيضا افسد نفسه ، كريستيل لا تحبه ، انما تريد الحصول عليه لأجل نفسها ، والا بما يفسر ذلك الحفل الكبير

الذى اقامته فى بيت امها ، ليلة نجاحه ودعت اليه اهل قريتها ، انها لم تحبسه الا من اجل ان ينجح لها وان يعمل طبيبا وان تتزوجه وهو ايحبها لانها ظلت ساهرة عليه وعلى طعامه وشرابه وملبسه طوال هذه المدة حتى حصل على شهادته ، ام يكرهها لانها قررت الزواج منه دون استشارته ، هل وقع فريسة لطالبة قروية ام ان حظه الحسن هو الذى اوقعه واوقعها فى طريقه حتى يعتدل الطريق ويستقيم ، ثم كيف يتزوجها وهى ليست على دينه ، دينه ‥ وما هو دينه ، إنه يشرب الخمر ويصاحب النساء ولايصلى ولا يصوم ، ادينه مجرد الاسم الذى ينطقه او يكتبه حتى يعافى من ضريبة الكنيسة انه لم يعد يذكر من تعاليم دينه شيئا ، دين قومه ، هؤلاء الناس الذين ارسلوه الى الاسكندرية لكى يتعلم ويدرس هذا الدين ويعود اليهم عالما ، وربما لا يزالون فى انتظاره حتى الآن هل يعود اليهم ام يظل هنا الى الأبد ، انه يحمل جنسية المانية سليمة نالها بحكم تبنى بوتنر له ، وورث عن بوتنر منزلا وبعض الممتلكات الصغيرة ، يسدد عنها الضرائب ويدفع عنها رسوم الملكية كل عام ، فهل يتـــرك كل هذا ويعود ، يعود الى أين ؟ ، هل لا يزال قومه يسكنون الجبل كمــــا تركهم ، صاح رالف محذرا :

– بكرى !

انتبه سيد الى ما فى يده كان يضع قطعة كبيرة من القطن فى صدر المريض نسى كل تلك الافكار ولم يعد يفكر الا فى هذا القلب الذى يجب أن يحافظ على نبضه ، بينما يقوم رالف بشق شريان صغير اراد ان يخنق شريانا اكبر ‥ وقرر ســيد البكرى الزواج من كريستيل ‥

اصبحت غزالة قادرة على الحركة كما كانت قبل المرض ، واصبحت قادرة على معاونة الطبيب الذى انكب على عمله ملتمسا رضاء ربه وضميره متذكرا اخته التى ماتت نتيجة ضربة شـــمس اصابتها وهى تعمل فى حقل الوسية ، حيث أجبروها على مواصلة العمل تحت لهيب الشمس ، وعندما عادت فى المساء ، كانت الحمى قد تملكتها ، ورقدت ولم تقم ، فلم يكن فى قريتهم من يعرف كيف يشفى الفتاة ، وفشل حلاق الصحة فى علاجها وماتت ، وان كان القول بانها انحدرت نحو الموت انحدارا هو الانسب ، وكان الفتى فكرى لايزال فى مدرسة البندر يدرس (كم للدجاجة من أرجل) فلم يكن يعى الحكمة التى تساعده على فهم سر وفاة شقيقته الكبرى ، التى احبها اجمل مايكون الحب ، كانت تحمله فى رواحها وغدوهـــا ، وكانت تشوى له البطاطا واحيانا تحضر له الحلوى ، تشتريها لــه وهى عائدة من السوق،واحضرت له ذات مرة ساقية من صفيحتدور وتدور ، وفرح بها كل الفرح فقد كانت تدور مثل الساقية التى على راس حقل عم ابراهيم ، وكان يتيه بها أمام اقرانه من أطفال الحارة ، ماتت الطيبة الحلوة ، وبقيت الشمس تقرص غيرها ، لهذا عزم على مواصلة الدراسة حتى يدخل كلية الطب وهناك فى الكلية لم يكف عن الدراسة ولم يترك صغيرة الا وسأل عنها ، احبه الاساتذة وأولوه عنايتهم ، عندما انتهى من امتحانه النهائى ، نصحه بعضهم بـأن يواصل العمل بالكلية ــ ولكنه كان يطمع فى انقاذ البنات من لدغة الشمس ، ولهذا آثر أن يعمل فى مستشفى البندر ، وكان هذا البندر بعيدا عن الكلية بعيدا عن العاصمة ومع هذا اختاره فكرى لكـى يحقق حلم أخته المتوفاة ، وجاء الى البندر ، عندما سمع حاجـــة

المنشية الى طبيب ، وسمع انهم هناك يعيشون على الجبل ، وانهم لا يتعاملون مع الاغراب، اندفع بحماس شديد يناشد مدير المستشفى كي يرسله الى هنــاك ، وهنا في منشــية البكرى وجد من تذكره باخته الجميلة ، وجد غزالة ٠٠

قالت له :

ـ لا تتدخل في أمر الحصاد

قال فكرى في تردد :

ولكن ٠٠

نظرت اليه في ود وقالت :

ـ المنشية ليست قريتك ، المنشية يسودها فكرها الخاص ٠

حاول أن يشرح لها وجهه نظره ، ولكن غزالــة كانت ادرى بحال قومها اكثر منه وكانت تحبة ولا تريد له أن يزج بنفسه في امور من الممكن ان تؤدى الى طرده ، غزالة كانت تعلم ان الصدام لابد أن يقع ، حدثها أبوها عثمان عن اصل البكرية ، اعادت القصة على استماع فكرى :

كانوا يعيشون على جبل آخر غير هذا الجبل ، جبل يقع وسط حقول زراعية وكانوا قبيلة صغيرة ، يعيشون وفق نظام خاص ، سعداء غاية السعادة حتى كان وقت مشيخة شيخهم حمدان البكرى ، وكان شاباً وسيماً جميل الطلعة عليه بهاء احبته اميرة من اميرات الخواجات ، وجاءت تسأله الود ، ولما كان حمدان البكرى مخلصاً لقومه ، فقد رفض ذلك من الأميرة واراد ان يعلمها الحكمة ، ولكنها لم تتعلم ، جاءت اليه بخيل كثير ورجال ، وانتصر حمدان البكرى ، وظل ينتصر حتى جاءت له بما لا قبل له به من ادوات حرب لــم

يشهدها جبل البكرية ، وافنت ادوات الحرب الرجـــال والنســـاء والاطفال وقتلت حمدان البكرى ، ولما علمت الأميرة بذلك ذهبت الى ساحة القتال وبحثت عنه حتى وجدته مقتولا وارتمت على جســده المقتول وماتت معه ·

« يقول ابى ، ولم ينجو من القتل الا نفر قليل ، ترك الجبـل واتجه جنوبا حتى جاء الى هنا ، وعاش فوق هذا الجبل البعيد عن كل الناس ، وعلى مـــدى ســنوات طويلة ، كبرت منشية البكرى فى ظل تعاليم حمدان البكرى وبعزيمة سيدى سالم البكـــرى حتى عادت الآلات والادوات مر اخرى ، وان كانت اليوم لاتطلق البارود ولا القنابل ، ولكن لها نفس المفعول ·

وصمت فكرى وهو يسمع حكاية منشية البكرى ، كان يريد أن يقول أن الآلات ليست أدوات فناء وان بكرى على حق ولكن غزالة كانت تريده أن يكون بعيدا عن الصراع · ·

فهل سيظل فكرى الذى شهد موت أخته الكبرى فريسة لجبروت الوسية ساكتا ولا يتدخل ··

الفصل العــاشر

(١)

سافر سيد البكرى الى هايلدبــرج وهناك اتـــم خطبته على كريستيل واقامت امها حفلة صغيرة دعت اليها نفس النفر القليل من اهلها المهاجرين من المانيا الشرقية ، ولم يشأ سيد أن يذهـــب الى أصدقائه ، واكتفى بان أرسل لهم مجموعة من زجاجات الشمبانيا وقال العمدة الذى حضر الحفل انه قام بحبس سيد البكرى مخالفا كل القوانين محبة فى كريستيل ، وباليته ما تحدث ، لأن سيد عرف من التى كانت وراء حبسه هذا ، الذى كرهه ، واهاجت ذكرى الحبس اشجان سيد وجعلته لايحس بطعم الفرح الذى كان يوده وينتظره ولم يكتف العمدة فى خطبته البليغة ، بعد ان شرب زجاجة بأكملها من نبيذ هضبة هايلدبرج ، بما قاله عن حبس سيد بل راح يصـف سيد بأنه مثل الكبش البرى الذى يحتـــاج الى راعى مدرب ، وأن

كريستيل هى ذلك الراعى المدرب ، وبالغ فى صفات سيد ، بالغ فى كل شيء فى رعونته وكرمه وفروسيته وغبائه ، وعفويته ، حتى كاد الحاضرون يعتقدون أن سيد هذا جاء اليهم من غابة للانســـان الفطرى الذى لا يزال على سجيته من التوحش ، ورغـــم الرقص والغناء والطعام ، الا أن سيد البكرى لم يكن سعيدا على الاطلاق، وكان يود الانطلاق نحو المدينة ، ودخول بار ماريا والجلوس بين شلة الاصدقاء القدامى ، ولكنه قاوم هذا الهاجس ، وفيما يبدو أن كريستيل قد أحست بهواجس سيد فرابطت بجواره ممسكه بيده تارة وبذراعه تارة أخرى ، وعندما تلمح الرغبة فى الهرب تلمع فى عينيه تحيطه بذراعيها ، والحق أنها قوية ، لها ساعدان تعودا على حمل حطب الجبل ، وجسدها تربى على مغالبة طقس الجبل المتقلب ، لهذا كان سيد يشعر اذا هى أحاطته بذراعيها انه لافكاك منهما ، وأن عليه أن يتظاهر بالاستسلام حتى لاتلحظ هى مدى ضعفه بالنسبة لقوتها ، ولم يحاول اعتراضها مطلقا طوال الحفل ، وان لم يفتح فمه طوال الليل وفى الصباح ، قال لها :

– سنسافر الى بون

اظهرت دهشتها ، وسالته فى جد :

– لماذا ، انت تسافر الى عملك حتى انتهـــى من امتحانى الأخير وانضم اليك هناك ٠

سالها فى لطف :

– والزواج ؟

قالت فى برود :

– لقد تزوجنا بالفعل ، وسوف نذهب غدا الى المسجل المدنى

لتسجيله قال فى جدية وبدون مواريه ، بطريقة اقرب الى اصـــدار الأوامر :

ـ سنذهب الى بون لكى اتزوجك فى سفارة بلدى وعلى سنة الله ورسوله ٠

لم تنطق ، اومأت براسها فى ايجاب ، قال وقد أحس انه الآن صاحب الأمر والنهى وربما لن تواتيه هذه الفرصة مرة أخرى ٠

ـ انا مسلم ، وانا مصرى ، وسيكون أولادى منك على دينى وعلى جنسيتى أم انك لا تعلمين كل هذا ؟

قالت فى استعطاف :

ـ بل كنت اعلم ٠٠ وارجوك لا تغضب ، افعل مايحلو لك ٠٠ واعلم اننى ما تزوجتك الا لأنك متمسك بدينك وقومك ٠٠ وان كنت لا اخفى عليك انك لا ٠٠

زجـرها بعينــه ، كان يعلـــم ما ســـوف تقولــه ، هـــو بالفعل لا يكاد يفعل شيئا يدل على دينه ، لولا الايمان الذى فى قلبه والذى لم يتزعزع بوجود الله ، لأن الدين عند الله الاسلام ٠٠ ولكن أليس الايمان هو ما رسخ فى القلب وصدقه العمل ، لماذا لم يعمل بايمانه ، بما يصدقه بعقله وقلبه ؟

قالت فى تودد حقيقى :

ـ اسفة ٠٠ لم اقصد ، ان كنت اتمنى أن تكون قويا فى دينك انت قوى فى الحياة ٠

اســـعدته كلماتهـــا ، تفتـــح قلبــه نحوهـــا ، اخـــذ يشرح لها تعاليم الاسلام ، اخذ يحدثها بما ظل فى وجدانه وعقله من معارف الاسلام ، كان صغيرا عندما حملوه الى المدينة وهناك لم يجد من يعلمه كل شىء ، اسلامه لم يبق فى قلبه ولا فى عقله

الا ما تعلمه من عمه عثمان وعمه سليمان ، سورتان من القرآن فقط ، وثلاثة أحاديث عن الرسول الكريم ، ثم لاشىء ســـوى أن الصلاة لها قواعد وركعات وان رمضان يصوم فيه النـــاس كان صغيرا عندما عرف أستاذه بوتنر ، الذى لم يحدثه فى شئون الدين ، كان بوتنر لا دينيا ، وكانت كريستيل كذلك ، تقول بصراحة :

– أنا لم أعد أؤمن بالكنيسة فى أوروبا ، فى الجامعة نهتف بسقوط الدين ، ولكن لم أقم بدراسة جيدة حول هذا الأمر لهذا أعتقد اننى مؤمنة بقلبى بوجود الله ٠

وسافر الى بون ، وهناك تزوجا على سنة الله ورسوله وأقامت لهما الجالية المصرية حفلا كبيرا حضره كل العرب فى منطقة بون وما حولها ، وكان هذا ما يتمناه سيد البكرى ، وأسعد زوجته طبيبة الاسنان سعادة كبيرة ، جعلتها تشعر بأنها تنتمى الى هؤلاء الناس ٠٠ لهذا قالت لسيد ، عندما اتجها الى المستشفى التى يعمل بهـــا سيد بعد انتهاء اجازتهما ، فى حماس :

– أريد أن أسافر الى مصر ٠

(٢)

قامت غزالة ودارت فى شـــوارع المنشية تحدث النـــاس ، وتحدثوا اليها ، كان الناس قد تعودوا على الحياة فى دورهم وهى مهدمة ، حوائط متساقطة وأبواب منزوعة ، والحوائط القائمة تكاد تقع ، ولكن هناك دوما فى كل دار مكانا ظل متماسكا الى حد ما ، وفى هذا المكان أقام سكان الدار ، وضعوا مابقى لهم من الأثاث

وطعام ، واخلوا بجواره مكانا للنوم ، وكان عيون النـــاس الفت ما تراه كل يوم من تهدم وتساقط فلم يتحركوا لاصلاحه ، وازداد تساقط الحوائط يوما بعد يوم ، وتهدل التراب حتى صار جزءا من البيئة ، يلعب الاطفال عليه ، وتجلس النساء بجوارهم يتسلين بالنظر الى الاطفال والحديث حول البنات اللائى انعوج سلوكهن واصبحن «تغامزن لعمال المكن ٠٠

ومر عام والناس على هذه الحال ، قلة من الدور فقط هى التى شهدت اصلاحا لأن اصحابها هم الناس الذين حصلوا على المال ــ اما بالتجارة مع عمال المكن أو بيع انصبتهم من الأرض ، وكانت غزالة تحكى للناس عن الاجداد ، وهؤلاء الذين سـكنوا الجبـــل الاصفر ، واقاموا عليه دورا لم تستطع العسكر هدمها الا بصعوبة بالغة ، وكانت رياح الرمال تعجز عنها ، وتحدثت غزالة عن الجـد الكبير حمدان البكرى ، وعن سالم البكرى ، وعن عبد الله بن عيسى البكرى ، الرجل الذى كان يبنى دور المنشية بالحجارة التى يقطعها من الجبال واقام لهم منشية البكرى ، وتحدثت غزالة عن رجال سمعت حكاياتهم من ابيها عثمان ، كانو يرفضون الذل والخضوع ، وكانوا يصنعون طعامهم بأيديهم ، وصنعوا السكاكين من عضم البقر ٠٠ والسيوف من عظام الجمال ، وأوانى من الحجر والصوان ، بل ومرايا من الاحجار كما صنعوا آلات الغناء ، والملابس ، والزيوت والعطور والادوية ، وعرفوا النجوم والقمر ومنازل الشـــمس ، ومواعيد الصلاة ، ومواسم هطول المطر ، كانوا يقيمون الموازين والمكاييل والمقاييس ، وبنوا الجامع الكبير ليسع كل أهل المنشية فى صلاة واحدة وصنعوا منبر الخطبة من عيدان الغاب البرى ، كمـا تفننوا فى تجميل البنات والنساء ولم ينسوا حفظ القرآن ولا تعلم

التفسير ولا علوم الفقة ودراسة المذاهب وكانت لهم الفتوى وحقها ، وكانت لهم العزة ووجاهتها ، كانوا أجداد الاباء نحن منهم ٠٠ قالت غزالة كل ذلك والكثر ، كانت تتفصد من العرق ، ويجف لسانها ، ومع هذا كانت تتكلم معهم ، وكان الناس ينصتون ، واذا كفت يسالون المزيد ، كانوا يسمعون ٠٠ ولكن لا يفعلون ، فاذا انطلقت غزالـــة شيعوها بالحسرة عليها وعلى شبابها الذى يزوى ٠

وحدثها فكرى بالكف عن القول ، ولكن غزالة كانت تؤمن بما تفعل فلم تكف ، كانت تامل ان يصحوا الناس ، أن يروا عيوبهـم وتساقط دورهم ، واختارت غزالة وقتا غير مناسب ، لأن الناس تفكر فى الحصاد وما سوف يأتيه الحصاد ٠

(٣)

اختار بكرى مجموعة من الرجال ، الذين يتسم فيهم رجاحة العقل وحسن التدبير لحضور الاجتماع الذى سيعقد فى دار البكري، وكان من بينهم عمه عثمان وابن عمه عدوى ، وعشرة من كل أسرة من الأسر الأربعة التي تسيطر على المنشية ، وكان الاجتماع لحسم الشجار الذى بدأ فى دار اخواله ، وكان الحاج نوفل على استعداد للتصالح وأيضا عائلات الكرداسة وبهتيم وصفط ، ولهذا قال بكرى فى حسم :

ــ لما كان الأمر قد حدث دون تروى ، فان عاقبته تقع على الجميع ، وعلى الجميع سماع القول بأننا سوف نعاقب العائلات

جميعها بحرمان كل منها من كيل من المحصول تذهـــب فى تجديد الجامع الكبير ··

واستراح الكل فان خصم كيل من كل أسرة لا يساوى شيئا ، كما أنه سوف يذهب الى بيت الله ، فكأنه لم يضع هدرا ··

وانتقل بكرى بسرعة الى الموضوع الآخر وهو قسمة المحصول على الأسر جميعها ونسبة ذلك ، وتحدث عثمان عم بكرى فقال :

ـ ياشيخنا هذا أمر معروف ، فاذا كان الزرع كله يفى ماعلينا من دين للشركة ويفيض فان ذلك الفائض يوزع كما كانت توزع ثمن النباتات الجبلية ··

وصمت الشيخ عثمان ، ولكن ما قال أحدث دويا هادرا فى الصدور فقد ذكر موضوع الدين ، وهل يكفى أم لا يكفى ، ·· تلك قضية لم تكن فى الحسبان ، وكيف يعلمون ، وما هى الطريقـــة وقال بكرى :

ـ الورق موجود والدين معروف ، فاتفاقنا مع الشـــركة يقضى ··

قاطعه عدوى فى قلة حياء :

ـ ياشيخنا ماهو مكتوب معروف للجميع ، ولكن ماهو غير معروف هو كم الدين ؟

استاء بكرى من مقاطعة عدوى ، فقال فى تمهل :

ـ أردت اليوم فقط أن نتفق على النسبة ، فاذا كنتم توافقون على تطبيق ما سبق الاتفاق عليه فى توزيع انصـــبه ثمن النباتات الجبلية ، فان موعدنا بعد أسبوع ليعرف كل منكم انصبته ··

صمت الكل ، وحاول عبد الصادق وسليمان الكـــلام ولكـن بكرى كان شديد التأثر بمقاطعة عدوى له ، فرفع يده علامة انهاء المجلس فقام الناس من عنده وهم فى غم عظيم ٠٠

(٤)

ذهبت رتيبة الى السرجانى والزيات شريكيها فى شراكة منشية البكرى ، وجلست اليهم ، وقالت :

ـ فى الغد تكون المواجهة

قال السرجانى فى تخابث :

ـ ولم المواجهة ، وها هو دفتر الحسابات مرصـــود به كل شىء

أكمل الزيات :

ـ وقد راجعت الدفتر بنفسى ، ووجدت أن كاتب الحسابات قد سجل كل شىء بأمانة ٠

قالت رتيبة :

ـ المواجهة لن تكون مع بكرى ، ولن تكون بسبب الحسابات ، المواجهة ستكون مع بدوى ٠

قال الزيات فى دهشة :

ـ بدوى لا يملك أرضا فى المنشية بحكم استبعاده من سنوات

قالت رتيبة ، وهى تبتسم فى تهكم :

ـ اعلم انكما من الاغبياء ، احيانا الوم نفسى على مشاركتكما فى هذا ٠

قال السرجانى فى غضب :

ـ رتيبة ، نحن اكبر من هذا التهكم الذى لايليق بنا ٠

قال الزيات :

ـ تركنا لك كل شىء من أول الأمر ، فلم الاهانة ؟

قالت رتيبة :

ـ لأنكم لا تعلمون ما يدور هناك فى المنشية ٠٠ وهنــا فى البندر ٠

قال السرجانى ، وهو يحتمى بشيخوخته ، حتى لا يثور عليها :

ـ زيدينى علما ياست الستات

قالت رتيبة :

ـ اسرف موريس فى وعوده لبدوى وناعسة ، وجعلهمــا يشتريان له ارضا فى المنشية ٠

اوقع الخبر صدمة عنيفة بالرجلين الشيخين ، ولزما الصمت لم يستطيعا البوح بمكنون مخاوفهما حتى لا تستثمر رتيبــة هذا الخوف لصالحها ، واضطرت رتيبة الى أن تقطع الصمت وتقول :

ـ اعرفتما لماذا ستكون المواجهة مع بدوى ؟

قال السرجانى فى هدوء :

ـ لا دخل لنا ، هناك عقود بيننا وبين بكرى الذى يمثل منشية البكرى ولاعلاقة لنا بغيره ··

قال الزيات :

ـ ثم اننا لايهمنا الا الحصول على حقنا

رتيبة ، كظمت غيظها ، وقالت :

ـ اذن نصعد الجبل فى الغد ـ وتصرفا انتما ، انا لا اريد الا حقى ·

قال السرجانى فى محاولة لكسب ودها :

ـ وهل نحن لنا كلمة بعد كلمتك انت

وزادها السرجانى تملقا بأن تحدث عن شخصيتها القويـــة وحسن تدبيرها لأمور التجارة ، وتحدث عن اتساع تجارتها التى ورثتها عن ابيها ·· مجرد معصرة للزيت ، وهى الآن تملك معاصر زيوت ومخازن وأحواشا وبيوتا وأموالا وجيشا من العمال يخدمها ، ولمس لمسا خفيفا عدم زواجها حتى الآن ، وألح فى ذكاء الى رغبته فى زواجها ، واختتم حديثه بأن الزمها التصرف فى الغد ، والافضل اعطاء صديقهم ضابط البندر خيرا حتى يكون على اهبة الاستعداد لمعاونتهم ، وبالفعل تم تكليف الزيات بالمرور على الضابط ، وعلى أن يحمل هدايا معقولة اليه باسمهم ··

وتحركت شهوة رتيبة لقضم ارض منشية البكرى

قالت ناعسة للخواجة موريس ، وقد وضعت كل دلالهـــا وجمالها فى كلامها :

ـ فى الغد تحصل أنت على كل شىء وأنا أعود الى خيمتى اصنع الشاى لمطاريد الجبل ٠

ابتسم موريس ابتسامة واسعة ، ولمع فى عينيه حب البنات ، وقال :

ـ بل تعودين الى دار كبيرة بها خدم وحشم

صدته ناعسة فى دلال اكثر وقالت :

ـ مايلزمنى قليل ، وما احتاج اليه لاعيش مستورة أقـــل القليل

قال موريس فى نعومة :

ـ تعيشين معى فى دارى معززة مكرمة

قالت فى حسم :

ـ بل تكون لى دار ودوارة واختار انا الجارة

وفهم موريس فلم يزد ، وقال منهيا الحديث :

ـ لك ماتطلبين ، على ان ينتهى كل هذا الى خير

قالت ناعسة :

ـ دع الأمر لى ٠٠ انا وبدوى متفقان ٠٠

أنهى الامام صلاة الفجر بسرعة – انطلق الناس خلف بكرى نحو الساحة خارج المنشية ووقفوا خلفه ، جاءت رتيبة وخلفها الزيات والسرجانى وأربعة من رجال الشركة ..

قال بكرى

– أولا نبيع المحصول

قالت رتيبة فى مبادرة ود :

– ونحن نشترى

قال بكرى :

– على أن يزيد السعر عن العام الماضى بمقدار الربع

قالت رتيبة فى محاولتها لكسب ود الناس :

– ولو أن هذا مجحف بنا ، الا اننا قبلناه

تلفت بكرى نحو الناس ، وشعر انه انتصر فى الجولة الاولى ، وبرقت عيون الناس بالبهجة وتلمظ بعضهم وقد حسبوا انهم صاروا من الاثرياء ، وقال بكرى مواصلا الهجوم :

– دعونا نسمع مقدار نقودكم

اشارت رتيبة الى أحد الكتبة فأخرج دفترا كبيرا ، وراح يقرأ فى رتابة مجموعة من الارقام عن الموازين والمكاييل والناس فىسعادة لما يسمعون ، فالارقام تفوق بكثير السنوات الماضية ، وانتقل الكاتب الى حساب الاثمان والاسعار وفقا لما حدده بكرى ذاكرا الارقـــام

القديمة حسب السعر القديم ، مصححا الارقام وفقا للسعر الجديد ، وصار الناس فى بحر من البهجة ، واخذ الكاتب يتلو الارقام فى رتابة ، هكذا صار الايراد هكذا ارتفعت الارقام وتعددت وتنوعت وفقد الناس الاهتمام بمتابعتها ، حتى انتقل الى المصروفات ولكن الناس كانوا فى بهجتهم نائمون لهذا لم يدركوا هول مايقوله الكاتب الا عندما صاح بكرى فى غضب :

ـ هذه أرقام كبيرة

اشارت رتيبة الى الكاتب الذى توقف ، سالت رتيبة بكرى فى هدوء :

ـ اذن خذ انت وراجع ماتريد

اشار بكرى الى سليمان وعبد الصادق ، تقدما الى الدفاتر فى حماس وأخذا يقلبان فيها ، وبعد زمن ، بان عليهما ، انهما عاجزان عن فهم تلك الالغاز ـ أحس بكرى انهم سقطوا فى هوة لايعرفون مداها ، قال بحسم :

ـ هذه المصروفات كثيرة

قال السرجانى :

ـ ونحن على استعداد لمراجعتها معكم

قال الزيات :

ـ يمكن الاستعانة بخبراء فى هذه العمليات

قفزت الكلمة أمام رأس بكرى ، خبراء ، العملية اذن ليست كما كان يتصور ،

قال فى ذكاء مشيرا الى الكاتب

ـ اقرأ الرقم النهائى للمصروفات

قرأ الكاتب وذكر الرقم ، صاح بكرى فى أمر :

ـ احذف منه ربعه

احتجت رتيبة ، بان الغضب على وجه الزيات ، ذكر السرجانى العدل والحق ، وقال كلاما حول الذمة والضمير والاخلاق ، وكرر كثيرا أن الاوراق لا تخطىء ، وان من يتولى تسجيل الأرقام هـم اناس على الحياد ، والحسابات هى حرفتهم ، وهم على ديـن وخلق ، فكيف يصل الأمر الى هذا الحد ٠

اصر بكرى على ما طلب ، أيده الناس بما ظهر عليهـم من ترقب ٠

أحست رتيبة ومن معها انهما أمام مطلب يجب تنفيذه ، وأن المعركة بدأت قبل الآوان ٠

فقالت :

ـ اذا اردتم الاحتكام الى المحكمة فنحن على استعداد

ردد بكرى ماقاله ، وقد أحس انه على وشك تحقيق انتصار ساحق ، ووضع كل همه فى هذا المطلب ، ولم توافق رتيبة وشريكاها بسهولة وراحت تناور وتحاور ، تقول ويقول السرجانى ، ويشـرح الزيات ويعيد الكاتب قراءة الارقام ، حتى اقترب موعد صلاة الظهر، فاقترح عثمان ان يصلى الجميع صلاة الظهر ثم يعودون للمناقشة ٠٠ بعد الصلاة ، وافقت رتيبة ، بعد أن استخـارت الله ، ودعته سبحانه وتعالى أن يعوضها عن خسارتها ، وأمرت الكاتب بأن يخصم ربع المصروفات تنفيذا لحكم بكرى ومرضاة لحب الله وتبركا بالصلاة وانتشى الناس ، وانتعش بكرى ، وظـل واقفا يتأمل ما حققه من

انتصار ، وأعلن الكاتب الرقم الجديد بعد حذف الربع ، ولم يستطع احد من الناس مراجعة الارقام لأنها مهمة صعبة ، حتى أن عدوى جرى الى فكرى وساله أن يكون معهم ، وجاء فكرى ، ولكنه فشل فى متابعة الارقام التى يذكرها الكاتب ·

وكانت النهاية ، عندما أعلن الفـــرق المحقق بعد حـــذف المصروفات من اثمان المحاصيل جميعا ، وكان رقما طيبا بحق ، ما كاد يعلنه الكاتب حتى اهتز الناس طربا وأيضا سعد فكرى وأشار الى عدوى بأن الرقم المحقق يعد رقما عظيما ، وحسب الناس بسرعة نصف هذا الرقم الذى يخصهم على أساس انهم سوف يقتسمون الربح بينهم وبين الشركة ، وبعد أن هدأت عاصفة الســرور قالت رتيبة :

ـ كما ترون فان ما حققته الشركة يعد عمـــلا طيبا ، وان ما سوف يحصل عليه الناس يعد مبلغا كبيرا جدا

هلل الناس وهتف بعضهم بحياة بكرى شيخهم وبحياة الشركة، ولكن رتيبة لم تشأ ان يظل فرح الناس الى الابد ، فقالت :

ـ انتم الآن أمام خيارين

وصـــمت الناس ، أهناك ما يقال بعد ذلك ·· أين الفلوس ·· الفلوس ··

نظرت رتيبة الى بكرى وقالت :

ـ العقود تقول ان الآلات والماكينات والعمال هى دين عليكم ، أليس كذلك ؟

سكت بكرى ، فقد كان يعلم هذا ، واصلت رتيبة كلامها ··

ـ ولهذا اما ان تسددوا ثمنها جميعاً مرة واحدة هذا العـام وعلى هذا فلن تحصلوا على نقود ، ويبقى عليكم ايضا نصف ثمنها واما ..

صارت همهمة بين الناس ، وشعر بكرى بالعرق البارد يغطى جسده ، ..

واصلت رتيبة الدق على نافوخ بكرى :

ـ واما تقسط عليكم لمدة عشرة أعوام ، ولكن هذا يزيد من ثمن الآلات والمعدات ويحتاج ضمانا وعلى ذلك تظل أرضكم رهينة السداد .. فماذا ترون ؟

نرى ؟ ! من نحن أمام هذا الثعبان القاتل ، صـــاح الناس وماجوا وهنا ظهر الضابط ومعه فرقة من العساكر ، واقتــرب من الناس ثم وقف صامتا ، قالت رتيبة :

ـ اذا وافقتم على رأيى ، فاننى اقترح عليكـم ان تأخذوا نصف ارباحكم هذا العام والنصف الآخر تسددون به ما عليكم من دين ، هكذا كل عام حتى تصبح الآلات ، والماكينات وكل المعدات ملكا خالصا لكم ..

ارتفع سخط الناس ، وانقلب الفرح الى مأتم ، وحاول اكثـر من واحد ان يعتدى على رتيبة ومن معها ولكن الشيخ بكرى كان يمنع هذا برجاله وبأمره ، وكان الضابط قد اقترب من بكرى وهمس اليه بعدة كلمات ، انفجر بكرى على اثرها غاضبا وقال :

ـ لم يبع أحد من المنشية ارضه

وهنا ظهر بدوى وخلفه ناعسة وموريس ، وقال بدوى :

ـ هذه الأوراق ياحضرة الضابط هى حجتى

قال الضابط :

ـ ومعى أمر من المحكمة بتنفيذ البيع

قالت رتيبة :

ـ أهكذا ياموريس ! !

قال موريس مبتسما :

ـ شغل !

واضطرت العسكر الى تفريق الناس بالقوة ، ولكن الناس كان زمامها قد انفك ولم يعد يهمها الشيخ بكرى ولا ضابط العسكر ، لقد تحولوا الى وحوش ، يضربون فى كل اتجاه ، يحطمون بيوتهم ويحطمون كل ما يقابلونه حتى الآلات التى زرعت لهم الأرض حطموها وكسروها ولم يبق فى منشية البكرى ما يصلح للاستعمال، فقد تفشت الفوضى وعم الناس البلاء العظيم ، وكانت ليالى لانهار لها ، ولا شمس ، بل ظلام فى ظلام ، تحول الناس فيها الى زمرة مجانين ، فقدوا فيها العقل ، كما فقدوا فيها ممتلكاتهم وما بقى لهم من متاع ، حتى أن الرجل كان يخرج بعفش بيته فيحرقه أمام عينيه ، ولولا رحمة الله بهم ، لتقاتلوا حتى الموت ، فقد كان الرجل يضرب أخاه حتى يكاد يزهق روحه ٠٠ لعن الله تلك الايام السوداء التى اعقبها هذا الظلام الذى خيم على منشية البكرى ، فقد صار بدوى شيخ المنشية بعد عزل بكرى ، وقسمت الأرض بين بدوى وموريس من جانب وبين رتيبة والزيات والسرجانى من جانب آخر ، ولم يبق للناس فى منشية البكرى الا أن يعملوا أجراء لدى الجانبين بعد أن أدانتهم المحاكم وقضت على أملاكهم ، وهذا مافعلوه بأنفسهم وكانوا لانفسهم ظالمين ٠٠

وجلس فكرى وغزالة يبكيان حال المنشية ويفكران فيما جرى من أمور لم تكن فى الحسبان حتى سمعا الناس يصرخون :

ـ مات عثمان البكرى !

(٧)

أصبحت كريستيل هى المتصرفة فى حياة الدكتور سيد البكرى الذى يعمل فى المستشفى من صباح الاثنين الى مســـاء الجمعـــة ولا يبقى الا يومان هما السبت والأحد يقضيهما فى المنزل ، لكى يعد الطعام بنفسه لأنه اكتشف أن كريستيل لا تجيد طهى الطعام ولا أعمال المنزل جميعها فاذا حاولت أن تصنع شيئا فان خسائر كثيرة تقع ، لهذا كان سيد يقضى اليومين فى أعمال المنزل ، ولا يسمع فيهما الا تقريع زوجته له بأنه يحدث جلبة وضوضاء ٠٠

وجلس سيد أمام التليفزيون فى مساء السبت ، وأمامه زجاجة بيرة صغيرة ، لا يرغب فى شربها ، وعقله يكاد يقفز من دماغه يفكر فيما حدث له ، كيف تحول الى سجين ، لا حرية له ، مجرد ترس فى آلة يدور غصبا بلا ارادة وبلا مزاج يظل فى المستشفى يعمل متنقلا من اجراء جراحة الى مرور على المرضى ، الى استدعـــاء عاجل لحالات الحوادث دون راحة تذكر ليل نهار يزدرد الأكل بلا متعة ، ويبتلع القهوة أكوابا كبيرة ، يدور مثل النحلة ، صاعدا هابطا أدوار المستشفى بطوابقه العشرة ، على صدره وضعوا له جهاز الاستدعاء باللاسلكى ٠٠ دكتور بكرى عليه التوجه الى قسم الحوادث الدور الأول دكتور بكرى مطلوب فى حجرة العمليات رقم ٧ دكتور بكرى مطلوب بمكتب رئيس القسم دكتور بكرى عليه التوجه

الى الحجرة رقم مائتين وثلاثة حالة عاجلة ، ٠٠ ويدور ، ويدور ويتحرك كآلة بشرية تعمل دون توقف ٠٠ وعندما يأتى مساء الجمعة يكون قد انهد من التعب ، فيضع نفسه فى سيارة المستشفى ليكون فى منزله بعد ساعة ، وفى المنزل ٠٠ يجد مستشفى آخر فعليه أن يعد لنفسه طعامه بعد أن زهق من طعام المستشفى طوال خمسـة أيام ، وسيد يهوى اللحم والثريد ، ولا يوجد من يصنع هذا اللون من الطعام الا هو ٠٠ وعليه وحده تقع مهمة اعداد طعامه ثم ملابسه وعليه خلال هذا كله ان يكون لطيفا ورقيقا مع كريستيل التى دوما تذكره انها هى التى جعلت منه طبيبا ناجحا ، كما يجب ان يتذكر انها هى أيضا طبيبة تعمل مثله طوال الاسبوع وليس أمامها الا يومـان تستريح فيهما ، فهل يريد أن يقتلها بالعمل أيضا فى المنزل ، وتجلس كريستيل فى حديقة المنزل اذا كان الجو يسمح بذلك ، لكى تريح جسدها المتعب ، وعلى سيد أن يحضر اليها شرابا دافئا وبعض الفاكهة ، وعليه أيضا ان يذهب الى السوق لشراء مايلزم المنزل والاهتمام باجهزة التدفئة والانارة وملء خـزانات الوقود ورعاية أزهار الحديقة واعداد طعام يكفى لهما طوال اليومين ، وايضا الرد على البريد لكليهما وسداد فواتير الايجار والكهرباء والغاز وما الى تلك الالتزامات وكتابة الأوامر الخاصة بالكوافير والحارس ، وارسال بطاقات العلاقات الاجتماعية الواجبة ، وذا كان هناك وقت ، عليه أن يداعب زوجته مبديا روح الدعابة وخفة الظل مع ابتكار مداعبـات جديدة تضفى عليهما الحب ٠٠ وهذا ما حدث لسيد البكرى الذى سقط فى قبضة ديون واجبة السداد ، فهل يتمكن من سدادها ٠

(٨)

جلست غزالة بالقرب من الحجرة الجديدة التى بنتها الشركة عند اول المدخل الشمالى المنشية ، وداخل هذه الحجرة يقبع ثلاثة من الكتبة يحصون الناس وهم متجهون الى العمل فى المزارع ولابد أن يسجل كل واحد أسمه فى دفتر خاص يمسك به أحد الكتبة فاذا عاد من المزارع يسجل أسمه مرة أخرى ، وهكذا تعرف الشركة عدد الذين يعملون ، وفى الدفتر الآخر اسماء كل الناس فى المشـــية ، والذى لا يعمل فى المزارع هو الذى لا يسجل اسمه فى الدفتر الأول، وعلى الكاتب ان يحصى هؤلاء ويسجل اسماءهم فى الدفتر الثالث، وهؤلاء تقع عليهم غرامات مالية تحددها الشركة ، ويتولى تحصيلها الشيخ بدوى بحكم كونه المسئول عن تسديد الدين العام على المنشية وهؤلاء الكتبة لا يتحدثون الى احد ، انما هم يعملون فى صـــمت تام ولهم مكان مخصص للنوم والأكل ولايختلطون بالاهالى ٠

كانت غزالة ترقب مايحدث داخل الحجرة ، وكان قرارها هدم الحجرة ، كانت قد تحدثت بذلك الى فكرى وايضا الى عدوى ابن عمها ورحب عدوى بالفكرة بينما عارضها فكرى ، قال ان تلك الحجرة لا معنى لها ولا قيمة ، وان القضية هى (الديون) ، ولكن غزالة لم توافق وتحدثت الى عدوى الذى وعدها بالحصول على مادة تنسف هذه الحجرة ، ووضعا معا خطة هدم الحجرة ، على أن تتولى غزالة اخراج الكتبة الى خارج الحجرة ويتسلل عدوى فيضـــع المواد الناسفة داخلها ، حتى لا يصاب الكتبة بضرر ، ولهذا جلست غزالة ترقب وصول عدوى لكى تقوم بتنفيذ دورها ٠٠

كان بكرى يجلس منكس الراس ، لم يعد يفهم العالم ، تحول الناس الى ديدان قصيرة تزحف على بطونها ، وتحول بعضهم الى قرون بلا راس ، مجرد قرون من الصدف الذى لا يجرى فيه الدم ، وتحول بكرى نفسه الى مجرد رجل غبى لا يفهم شيئا ، لهذا لـم يسـتطع ان يعى ما يتحدث به الدكتور فكـرى ، الذى كان يقـول كلاما كثيرا ، لم ينتبه الا عندما ذكر فكرى اسم غزالة ساعتها استيقظ بكرى وسأل :

ـ غزالة ..

قال فكرى فى حماس

ـ ارجوك خذ رأيها

صاح بكرى :

ـ رأى من ؟

قال فكرى مستنكرا :

ـ غزالة قلت لك

قال بكرى :

ـ ليس هناك داع .. لقد ضاع كل شىء وانا السبب

قال فكرى فى اصرار :

ـ ليس لك دخل .. ارجوك اسألها

قال بكرى فى بكاء :

ـ بعد كل ماجرى ٠٠ لم يعد هناك ما ينفع ، ضاع كل شىء ، وانا السبب الا ترى ما حولك ، الا ترى من تسمى ناعسة تقيم فرحا لعرسها الليلة وتحضر من المدينة كل عازف ومغن من أجل عرسها ٠٠ الا ترى رتيبة تجلس على قمة الجبل تأمر فيطاع أمرها ٠٠ ابعد هذا كله أسأل انا عن كل شىء ٠

قال فكرى :

ـ أعرف كل هذا ، ولكن أرغب فى اخذ رأى غزالة

صاح بكرى فى عصبية :

ـ مجنون ٠٠ أنت أيضا من الغرباء الذين جاءوا الى هنا لكى يستولوا على ارضنا ٠

رد فكرى فى نفاد صبر :

ـ أرجوك ياشيخ بكرى

قاطعة بكرى فى قسوة :

ـ لم أعد شيخا لأحد ، لم يعد لى سلطان على أحد ، دعنى واذهب الى من بيده الأمر اليوم ، دعنى أبكى على حالـى بعد أن اضعت ما تركه اجدادى ولم استطع الحفاظ عليه ٠٠ ولكن كيف كنت أحافظ عليه ، جاء السيل وجرف كل شىء أمامه لم يتـرك لى الا الخراب ، ماذا كنت صانعا ٠٠ اقف أمام السيل ٠٠ أقاتله بسيفى ٠٠ أم اقتل الخراب الذى تركه ٠٠ قل لى انت ياطبيب ٠٠ ماذا كنت افعل ؟ اتيت بمن معهم المال والادوات لم أعلم انهم جاءوا من أجل ابتلاع كل شىء ٠٠ لم أكن أعلم ٠٠ لم اكن أعلم ٠٠

تركه فكرى والألم يعصف بصدره ، كان يود الحصول على موافقته على زواجه من غزالة ، الى من يذهب لكى يحصل على الموافقة بزواجه من غزالة ، ايذهب الى الشيخ بدوى وهو يعلـــم

من يكون ذلك الرجل ، أم ماذا يفعل ، قالت له غزالة ٠٠ لا أستطيع الزواج منك الا بعد موافقة شيخى ٠٠ وشيخها هو ابن عمها بكرى كما تقول هى لأنها لا تعترف بعمها بدوى ٠٠ تقول انه لا سلطان له على احد ٠٠ ولكن شيخها بكرى لم يعد فى حال تسمح له بمناقشة الأمور ٠٠ لقد تحول الى شبح من الماضى ٠٠ لايتحدث الا عن السيل والخراب ورتيبة ٠٠

كان بدوى قد جدد بيته وحوله الى قصر منيف ، ولم ينس أن يخصص الجزء الامامى لكى يكون قاعة الاجتماعات الرسمية لمجلس المنشية لا احد يتحدث فيها الا بعد استئذانه ، فاذا تحدث فيجب أن يقول كلاما يعجب بدوى الذى خصص مكانا يقف فيه الحرس الذين اختارهم من رجال المطاريد والذين اخلصوا له واقسموا له بالولاء ٠ وساعدوه على اقتسام الأرض مع الشركة ٠

والأمر الذى ظل غير معروف ، هو كيف استولى بدوى على الأرض من موريس ، أو كيف ازاح موريس من طريقة ، وحول ناعسة الى مجرد ست بيت ، لها خدمها الخاص ولها مكانها سـيدة على سيدات المنشية ، ولم يحاول احد من الناس التحدث حول علاقـة موريس ببدوى حتى الذين همسوا بذلك الحديث لـم يعودوا الى الهمس ثانية ، واكتفى الناس بالحضور فى الجلسات التى يدعو اليها بدوى ويجلسون فى صمت حتى اذا تحـدث بدوى صفقوا لحديثه استحسانا وهللوا لرأيه الصائب دوما ٠٠

واستعان بدوى ببعض (الافندية) من البندر يكتبون لـه الحساب ، كما احتفظ بعلاقة خاصة مع شركة رتيبة والسرجانى والزيات ، ويقول عبد الصادق الطبال أن بدوى استطاع أن ينزع الأرض التى اشتراها لحسابه من قبل ، واصبحت تلك الأرض من ممتلكات بدوى وحده ، ولما كانت الأرض كلها واقعة تحت طـائل

الدين العام الذى حددته المحكمة فان بدوى أصبح ملزما بالدخول مع الشركة فى حرب حتى توصل الى اتفاق يقضى بأن يحصل على أرباحه دون خصم الدين ولا فوائده ، على أن يقدم للشركة كافة الضمانات لخضوع المنشية لاحكام المحكمة ، التى استصدرتها رتيبة وشريكاها ، وهكذا تحول بدوى الى ثرى أوحد فى المنشية ، ويقول محمد حسن مكملا الحكاية ، أن بدوى استصدر حكما من مجلس المنشية بأن بكرى لم يعد يصلح للمشيخة وبالتالى صار هو شيخ المنشية ، وشيخ البكرية له الحكم والأمر وعليهم الطاعةوالانصات لتعاليمه كما كانوا أيام سيدى سالم ، وذكر الحاج نوفل أن بدوى أحضر ناعسة وتزوجها وأقام معها فى داره الجديدة ، وأصبحت ناعسة هى ست الكل وعلى البنات والنساء سماع الكلام وأطاعة أوامر ناعسة أو الست ناعسة كما سماها بدوى ٠٠

ورجال بدوى من الحرس ، لايتكلمون الى أحد من الناس ويكتفون بالضرب اذا ما رفض أحد من الناس اطاعة أوامر سيدهم بدوى ، وهم يقيمون فى دور معزولة عن المنشية ، اقامتها لهم الشركة التى بنت بيوتا كثيرة لموظفيها وعمالها ، ومحلات للبيع والشراء وأصبح الناس فى المنشية يعيشون تحت رحمة الشركة من جانب وحرس بدوى من جانب آخر ، والوشركة تعطيهم الكفاف فى مقابل عمل مجهد طوال اليوم والحرس يجبرونهم على اقامة الحواجز والدور ، وتنفيذ ما يحتاجه بدوى من أعمال فى بساتينه وداره ٠٠

وخلال هذا كله أحبت غزالة فكرى الذى جاء طبيبا متطوعا لعلاج المنشية ، فسقط فى غرام غزالة وناس المنشية ، وقرر عدم مغادرة المنشية ، ولكن كيف يتزوجان وبدوى يعلن فى مجلسه أمام كبار المنشية انه قرر زواج ابنه عدوى من غزالة بنت أخيه عثمان ؟!

الفصل الحادى عشر

(١)

كانت مبروكة قد اخلدت الى الراحة لم تعد هى نفسها التى كانت تروح وتجيء اخذت منها نبوية موسى حرفة التجارة ، وأخذت الشركة من نبوية موسى الدكان ولم تعد نبوية موسى الا مجـــرد بائعة هى وأولادها فى مطاعم ومحلات تحمل اسمها فقـط ، ولكن ملكيتها تعود الى الشركة ، لهذا اخلدت مبروكة للراحة أمام الحائط الباقى من دارها ، تنام أحيانا وتصحو اخرى ، يأتيها زوجها فيجلس مهموما ومحصورا بجوارها ، لا يتحدثان ، كل منهما يحاول أن يطرد الذباب عن وجهه ولكن بلا فائدة ، ولـم تتعب مبروكـــة من هش الذباب كما لم تتعب من التفكير فى الماضى بعد ان اكلها الزمن بلا رحمة ٠

وضاع المال ، ولم ترزق بالولد وضاعت الناس فى منشية البكرى ، حتى الشيخ بكرى نفسه الذى لا يزال فى عمر الشباب ضاع ، يجلس على احد الاحجار فى قمة الجبل متأملا ، ثم يهبط الى حوارى المنشية ولا يقول شيئا ، وايضا ضاع كل الرجال الذين كانوا يجلسون حول عثمان بعد ان مات عثمان ، وبقيت غزالة ، تعشق الدكتور فكرى ، وفكرى يعشقها ، ولكن فكرى ليس من البكرية فكيف يحق له أن يتزوج بنت شيخ البكرية ، هل سيوافق بكرى ، أم يرفض ، ولكن بدوى ، أقصد الشيخ بدوى أعلن زواج ابنه عدوى من غزالة ، والغريب أن عدوى هو الذى يرفض ، عدوى ابن بدوى البكرى كان سيجن ان لم يتزوج غزالة ، غزالة مخطوبة منذ الصغر لابن عمه سيد البكرى ، ولكن أين سيد البكرى الآن ، الله وحده يعلم لابد أنه مات ، سنوات طويلة ولم تسمع المنشية عنه ، عندما ذهبت الى الاسكندرية لكى تعطيه المال الذى أرسله الشيخ ابراهيم لم تجده ، قالوا لها انه سكن بمسكن آخر مع خواجه ، ساحت فى الاسكندرية ، سألت التلاميذ والعسكر والناس أجمعين :

الم تروا صبيا اسمه سيد البكرى طويلا بغير زيادة ، نحيفا بغير قلة ، أبيض الوجه ازرق العينين ، طويل الشعر يرتدى زعبوطا بدويا ، قالوا لا ، قالت يدرس فى المدارس علوم الدين والحساب والفلك ، قالوا هم كثير ، قالت يقرأ الكتاب ويجوده ويقول الفتاوى ويحسن الوضوء والصلاة ، قالوا ياستنا ما رأينا مثل فتاك ، اذهبى الى الشرطة وهناك سألت وكتبوا ما قالته وقالوا لها سوف نبحث ، وبحثوا ولم يجدوا وعادت الى أبيه ، قال ما أنت الا جميلة راحت تعرض جمالها وتلهت عن السؤال عن ولدى ، اهانها الشيخ ابراهيم لكنها كانت تعرف حب الأب لابنه وكانت تعلم حسرة فقد

الأبن ، هى جربت هذا ، هى لم تنجب ، ولكنها أحست بفقد الأبن عندما لم تجد سيدا ، كانت أحيانا تشعر بأنه ابنها ، وكانت تعامله على هذا الأساس ، هى الوحيدة التى تعرف أين يعيش فى بنـــدر الاسكندرية وهى وحدها التى كانت تاتيه بالزاد والزواد ، وكانت حريصة على أن تعطيه من نقودها ومن طعامها زيادة عن عطاء الأب الكريم ، والآن يغلظ لها الشيخ ابراهيم القول ، كيف هذا ياناس ، انه ابنى وليس ابن الشيخ ابراهيم ، انه ولدى الذى ربيته وأحسنت رباية أعطيته احسن المأكل والملبس وعلمته أحسن الكلام ، وغذيت فؤاده بكتاب الله وسنة رسوله ، اتقولون هو ابن الشيخ ابراهيم ، كيف ، انه لم يره وهو يؤم الناس بالصلاة فى الجامع الكبير فى البندر ، ولم يره يتلو الكتاب على الملأ ، ولم يره ماشيا بزعبوطه يتباهى بين تلاميذ البندر ·· لا حول ولاقوة الا بالله ابعد هذا ياشيخ ابراهيم تقول انى ذهبت اعرض جمالى ، أى جمال بعد سيد ، عدت الى المنشية كسيرة القلب ··

قال زوجها فى تكاسل :

ـ الى اين ذهب بك الخيال ؟

قالت فى وهن ودموعها تبلل خديها :

ـ الى سيد

تأفف الرجل وأصدر صوتا كالمواء وقال :

ـ ما زلت تذكرينه !

نظرت الى زوجها يغيظ حتى زوجها يريد أن يسلبها أحلى ذكرياتها ، انها تذكر سيد ولدها الجميل الذى كان يتعلم فى المدارس، والذى رحل دون كلمة وداع ، ودون أن يقول لها مداعبا :

ـ يا مبروكة ٠٠ انثرى علينا من خيراتك

وتقول مبروكة وهى تتصنع الجهامة :

ـ لاشىء معى غير هذا ، هذا يكفيك ويزيد

يدس سيد الفلوس فى جيبه ويقول :

ـ هل أصبحت رخيصا عندك ياأمى ؟

ينتفض قلبها فى صدرها عندما يقول هذا ، تدس يدها فى صدرها وتخرج ما تبقى معها من نقود ، وتقول له فى لوم وهى تدفع بالنقود نحوه :

ـ خذ ٠٠ اياك والبنات ومصانعة النسوان

يضحك سيد مجلجلا ٠٠ ويمطرها بعاصفة من قبل ، ويدور حولها حتى تكاد تحس بقلبها يكاد يتوقف من كثرة السعادة والضحك ، ثم يجلس مكشرا عن انيابه ويقول فى حدة :

ـ أنت لم تقولى شيئا عن أمى ٠٠ أهى بخير ؟

تخرج روحى لتلفه بحنان ، ياولدى ، ياحبى ، ياكيانى كله ، أنا أمك وأمك بخير ، وكل الخير ، وترسل اليك كل الحب والاشواق والسلام ، هى أنا ياولدى وأنا هى ، ارسلتنى خلالها وجئتك بها معى ٠٠ وهى تدعو الله ليل نهار من أجلك ٠٠

ـ يقاطعها سيد فى حزن :

ـ وأبى ؟

ماذا به ، ابوك بخير ، كل الخير ، رجل ولا كل الرجال ، سيد قومه وعشيرته ، كريم كما يكون الكرم ، شجاع كما يجب أن تكون الشجاعة ، يرسل لك من خلال اشواقه ويطالبك بالدرس والتحصيل

لتعود اليه مجدداً مجد سيدك سالم والعراقى وعبد الكريم وعشرة الرجال الذين شيدوا مجد المنشية ٠٠

ويعود سيد الى مرحه ، ياخذنى الى البحر ، ويقول :

ـ اماه هذا بحر كبير ولكن فى نهايته يعيش اناس مثلنا ٠٠ واقول فى راسى ٠٠ انه يعلم مالا اعلم ، ولكن البحر مخيف ، ازرق شديد الزرقة ٠٠ معتم القلب ، به ضراوة مثل الجبل الأســـود ، ورياحه باردة ، ويرسل شررا من الماء يدمى العين اخذه انا بعيدا عن البحر ، واقول مالنا وهذا البحر الكبير ، بلادنا لاتعرف البحر ، بلادنا تعرف الصخر والحجر والجبل والرمل ، تعلم سر الجبل يعطيك قلبه ، وضاع سيد يازوجى ٠٠ لم اجده وذهبت الى البحر وسألته لم يجب كان البحر يكرهنى وانا اكرهه ٠٠

ابتلعه البحر ٠٠ حقا ابتلعه البحر ، الشيخ ابراهيم لـــم يصدقنى ٠٠ وارسل رسلا الى الاسكندرية وكما ذهبوا جاءوا ، لـــم يجدوا سيدا ٠٠ ولم يعرفوا الى اين ذهب ٠٠ الم اقل لك لقـــد اكله البحر ، فقد كان البحر يغار منى ٠٠

توقف بدوى عندما راى مبروكة ، تقدم منهـا عدة خطوات وقال لها :

ـ ياخالتى ٠٠ سنقيم لك دارا جديدة ٠

رفعت مبروكة راسها وشعرها الأبيض المنقوش وقالت :

ـ من أنت ؟

لكزها احد الحراس منبها ، قال بدوى فى عطف :

ـ دعها فهى غافلة

وقفت مبروكة وقد لدغها اللفظ ·· وقالت :

من أنت حتى تقول هذا ، بل أنت الغفلان الجبان ، انت المدعى اللص ، تتصور اننا فى غفلة لأننا تركناك تجلس على مقعد أنت لا تستاهله ، تظن بنا تلك الغفلة ، انت الغافل ياهذا ، نحن لسنا فى غفلة ، انما نحن ندعك لهواك حتى يقتلك ، سوف يلتف سياط حراسك حول رقبتك وتموت ·

هوى الحارس بسوطه على ظهرها ، لم تتحرك مبروكة من مكانها ، اندفع زوجها يعوى أمام بدوى طالبا الرحمة ، ولكن بدوى كان مغيظا من كلام مبروكة التى واصلت

– الجميع يعلمون ، الا انت ، انك هالك ·· وانك الى النارحتما ستساق ·

قهقهة بدوى فى خشونة ، قالت مبروكة :

– اضحك ما شاء لك الضحك ، فسوف ترى فى الغد مايبكيك دما ، ولكن لا تظن بنا الغفلة ··

رفع بدوى يده ، فكف الحارس عن الضرب ، قال بدوى فى أمر :

– ستغادرين هذه الدار فى الغد

قالت مبروكة :

– الم اقل لك انك تسعى الى حتفك

لم يعرها بدوى اهتماما وواصل سيره أما مبروكة فقد جلست على الأرض تبكى بشدة وتجمع الناس ، يسألون عن سر البكاء وهم أدرى الناس بأسبابه ، ولكن ماذا يفعلون ؟ !

(٢)

جلس بدوى فى اول المندرة ، وظل صامتا حتى تجمع كل الكبار كما امر ، نظر فى عيونهم ، ارتعشت اهدابهم قلقا ، تحسس كل منهم رقبته ، كانت ظلال اجساد الحراس تخترق فضاء المندرة ، وكان نور الكلوبات يئن فى وهن ٠٠ ولكنه لايموت ، اقبلت ناعسة مجلوة كأحلى ما تكون الغانيات ، وجلست دون سلام بجوار سيدها وزوجها وسيد قومه وشيخهم بدوى البكرى ، انتظر بدوى حتى ارتاحت ناعسة فى مجلسها ، وكانت هذه اول مرة تحضر ناعســـة مجلس الكبار فى المنشية ، ولأن هذه مناسبة ذات دلالة ٠٠ فقد وأفق بدوى على حضورها ، لتسمع بنفسها خبر اختيار بدوى لغزالة عروسا لابنه عدوى ، وكان عدوى حاضرا وخلفه ثلاثة من المطاريد ، اقصد الحراس ، يتابعون حركته حتى لا يفسد جمال وروعة هذه الليلة ، واعلن بدوى فى كلمات موجزة خبر زواج ابنه عدوى من ابنة اخيه غزالة ، ولكن ما كاد يعلنها حتى هب عدوى رغم حراسة الثلاثة وقال :

ـ وأنا لا اوافق على زواجها ٠٠

وانكتم الناس ، قالوا

هو ابنه ولده الوحيد ، يارب يتضاربان حتى ألموت ، لم يعد عدوى يهمنا ، ونحن نكره هذا الظالم ، فلماذا نتكلم نحن ، ولكن بدوى نظر الى الناس وقال :

ـ الا تتكلمون ؟ !

ياللكارثة ، ماذا نقول ، ان قلنا عدوى له الحق فيما ذهب اليه

هلكنا ، واذا قلنا ان الصواب جانبه هلكنا ، مـاذا نقول ٠٠ نقول الصمت ،

وقال الناس الصمت ، انفجر ، بدوى صائحا نحو ولده :

ـ اليس هذا ما سبق وأن سالتنى اياه ؟

قال عدوى :

ـ على أن يكون لها حق الموافقة أو الرفض

ضحك بدوى فى سخرية وقال :

ـ اذن نسألها

قال عدوى فى جرأة :

ـ الخوف منك أخرس الالسنة ، وكتم أصوات الناس

ـ دعك من الناس ، انهم غنم ، اذهب واسأل عروسـك ان قالت لاسوف اقتلها ٠

ـ أترى يامن تكون أبى ، انك تهددها ولاتسألها ٠٠ لهـذا أرفض زواجها واعلن على الملأ انني لا أرغب فى زواجها وليس لى عندها مآرب فانى أعلم من يهواه قلبها ٠٠

صرخ بدوى ،

ـ أهناك من تحبه ، هذا عار ٠٠ انظروا يارجال المنشية ، بناتنا تعشق ، لهذه الحالة وصلت بنا الاخلاق ٠٠ هبوا يارجال المنشية واثاروا لانفسكم ٠٠

قال عدوى فى سخرية مرة :

ـ من كان بيته من زجاج ياأبى ٠٠ انت نفسك جئت لنـــا بفاجرة ٠

لم ينتبه بدوى لنفسه وهو يكاد يقتل ولده ، وينهال عليه ضربا بالايدى والأقدام والحراس يحاولون تخليص عدوى من بين مخالبه وعدوى لا يحاول أن يحمى نفسه أو يدافع عنها ، ترك والده يكيل له الضرب ٠٠ وناعسة هربت من المجلس وهى تتظاهر بأنها تبكى ، وهمس بعضهم وكان ينظر اليها :

ـ لقد راودته عن نفسه

سأله جاره ، وهو يشهد بدوى يكاد يقتل ولده

ـ راودت من ؟

قال الهامس مؤكدا

ـ ابنه عدوى

قال ثالث :

ـ الا يجدر بنا أن ننصرف ؟

قال الأول

ـ انا لم اشبع من المشاهدة

كان بدوى قد تعب من الضرب فترك ولده والتفت الى الناس فوجدهم ينظرون اليه ، ولا احد يتكلم صاح بما تبقى لديه من عافية :

ـ دعونى وشأنى

هرول الناس وانطلقوا الى بيوتهم ، وكل منهم يحكى ماشاهده لأهل بيته ، حتى وصل النبأ الى غزالة ثم الى بكرى ٠

(٣)

وجاءت غزالة بعد صلاة الفجر الى بكرى

ـ الغوث ياشيخنا

نظر بكرى اليها وقال :

ـ لو كنت أملك ما تأخرت يابنة العم

قالت غزالة :

ـ زاد بطشه ، وسوف ينالنا شر كثير

قال بكرى :

ـ يفعل الله بنا ما يشاء

قالت غزالة :

ـ الله قال لنا اعملوا

قال بكرى :

ـ وقال اصبروا

قالت غزالة :

ـ للصبر حدود

قال بكرى :

– لم نصلها بعد

جاء فكري ملتاعا ، اندفع نحو بكرى وقال في ضراعة :

– انقذ العجوز المسكينة ياشيخ بكرى انهم يهدمون بيتها

التفتت غزالة ، وهى لا تصدق ما يقوله فكري ، وقالت :

– لو وقف كل واحد منكم على حجر ما استطاعوا هدمه

واندفعت غزالة خارجة ، نظر فكرى الى بكرى وقال :

– كن أول من يقف على حجر وسوف يتبعك الاخرون

ثم خرج مهرولا ، كان على ثقة انه اذا ذهب الي دار مبروكة سيرى بكرى يقف هناك ·

(٤)

قالت ترك للست رتيبة :

– لا اقدر ياستى

صرخت رتيبة فى قسوة :

– وعلى ماذا تقدرين يا اخت ابليس

قالت ترك في دعه وصبر :

ـ الله قادر على كل شيء ، نحن عبيد الله ما يفعله بنا يكون
قالت رتيبة بنفس القسوة :

ـ سوف ابنى لك دارا من حجر ، وسوف املأها لك بالدقيق والحناء والعسل والسمن والسكر ، وســـوف تنالين من الأمـــوال مالا تقدرين على حمله انت وزوجك ٠

هزت ترك راسها فى اسى

قالت رتيبة :

ـ هو لن يعصى لى أمرا ، ولكن أريدك أن تدفعيه لكى يطلب يدى ٠٠ فقط قولى له افعل هذا ٠

قالت ترك :

ـ ومن اكون ٠٠ هو شيخ البكرية والوارث لعرش ابيه واجداده هو حامل عصا سيدى سالم ، وانا امرأة تساعد نساء الحى ساعة الولادة ٠٠ فكيف أكلمه ٠٠

صرخت رتيبة :

ـ لم يعد شيخا ٠٠ عمه هو الشيخ ، عمه لن يرفض لى طلبا فانا التى تعطيه راتبه

هزت ترك رأسها ، ركعت رتيبة بجوارها ، قالت فى توسل :

ـ أعشقه ياخالتى ٠٠ وأكاد أموت من حبه ٠٠ وانا على وشك دخول عهد الشيخوخة ٠٠ هو الآن لايملك وانا املك ٠٠ هو الآن وحيد وانا معى كل الرجال ساعيده شيخا واعطيه من المال ما يجعله أغنى الاغنياء ٠٠ فقط اذكرينى عنده ٠٠ وزينى له زواجى ٠٠ وقصى عليه الامر بطريقة لطيفة ٠٠ اتوسل اليك ان تفعلى ٠٠

ورفعت رتيبة يد ترك الخشنة الى فمها وقبلتها ، ورات تـــرك دموع رتيبة واشفقت عليها ، فقامت من عندها وقد رأت ان تعرض

الأمر على بكرى عله يستحسنه ويوافق عليه ، ورأت وهى مقبلة على ديار البكرى ان خلاص المنشية سيكون على يدها ، ولكن ماوقعت عليه عيناها ·· جعلتها تجرى مذعورة ··

(٥)

كانت الجرارات تزحف نحو بيت مبروكة ، تهدر بصوت غليظ ، تتوعد فى زهو ، وكان شباب البكرية يقفون على أحجار دار مبروكة ·· كل منهم وقف على حجر ، منهم من تسلق الجدران الباقية ، ومنهم من وقف امام الباب ، منهم من اكتفى بالوقوف بجوار الجدار، وكانت غزالة ومن معها من البنات ملتفات حول مبروكة فى دائرة غليظة ، بينما جلست مبروكة وقد عصبت رأسها بمنديل أسود ، ووضعت رأسها على كفها ، واقتربت الجرارات ولكن لا أحد من الشباب يتحرك وايضا لا أحد يتكلم ، وتوقف الجرار الأول عندما أصبح على وشك هرس أول طابور من الشبان هبط السائق وقال فى عنجهية لم تكن معروفة فى المنشية من قبل :

ـ ابتعدوا يا أغبياء

ولم يبتعد الاغبياء صعد السائق الى الجرار وجعله يصدر صوتا أعلى ثم اندفع خطوة أخرى ولكن الاغبياء لم يتحركوا ·· فهبط ثانية وقال فى رجاء ··

ـ انا عبد المأمور ·· عندى من الاولاد خمسة لاتضيعونى وتضيعوا انفسكم ··

لـم يتحرك أحـد ، جاء السـائق الثـاني ، وتلفظ بعبـارات قبيحة ، وحاول أن يسـتعرض عضـلاته ولكن لـم يهتم أحد من الشباب الاشتباك معه ، قال السائق الأول :

ـ أنا لا اقدر على قتل هؤلاء ، اذهب الى الشيخ بدوى لكى يتصرف ٠

وكثر عدد الشباب وانضم اليهم العديد من الاطفال والصبيان وعندما جاء بدوى مهرولا وخلفه ثلاثة من حراس المطاريد ، وقبـل أن يفتح فمه ، كان الطوب والحجارة تسبق كلامه ، انهال عليه من كل جانب سيل من الاحجار الصغيرة ، تبارى الإطفال فى تصويبها نحوه ، اندفع حراسه يضربون فى كل مكان ولكن لم يكف الاطفال ولم يتحرك الشبان ، زغردت النساء واحتار بدوى ، فارسـل فى استدعاء المزيد من الرجال ، الذين انضموا اليه وراحوا يضربون بقسوة كل من يصادفهم من البشر ، ولكن البشر كانوا مثل موج البحر ، كلما أحس الحراس انهم كسروا موجة جاءتهم أخريات أكثر عددا ، واختلط الأمر على بدوى ، فقد كانت الاحجار تنهال عليه حتى أصابته فى عدة مواضع من راسه وجسده ، وكانت الجراحات تنأر فى قسوة وكلما تحركت فى إتجاه احاطها واعترضـها البشـر ، وحراسه جميعا وكأنهم يجرفون الماء فضرباتهم لاتكل ولكنها لاتفعل شيئا ـ بل كانها تزيد النار اشتعالا ، وكلما انزاحت جماعات من الناس جاءت أخرى ، ورأى بدوى ابنه عدوى وهو يشجع الرجـال على المقاومة

قال بكرى فى ثقة :

ـ اصبروا فان الله مع الصابرين

وأحس بدوى ان رتيبة خذلته فلم يحضر عمال الشركة كما كانت قد وعدته من قبل ، فى حالة هياج الناس ، كان بدوى قـد

حدثها عن كنز مبروكة المخبوء في الدار ، وعن رغبته في العثور عليه ، وخطط لذلك معها ، وعرض عليها نصف الكنز ان هى عاونته وكان لابد من هدم الدار حتى يبعد مبروكة عنها ويقوم هو واعوانه بالبحث عن الكنز بحجة وضع أساس الدار الجديدة ، فاذا حصل على الكنز ، بنى الدار وأوفى بوعده لمبروكة أمام الناس وظهر بمظهر الكريم ولكن الناس كأنهم عرفوا سر هذا الاهتمام بدار مبروكة ، وأن رتيبة تلعب من وراء ظهره ورفع بدوى يده وبدأ الحراس يحيطون به حتى انصرفوا به الى داره ، وهناك جلس مع ناعسة التي اقسمت الا أن تشرف على حمامه بنفسها ، وان تقوم على خدمته فى الحمام وان تغنى له حتى تزيل همه وكربه وبعدها يفكران معـــا فى تاديب العصاة ..

(٦)

فرح الناس وهم يرون بدوى ورجاله يزحفون هربا منهم ، وتقافز الاطفال على أسوار الدور فرحا وغبطة وقد ادركوا أهميـة ما فعلوه ، والتفت بكرى الى عدوى وتقابلا فى عناق ، ونظر فكـرى نحو غزالة واعتدل الناس فى وقفتهم ، انسحب بعضهم لشدة تمزق ملابسه ، وظل البعض ينظر الى بكرى متطلعا الى ما بعد المعركة وظلت مبروكة فى جلستها وان انفجرت تبكى ، وقبع زوجها فى ظل الدار وقد أوجعه الضرب ، وقال فكري في ثقة :

ـ ما حدث الآن يجب الا ينسى ، لقد عادت روح المنشـــية اليها .

قال عدوى ، وقد تنبه الى وجود النـــــاس الذين لم يبرحوا المكان :

- سيعودون اكثر عددا وعدة ، فماذا انتم صانعون ؟

قالت غزالة :

- نتسلح بما نستطيع

قال عبد الكريم العدوى ، وكان اكثرهم حظا من ضرب السياط وظهر هذا واضحا على جسده ، قال ناظرا الى عدوى :

- لنا ثار يا ابن عمنا ، وسنأخذه

وترك عبد الكريم مكانه ، ومضى يشق افراد عائلات يونس وحمزه والعدوى ‥ الذين ما كاد عبد الكريم يمر بجوارهم حتى استداروا خلفه ، رفع بكرى صوته مناديا ‥

- يا أهلى ‥ ان كان لكم ثار لتعيدوا للمنشية كرامتها فانا معكم وان كان لكم ثار تنالوه من أولاد عمى فانا ضدكم ‥

وتوقف ، استداروا الى بكرى ، قال يونس :

- فماذاانت صانع وهذا الظلم ؟

قال بكرى ؟

- اقاتله

قال محمود نوفل :

- ونحن خلفك

قال على بن عيسى الواردى :

- أتقاتل عمك ؟

قال بكرى :

ـ اقاتل عدو الله وعدو أهلى

قال ثابت بن يعقوب ، ابن أخت ترك :

ـ ولكنك اهلكتنا من قبل ورميت بنا تحت سنابك خيل رتيبة ٠

صرخت غزالة :

ـ ما أوردكم المهالك الا أنفسكم ، وكان شيخنا أمينا معنا ومع نفسه ، عفيفا لم يدنس نفسه مع الاغراب

قال محمود ابن الست نبوية موسى :

ـ ليس العيب فى الاغراب ، فلم نر منهم الا كل خير ولكن العيب فينا ٠

اسكته الاطفال برجمه ، فسكت ، وجـــاءت نبوية موســـى وسحبته من يده ، وقال عدوى ٠

ـ يا أهلى ٠٠ ان شيخنا بكرى هو وريث سيدى سالم ومايفعله هو الصواب فالزموه كما يلزم الواحد جلبابه فهو ســـتركم اليوم وغدا ٠٠

قال بكرى :

ـ يا أهلى ٠٠ ان ناصرتمونى اليوم ساكون لكم نعم المستمع لرأيكم ٠٠ واعاهدكم الا اقطع بأمر بعد ذلك الا بكم

قال محمود بن نوفل ، الشهير بالجحش :

ـ نقتلع جذور الشر ، ونحن لها

زأر الجمع ، سمع بدوى صوت الناس وهو غاطس فى مغطسه بالحمام ، يغطيه الصابون والماء الساخن من كل جانب ٠

ضحكت ناعسة وقالت :

– هيء ‥ أهلك صاروا جميرا

قذفها بدوى بكوم من الماء الساخن ، سلخ جلد وشها ،

(٧)

اسرعت نبوية موسى الى الست رتيبة ، وجلست اليها وقالت لها كل شيء واضافت من عندها أن بكرى هو الذى حرض الناس ، وكانت البنت غزالة دون البنات جميعهن تقف بجوار ابن عمها بكرى ‥ بل وحرضت ابن عمها عدوى رغم ان الشيخ بدوى والد عدوى اعلن خطبته عليها ، واضافت نبوية موسي انها في سبيل الشركة سوف تفعل ما تأمرها به الست رتيبة ، ولكن رتيبة لم تقل لها شيئا وصرفتها في برود شديد ، الأمر الذي جعل نبوية موسي تخرج من دارها قاصدة محل اجزاخانة الخواجة موريس ، الذي استقبلها بابتسامة مشجعة وجعلها تتكلم كثيرا عن الست رتيبة التى تحرض الاهالي ضد الشيخ بدوى ، وكانت نبوية على اعتقاد بأن موريس سوف يسعده سماع مثل هذا الكلام ، والخواجة موريس لا يظهر على وجهه التعبير الصحيح لعواطفه فهو دائم الابتسام ، الا ان اخبار الهجوم على بدوى قد أسعده كثيرا ، فهو لا يتمنى الآن الا موت هذا الرجل الذى ضحك عليه واستطاع أن يستولى على الفلوس وعلى الارض ، وعلى ناعسة ، وناعسة هى نقطة ضعف الخواجة موريس ، فمن اجل جمالها ترك بدوي يعبث به ، بل اعطي لبدوي الفرصة لكى يأكل منه كل شيء ، لأن بدوي عندما عرف ميل الخواجة موريس الي ناعسة ، ابدى استعداده لمعاونة موريس ‥ بل اقنعه انه يستطيع

أن يجعل ناعسة توافق على الاقامة معه فى داره ، وفى سبيل ذلك وافق موريس على اعطاء بدوى كل ما يطلب وبدأ بسمدوى يخطط للاستيلاء على الأرض ٠٠ فيقول للخواجة ناعسة وافقت ولكن تريد أن تضمن لنفسها مستقبلا مستقرا اكتب لها الأرض ٠٠ كتب الخواجة موريس الأرض باسم ناعسة ٠٠ قام بدوى بتسجيل العقود ثم قام بتسجيلها باسمه مرة أخرى ، وهكذا استطاع بدوى الاستيلاء على الأرض دون علم موريس ، ولما طالبه موريس بتنفيذ الوعد ، وارسال ناعسة الى داره قال له انها تريد مالا تؤمن بها نفسها،واعطاهموريس المال ، وحضرت ناعسة بالفعل مع بدوى وقضيا يوما كامــــلا مع الخواجة وتنقلا معا يتفرجان على ضياعه ومزارعه ومشروعاته اكلا وشربا وضحكا ، ثم قال بدوى للخواجة موريس :

ـ أريد ان اترك لك زوجتى ياخواجة

قال الخواجة منزعجا :

ـ زوجتك من ؟

اشار بدوى وقد شبع أكلا وشربا الى ناعسة وقال :

ـ هذه

لطم الخواجة موريس نفاه فى حسرة ، اكمل عليســه بدوى وقال :

ـ والأرض صارت ارضى ، وصرت أنا شيخ المنشية ولى من الحرس والسلاح ما يكفى لقطع راسك فى الوقت الذى أشاء

قال الخواجة موريس فى بلادة :

ـ كل هذا من خلف ظهرى

قال بدوى فى حماس :

ـ بل من امام عينيك

قال الخواجة :

ـ وانا أعمى

قالت ناعسة بدلال زائد :

ـ عيناك لاتريان الاجمالى ياخواجة

صرخ الخواجة فى غلظة :

ـ اخرجا

وخرجا بدوى وناعسة ورحلا الى دار بدوى فى المنشية حيث عاشت ناعسة جارية لزوجها بدوى ، ومعهـــا كل أموال موريس تلك الأرض التى اغتصبها موريس من بعض الاهالى ، الذين اضطروا الى بيعها نتيجة حاجة العيال ٠٠

قالت نبوية موسى :

ـ لابد أن تلحق ببدوى قبل أن تأكله الناس

قال الخواجة موريس :

ـ وأين أولادك الثلاثة ، انهم مثل الثيران قولى لهم اذهبوا وحاربوا بجوار بدوى الذى أعطانا المال وصرنا به من الاثرياء

قالت نبوية موسى فى لوم :

ـ كنت أظن انك سوف تغضب لغضب رجلك وترسل جند البندر لانقاذه ٠

ابتسم موريس واعطى نبوية موسى علبة من دواء الســعال وقال لها :

ـ انام وحيدا فى دار كبيرة ، الك من مؤانستى واعطيك كل ما املك

قالت نبوية موسى وهى ترمى بعلبة دواء السعال على الأرض

ـ أصبحت عجوزا مخرفا ٠

وخرجت نبوية موسى من عند موريس وهى نادمة على انها جاءت الى البندر ولم يحسن استقبالها من قصدتهم ، فجلست على رصيف الشارع تبكى ، فاذا بطفل صغير يعطيها قرشا فى يدها ، نظرت الى القرش ثم الى الطفل وهو ينصرف مبتعدا وعلا نشجيها ، ثم وقفت متجهة الى ديار منشية البكرى ، علها تنسى هناك خيبة الأمل التى منيت بها ٠٠

(٨)

ذهبت ترك الى ديار البكرى ، طلبت مقابلة بكرى ، جاءها مسرعا اجلسها بجواره سألها عن أحوالها ، وقال لها انه يعرف ان المال نفد والطعام ايضا ، والناس فى كرب وبلاء يشتغلون بالسخرة لدى الشركة ، وهو لا يدرى كيف يدفع عن الناس هذا البلاء الكبير ٠٠ قالت ترك وقد سنحت لها فرصة الحديث :

ـ يمكنك ياسيد الناس

سألها بكرى :

ـ كيف ؟ !

قالت :

ـ تزوج الست رتيبة

لسعه كلامها ، وكاد يقفز لولا تعقل جاءه فاسكته ·· قال فى هدوء :

ـ أتزوج من ياست ترك ؟ !

قالت بنفس الهدوء :

ـ فكر فى الأمر ، من يملك الشركة ، ومن يملك أن يخفف عن الناس حياتهم أن الأهل صاروا مثل الموتى ، والبلاء عم ولا جابر الا الله ، والله أعطى لنا العقول لنتدبر بها أمرنا ، فدبر أمرك وأمر أهلك بعقلك ··

قال بكرى :

ـ بالزواج من الست رتيبة !

قالت :

ـ تزوجها وهذا حلال شرعا تملك مالها وتملك امرها وتحرر نفسك وأهلك وتفيد المعشية سلطانها

قال بكرى :

ـ انا لم أعد شيخا للمعشية

قالت ترك :

ـ تعيدك اليها وتعززك ، وتبعد المطاريد وأهل الشر وتعطيك من يمينها ما يقوى يمينك ، فلك الأمر والنهى عليها وعلى ما تملك هى ··

قال بكرى مستفسرا :

ـ اهى التى قالت لك هذا

قالت ترك مشجعة :

ـ وتكاد تجن عشقا بك ، بل وعدتنى باكياس من فضة ان جعلتك توافق ٠

قال بكرى :

ـ ولماذا ؟

قالت ترك :

ـ انا ادرى بالنساء منك ، فهى امرأة لم تتزوج وانصرفت عن الرجال تجمع للمال وادخاره وتطلعت الى السلطة والعزة فاخذت منها ما ارادت ، فاذا العمر يضيع أو تكاد يضيع ٠٠ وتلفتت حولها فاذا المال والجاه والعزة سراب ، واذا الفراش بارد تزوره ريح الوحدة والمرارة ورأت ان تشترى بالسراب عودا أخضر تستند عليه بقية عمرها ، واستعرضت الرجال فلم تجد خيرا منك ، ولا اشرف ، فاستخارت الله ، وعرضت نفسها عليك ٠ تاخذ انت المال والجاه والسلطة وتعطيها مؤانسة الليالى الباقية من حياتها ٠

قال بكرى :

ـ وانسى انها هى التى اوقعتنى فى هذا الذى انا فيه واوقعت اهلى فى مكر كانوا منه بعيد ٠٠ هل انسى ياخالتى انها هى التى سعت الى الشر حتى صار الشر هو السيد هنا ، هل انسى كل هذا واعطيها ايضا جسدى ٠٠

قالت ترك فى مداهنة :

ـ ياولدى ٠٠

قاطعها بكرى مزمجرا :

– لا ولد لك ان كان هذا هو رايك ، عودى اليها وقولى ان المال والأرض وكل شىء لله رب العالمين رزقنا عليه واتكالنا عليه ، ولا راد لما يريد هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، ومن افترى على فان الله لايرحم عبدا متجبرا ، ان الله يرحم من رحم نفسه ، فلترحم نفسها من مال جمعته غصبا ، ومن عزة هى لله وحده ..

صار لون ترك مثل التراب الأغبر ، غاص قلبها ، وهـــى ترى الشيخ بكرى مثل جده الكبير سيدى سالم ، والويل لمن يغضب عليه سيدى سالم ، وتولت المراة فى رعب وخرجت تسعى على يديها ورجليها ، فقد وهن منها العقل والجسد ، واحست بشيخوختها تكاد تقطم وسطها ، ماذا فعلت لهذا الرجل ، لقد تحول من رجل هادىء الى وحش كاسر ، لا ليس لى شان بهذه الست رتيبة ، مالى انـــا وزواجها من ابن الاكابر كيف اسعى الى زواج من عبد صالح لامراة تاكل مال النبى ، وواصلت ترك السير حتى تخطت عتبة دارها ثم رقدت وراحت فى سبات عميق ..

***

قام السرجانى من داره ولما سالته امراته الى اين هو ذاهب قال فى غيظ اقصد بيت الزيات ، وعند الزيات لم يجد ما يشفى غليله، سمع نفس الكلام الذى سبق ان سمعه بدوى على وشك الانهيـــار امام الأهالى ، وناس المنشية يريدون اعادة الشيخ بكرى ، والأهم من هذا كله أن الست رتيبة ذات العقل الكبير تعشق الشيخ بكرى وتزحف تحت رجليه لكى يتزوجها ، فاذا تزوجها هذا الشاب الذى يحب اهله اكثر من حبه للمال فانه سوف يطردهم جميعا من ديار المنشية ،

سوف يخسر السرجانى المال الذى يتدفق الى جيبه بلا حساب ، وسوف يفقد الزيات هو ايضا ذلك المال الذى بدأ يحس به ٠٠ لهذا توسعت تجارته واشترى العقارات واقام العمـــارات والبنايات ، واحاط نفسه بكل وسائل الراحة والرفاهية ، بل تعدت شهرته البندر وسمع به الناس فى الحواضر والبوادى كلها ، وقالوا أن القلوس التى معه لو وضعها على الأرض ووقف عليها لطال الشمس ولكنــه لم يفعل هذا فلا يزال فى قلبه بعض ايمان دفعه الى الســـفر الى الأراضى الحجازية ومعه نفر من أهله وهناك حج بيت الله وزار قبر الرسول عليه الصلوات وافضل التسليمات ، وعاد الى البندر محملا بالهدايا من كل لون ويقال انه عقد عدة صفقات مربحة هناك عادت اليه بالربح الوفير وكسب ايضا لقب الحاج وهو من الالقاب الكريمة التى تعطى حاملها هيبة دينية خاصة،وقام الزيات ايضا بالسفر الى عاصمة الحواضر كلها وتنزه فيها وقابل الوزراء والكبراء ودفع اليهم بهدايا كثيرة يقال أن احد الكبار حمل هدية الحاج الزيات الى مولانا المقيم بالقصر الكبير وانه بسبيل الحصول على لقب رسمى يفتح له الابواب المغلقة ٠٠ ورغم عدم اعتقاده فى وجود ابواب مغلقة أمامه الا انه وافق سعادة الكبير واظهر ايضا سروره ٠

ومن الافعال والأعمال التى قام بها الزيات ، الذى كان يعمل فى معصرة الحاج بدراوى الجمل ، ثم راح يتاجر فى زيت السيرج بعد ذلك ونسى الناس اسمه الأصلى محمد على حســـن المكوك ، واطلقوا عليه اسم محمد الزيات ، وبعد عدة أعوام أصبح أسمه الزيات وكفى أما أولاده الثمانية فجميعا يحملون لقب الزيات اسما لابيهم وزينب الزيات التى تزوجت من رجب العطار تاجرالحناءوقشر الذهب ، طلبت من ابيها ان يكون فرحها لم يسبق له مثيل ، وفعلا أقام الزيات فرحا استمر شهرا باكمله ، اكل الناس جميعا لحـــم

الخراف والأوز والدجاج والثيران وشربوا العسل المصفى وشراب التوت وتبلعوا بلقمة القاضى والفالوزج الطازج ، وسـهروا مع المنشدين والمنشدات ورقصوا على دقات الطبـول وانتشـوا مع نغمات المزامير كل هذا استمر شهرا كاملا لكل من هب ودب فقد كان الطعام يدلق فى الشارع دلقا ، وتترك الاوانى فى كل مكان مـلآى بالطعام ، وكان يقال ان اهالى البنادر المجاورة كانوا ياتون جماعات جماعات لياكلوا ويتفرجوا ثم يحملوا الى اهاليهم ما ارادوا ٠

هذا ماحدث فى شوارع البندر فى فرح بنت الزيات ، أما ما حدث داخل قصر الزيات وبحضور السرجانى والست رتيبة والشيخ بدوى وزوجته تاعسة وأيضا الخواجة موريس والكثير من أهـل المقام العالى من سكان البندر ، فانه يجل عن الوصف ويقف القلـم عاجزا عن شرحه وبيان ما تم فيه ، فقد كانت الخلاعة والمجون وماهو مخبوء من الفنون من فرق استوردها رجب العطار بنفسه من حواضر المـدن ، لا نجـد لهوصـف ولا يقـف عنـده خيـال ، فالشـراب ينسـاب من ابـريق من ذهـب والفـاكهة المعطـرة تـدور على الحاضـرين بواسـطة غلمان ارتـدوا ملابس العصور الغابرة ، وكان الشواء يتلوى على نار مصنوعة من شراب خاص ، يفوح لها رائحة الا رائحة الدهن المشوى ولا تتحدث عن المشهيات ولا المسليات ولا البهارات ، فان ذلك سـوف يجعلنا نشعر بالعجز عن الوصف لهذا نترك هذا كله ونتكلم عن ماحدث داخل المقصورة التى خصصت لاخص الخلصـاء لكل من رجب العطار العريس والزيات والد العروس ، ومعهما نفر قليل من اخص الخلصاء ، فان ماحدث فى تلك المقصورة ٠٠

قال السرجانى :

ـ تحدث الى يارجل ، نحن على وشك السقوط فى بئر الفقر

قال الزيات وقد تنبه الى الواقع :

ـ كفى الله الشر ، لاتكن متشائما

قال السرجانى :

ـ فكر اذن فى وسيلة لمنع زواج الست رتيبة من بكرى بن ابراهيم البكرى ..

الفصل الثانى عشر

(١)

توجه الزيات والسرجانى من فورهما الى دار الست رتيبة ، كانت تجلس تحت قبة الهواء فى صدر دارها ، وحولها سيدات يخدمنها وعندما رأت الزيات والسرجانى يقفان على راسها ، اشارت الى النساء فانصرفن وحضر اليها عبد الواحد الجرجانى كاتب الحسابات وجلس على يمينها وفى يده دفاتره ، تحدث الزيات فقال :

ـ اما وقد علمنا ما تنتويه من فعال لا يرضاها العقل ولا الدين فانا نحذرك تحذير الأخ لاخته والاب لابنته على أن تتركى هذا الأمر ، واذا كان بك رغبة فى معاشرة رجل فى الحلال فانا نعرض عليك انفسنا لتختارى منا من أردت ٠

قال السرجانى ملطفا :

ـ نحن لا نريد الا مصلحتك ، وكنت انا أول من تحدث معك بخصوص الزواج ، وأخى الزيات لا يقصد الا الملاطفة والنصح ، ونحن نرى أن تصرفى نظر عن ذلك الولد الذى يكرهنا جميعا ٠٠

استدارت رتيبة الى كاتبها وقالت :

ـ أنظر ياعبد الواحد فى دفاترك ، وأحص لى أموال الزيات والسرجانى ٠

قال الزيات مرتبكا :

ـ لا وقت لحساب بيننا ٠

قال السرجانى :

ـ ياستنا ما قصدنا نتحاسب ولا نتعاتب ، انما قصـــدنا التشاور والتحاور ٠٠

قال الزيات :

ـ نريد أن نعرف لماذا هذا الزواج ، وماذا يعود عليك منه ٠

قالت رتيبة فى اصرار :

ـ انظر ياعبد الواحد وقل لهما كل الارقام ، ومن رغب فى اخذ أمواله سلمها له فى الحال ٠

وقفت رتيبة فوقف التاجران ، وكذلك وقف عبد الواحد ، وقام الخدم الذين كانوا يقدمون الحلوى ، ولكن رتيبة أشارت الى الجميع بالمكوث ، واندفعت هى نحو حجرتها الخاصة ، ولم يجد الزيات والسرجانى مايفعلانه غير الانتظار وأكل الحلوى ٠

(٢)

قالت غزالة ان زواج رتيبة من بكرى هو نهاية المنشية وقالت لن يبقى لنا فى هذا الجبل الا الحزن والكرب ، وعلينا أن نذهب الى بلد آخر ، قال فكرى كنت أحب أن أعيش هنا ، ويأتى أولادى من بعدى ليقيموا واديا جديدا ولكن ليس كل ما يريده ألانســــان يدركه ولله فى خلقه شئون !

(٣)

قالت مبروكة لزوجها :

ـ ها قد لزمت الأرض يازوجى ، ولم تعد كما كنت ، سوف يتزوج بكرى من الست رتيبة ويعود الى المنشية الغنى والمال وانت قعيد الدار لاتبرحها

اشاح زوج مبروكة بوجهه ، قالت :

ـ معك حق ، وانا أيضا لم تعد لى حيلة الا النظر الى السماء وطلب الغفران من الله ، وليتزوج من يشاء بمن يشاء ، اين أنت ياسيدى سالم ؟ !

ونامت مبروكة وهى جالسة

ابتسمت ناعسة وهى ترنو الى بدوى فى دلال ، كانت قد خرجت لتوها من الحمام ، وتدلى شعرها الفاحم على ظهرها وتكورت حبات الماء المتساقط من شعرها الأسود على بياض صدرها ، ولمح بدوى لحم بطنها من خلال قميص شفاف ، أحس بالحسرة على العمـر الذى مضى والشباب الذى ولى ، أين تلك الايام التى كان يتمنـى فيها مجرد نظرة الى وجه المليحة ناعسة ، أين تلك الليالى التى سهر فيها وهو يحاول احضار وجه ناعسة فى خياله ، الآن هى أمامه ، تتمايل وتتدلل ويتساقط من جسدها نقط المـــاء البارد · ويرتعش صدرها تحت قميصها الشفاف ولكن بلا رغبة ضاع العمر يابدوى ولم يعد لك الا النظر فانظر لعلك تتأسى بما تراه ··

قالت ناعسة وقد احست بعيون بدوى تدلكها ،

– يابدوى لاتكدر نفسك بزواج بكرى من الست رتيبة !

لدغته العقرب فى قلبه ، لم تتركه يتمتع حتى بالنظر ضـاع عمره فى التقرب اليها ولما بلغها كان الوهن والعجز وقد ادركه ، قال فى قسوة :

– مالك أنت وهذا الأمر ؟

انهدمت جالسة وقد رشقها بدوى بلســانه الحاد ·· قالت معاودة لدلالها :

– اخشى عليك ، الست امراتك التى تهواك ·

زام بدوى وقال :

– اذن لا تتكلمى بكلام لا احب سماعه

سمعا طرقا غليظا على الباب ، اسرعت ناعسة بالاختباء فى حجرتها وهى تتصنع الحياء والخفر ، نادى بدوى على الطـــارق واذن له بالدخول ·· وجده عبد المولى ·

ـ ماذا بك ياعبد المولى اقلقتنى

قال عبد المولى وهو يلهث :

ـ رجال المنشية مقبلون علينا

قال بدوى :

ـ انا لم آذن لهم بـــذلك وليس هنـــاك مايدعو لاجتماع او الى مجلس اطردوهم فانا مشغول البال ·

قال عبد المولى ، وقد شعر بالاسى من اجل ســـيده وولـــى نعمته :

ـ ياشيخنا انهم جاءوا لكى يخلعوا عنك ما انت فيه

ووقف بدوى مفزوعا ـ احس وهو يقف أن ظهره يكاد ينقسم الى قسمين اسرع واسند ظهره للحائط ·· قال :

ـ وأين الحرس ؟

قال عبد المولى :

ـ يفرون ياشيخنا ـ لم يبق حولك الا نفر قليل ، وبينهم وبين ابنك عداوة

ـ ابنى ؟ !

قال عبد المولى :

ـ مر رجالك أن يسلموا أسلحتهم ، ان مكنتهم من ضرب أهلك فسوف يقتلون ابنك أول من يقتلون

قال بدوى فى خوف واضح :

ـ وأنا

قال عبد المولى فى ضراعة

ـ انقذ ابنك ياشيخنا ، وانا اطلب لك السلامة

قال بدوى :

ـ وانت أيضا ياعبد لمولى

قال عبد لمولى :

ـ أنا فداك ياشيخنا ، ولكن ولدك فى وجه بنادق رجالك مرهم الا يضربوا . ودفع عبد المولى سيده بدوى الى الخارج دفعا ، كان يسمع ولولة ناعسة وفزعها ، وكان بدوى لا يكاد تحمله قدماه .. أوقفه عبد المولى خلف حائط الحرس ، كان الحرس يمسكون البنادق فى اصرار ، قال بدوى فى ضعف :

ـ دعوهم يدخلون

نظر اليه أحدهم وتفل على الأرض ، تراجع بدوى متخاذلا

لكزه عبد المولى وقال له فى أمر :

ـ مرهم بعدم اطلاق النار

ردد بدوى خلفه :

ـ لا تطلقوا النار

التفت احد الحراس نحو بدوى ، رآه من فوق الحائط صوب بندقيته نحوه وارداه قتيلا ، سقط بدوى فى صمت ، نظر عبد المولى نحو الحارس الذى استدار وبدأ فى اطلاق النار صعد عبد المولى الحائط وقطع رأس الحارس ، ورماه الى الناس صاح الناس فى هرج ، اشتبك من بقى من الحرس مع عبد المولى وأهل المنشية ٠

(٥)

يقال ان حرس بدوى استطاعوا قتل عبد المولى ثم فروا ، ويقال انهم ماتوا جميعا تحت احجار السور عندما هدمه الرجال وهــم يقتحمون قصر بدوى ، وهناك اشاعات حول اختفاء رجال حــرس بدوى فى دهاليز اسفل القصر كان بدوى قد بناها لهروبه ، وأن ناعسة امرأة بدوى حملت كنوزه وأمواله مستخدمة تلك الدهاليز حتى خرجت من المنشية وعادت الى البندر ، ولكن ما شاهده الناس جميعا ان الجدار الذى كان يحيط بالقصر انهدم تحت شدة هجوم الناس ، وأن عدوى جرى حتى استطاع ان يعثر على جثة ابيه ودفنها فى مدافن الأسرة بعد جناز قصيرة وأن بكرى امر الا يلمس أحــد محتويات قصر بدوى ولا يخربه احد ، وقال لهم انه ملك أهل المنشية وليس ملكا لأحد ، وعندما بحثوا عن ناعسة لم يجدوها ، وسمح بكرى لأربعة من الرجال بالبحث فى القصر ومعهم عدوى ، ثم اقام عليه حرسا من رجاله ٠

(٦)

وافق بكرى على زواج غزالة من الطبيب فكرى واقــام لها عرسا على طريقة البكرية ..

(٧)

اقبلت الست رتيبة لزيارة شيخ البكرية للتهنئة والسلام .

(٨)

قال عدوى انه لم يحزن لوفاة ابيه هو حزين لحال المنشية فلم يتغير شىء بعد مقتل أبيه وفرار ناعســة وقدوم الســت رتيبــة للتهنئة ..

وقال للرجال ــ أن العمال لا يزالون يعيشون فى المنشية فسادا ولا تزال الست نبوية موسى تدير محلات اللهو والطعام والشراب . وأيضا ازدادت ثروة محمد حسن القهوجى ، ولا تزال بيوت المنشية خربة ، وتكاد الست مبروكة ان تموت من البرد بسبب سوء دارها ، أما بكرى فلا يزال يفكر فى الخطوة القادمة والناس فى المنشية فى انتظار أن يسوقهم مثل الغنم وسأل فتى كان قد ولد بعد السيل :

ــ شبعنا كلاما ، منذ أن ولدت أنا وأنت تتكلم ، افعل شيئا .

قال عدوى وهو يتأمل الفتى الذى ولد رغم كل هذا القهــر والعذر وسوء الحال فى المنشية .

ـ لو كنت قادرا على الفعل ما انتظرت لكى تدعونى اليه ، القادر على الفعل يابنى هو أنت ٠٠

احتار الفتى فى الرد ، ولكنه قال :

ـ ألا تقول لنا ماذا نفعل ؟

قال عدوى وقد سالت دموعه على خده :

ـ الذى يفعل هو الذى يجب أن يفكر فيما سوف يفعله

ولزم عدوى الصمت ولم يتكلم ٠

(٩)

قام سيد البكرى من نومه فزعا نظر الى كريستيل كانت نائمة، كان الحلم فظيعا ، رأى فى المنام أنه يذبح ابنه كريم ، بكى الطفل وصرخ ولم يرحمه أبوه وذبحه ، أفاق سيد البلكرى وتحسس صورة ابنه ونظر الى وجه زوجته ، ترك الفراش وتوجه الى حجرة الطفل. كان الطفل نائما يبتسم ، وضع سيد يده على رأس طفله تأكد أنــه حى ، أحكم الغطاء على جسد طفله وقرأ عداد الحرارة ولاحظ هبوط الحرارة فى حجرة كريم ، هبط الى الدور الأرضى ودخل حجـرة التدفئة ولاحظ أن الزيت قل فى خزان ماكينة التدفئة ، قرأ العدادات ونظر من النافذة ولاحظ كثافة الثلج المحيط بالنافذة من الخارج ٠٠ تقول الارصاد أن شتاء هذا العام لم يسبق له نظير ، خرج سيد الى صالة الدور الأرضى وجلس بعد أن أحضر علبة شراب باردة أخذ يشرب وهو يتصفح بعض المجلات ، شاهد صوراً من بلاد أفريقية ، كانت أجساد الاطفال تبدو مثل أعواد الحطب الجافة وكان ســواد البشرة مدعوكا بالصفرة ، ولاحظ انتفاخ بطون الاطفال الرضــع

وضمور بقية أجسادهم ، عرف أن ذلك بسبب نقص الطعام ، كانت المجلة تتحدث عن المجاعة فى افريقيا ، قرأ سيد البكرى التحقيق المكتوب عن المجاعة ونداء الى مترهلى الثراء الأوربى لمساعدة الجوعى فى افريقيا بحفنة قمح ، وقرأ سيد أخبار نجوم الفن الذين تطوعوا بالغناء من أجل انقاذ الآثار الغارقة فى النيل ·

ولفت نظره المزاد المقام لبيع ورقة من أوراق الرئيس الفرنسى الراحل ، وحكاية تزوير مذكرات هتلر ، وقرأ أخبار المعركة الدائرة الآن بين نادى (البرخت) ونادى ميونخ ، وشاهد صورا للمعركة التى قامت بالايدى بين مشجعى نادى الرايخ الرابع ومنتخب (شتوتجارت) واحصائية بعدد القتلى والجرحى بين مشجعى الفريقين لاحظ أن المعركة الحربية هذه كان لها مثيل فى انجلترا بين مشجعى ناديين لكرة القدم وسقط أكثر من مائة قتيل والف جريح وخسائر مادية قدرت ساعتها بعشرة ملايين من الجنيهات ·

قلب سيد الصفحات وشاهد صورا لديانا اميرة ويلز وزوجة ولى العهد وفى الصفحة المقابلة خبر ولادة بقرة فى المعرض الزراعى بفرانكفورت ، وخبرا عن معرض الخنازير المقام فى مدينة (كولن) واخبارا عن بيع سيارات مستعملة ووظائف خالية ، ونداء من حزب ربات البيوت بضرورة الامتناع عن شراء طماطم السوق الاوروبية وتذكر سيد البكرى لحم البقر الذى أوصى حسين التركى باعداده له ، وتشوق سيد البكرى لأكلة فتة باللحم الضانى ، او لحم البتلو ، دقت الساعة معلنة الخامسة صباحا ، لمح زوجته وهى تهبط فى تكاسل ، القت اليه تحية الصباح ، ثم دخلت المطبخ لكى تعد لهما براد القهوة سمع صفيرا متقطعا صادرا من جهاز الاشارة والاستدعاء من المستشفى ، ارتدى بنطلونا كان معلقا على شماعة

الشماسى بجوار الباب واندفع خارجا ولم يشـــرب القهوة ركب سيارته منطلقا نحو المستشفى ، فى السيارة ادار جهاز التســجيل واستمع الى اغنية لأم كلثوم ، بدت أم كلثوم خلال الغابـــة التى يخترقها شيئا خرافيا كان المطر ينهمر بشدة والثلــج يتكاثف على السيارة رغم تشغيل جهاز تدفئة زجاج السيارة وكانت الشوارع تبرق على ضوء مصباح السيارة ، وقد تجمع الثلج على جانبى الطريق ، شاهد جماعة من الاتراك وهم يقومون بتشغيل آلات كنس الثلج من الطرق كانوا مثل قنافذ الماء غطوا أجسادهم بأرديه ذات فراء جعلتهم مثل القطط البرية ، اشار سيد البكرى الى عمال الثلج ولكنهم لم يشعروا به ، كان يؤمن بأنه ينتمى الى هؤلاء ، فهم أيضا مسلمون يوحدون الله ويتكلمون الالمانية والتركية ويذبحون الابقار على الشريعة الاسلامية ولا يعرفون غير هذا ٠

دخل سيد البكرى المستشفى ، وأحس فورا بالدفء ، والامان دلف الى مكتبه ولاحظ وجوم مساعديه ، همس بتحية الصـــباح وارتدى البالطو الأبيض واستعد للقيام بعمله قالوا له أن المريض من جنسك ، ولما تأمله فى حجرة العميات عرف انه غجرى من الغجر الرحل أبدى دهشته للمساعدين وقال انه غجرى المانى ، قالوا لــه ليس هناك غجر المان ان كل الغجر يأتون من بلادكم ٠

قام سيد البكرى بإجراء الجراحة اللازمة ، كانت صعبة وشاقة لأن الرجل الغجرى اصيب بطلق نارى نفذ الى قلبه سأل عن استاذه قالوا له كيف تستدعى رئيس القسم من اجل هذا المافون ، وأشاروا الى المريض ، عرف سيد أن الرجل لن يدفع لهم شيئا فهو مجــرد مريض رماه الحظ السيىء اليهم ، انتهى سيد من العملية ، وذهب الى مكتبه وشرب القهوة فى كوب كبير ، نظر خلفه ، كان قــد

علق آية قرآنية جميلة الكتابه ، جاء زميله اليوغسلافى وأخذ يتحدث عن استيائه من معاملة رئيس القسم الألمانى تحدث اليوغسلافى عن أشياء كان سيد يتجاهلها فعلى الرغم من جنسيته الالمانية الا انهم يعتبرونه من الغجر ، حركت كلمات اليوغسلافى أشجان سيد وكانت هذه أول مرة يفكر فى العودة الى منشية البكرى ، اندفع خارجا من المستشفى وركب سيارته ٠

عاد سيد البكرى الى منزله ، تكلف المنزل مبلغا كبيرا امتص جزءا كبيرا من مدخرات سيد لا يزال سيد يفكر فى العـــودة الى دياره ، العودة الى أحضان أمه وتذكر انه غجـــرى وانه غريب ، وضع السياره فى الجراج ، صعد الى الدور العلوى وجد زوجته تجلس مع أصدقاء لها يتحدثون عن رحلات الصيف ولما جلس بينهم كفوا عن الحديث أحس أنه غير مرغوب فيه ، وقام ، جلس مع ابنه كريم قال له الطفل (أن أمى تقول أنك أجنبى) نظر سيد الى ابنه فى دهشة قال الطفل (أنا لا أحب الأجانب) ، حاول سيد أن يلعب مع الطفل ولكن الطفل أبعد لعبته فى جفاء ٠

مضى سيد الى المطبخ متذكرا أكلة الفتة بالثوم ـ انهمك فى صنع الفتة واللحم دندن بأغنية شعبية عن الثريد واللحم ، كانت رائحة الطعام قد وصلت الى أنوف الضيوف ، اندفعت زوجته الى داخل المطبخ وهى تصيح فى وجهه :

ـ أنت مثل الثور ـ بل أنت فعلا مجرد ثور

أغاظه صياحها قذفها بالاناء المملوء بالثريد المغطى بقطـــع اللحم ، انهمر عليها الثريد ساخنا ـ صرخت فى ألم وجرت خارجة ٠

(١٠)

قررت مجموعة عدوى بعد انضمام فكرى اليهم ضرورة اعادة بناء دار مبروكة بسواعدهم ، وانهمك الجميع فى ذلك وبدأ الحفر لاخلاء الدار من الهدم والردم وانضم اليهم بكرى ومجموعة أخرى من الرجال ـ ثم انضم اليهم مجموعة من الفتيان وبدا واضحا أن مبروكة وزوجها يحظيان باهتمام المنشية ٠

(١١)

قالت ترك للست رتيبة وهى تواسيها :

ـ أنه مجنون كيف يرفض ست الحسن والجمال

ابتسمت الست رتيبة فى تهكم ، قالت ترك ـ ولا يهمك استطيع أن اسعى عند من هو أفضل منه ٠

كانت رتيبة فى حالة يرثى لها فقد رفض بكرى مجرد مقابلتها ولطم محمد حسن عندما حاول أقناعه بمقابلتها ورفض طلبها ، بل أن عدوى نفسه طالبه بأن يرفضها بعد أن يقابلها ولكن بكرى صرخ فى وجهه ، وعرفت الست رتيبة انها لن تستطيع الوصول الى بكرى ، ورجعت الى البندر وقد انهدم داخلها شىء ما ٠ كانت تجلس أمام ترك دون روح ، مجرد وجود أدمى لم يعد راغبا فى الحياة ، كان كل جسدها يشكو من الألم وترك تقول لها أزوجك خير منه ، كيف ؟ بعد بكرى لاشىء لاحياة ، لا أمل ، كان حلما ومضى كان عمرا وفقد ٠٠

(١٢)

همس الزيات فى أذن السرجانى :

ـ حان الوقت للتخلص منها ٠

أومأ السرجانى وقام من فوره وقصد دار رئيس الجند وفى ركابه الهدايا اللائقة ٠

قال كاتب رتيبة للقاضى ٠

ـ أن الأوراق صحيحة وأن السيد محمد حسن الزيات صادق وأيضا شريكه محمود بن على السرجانى ، قال القاضى أن الأمر يستوجب أعادة الامور الى نصابها ، وأحقاق الحق لصـــاحبيه ، ومجازاة الست رتيبة لتكون عبره لمن يعتبر ـ وأنهى المحاكمة وقام لصلاة الظهر ، بينما توجه السيدان الزيات والسرجانى الى قصر الزيات فى المدينة الكبيرة لمقابلة ذوى الحل والربط لأخذ التصديق الواجب على أحكام القاضى ، هذا ما كان من أمر السيدين المذكورين أما ما كان من أمر الست رتيبة فقد شربت المر والحنضل عندما علمت بخبر الاصدقاء ، ضربت الكاتب ومساعديه ولطمت الخدود ، وشقت الهدوم وقالت :

ـ وجب الانتقام من هؤلاء اللئام ٠

(١٣)

اصطدمت فأس الولد عبد العزيز بن محمود التيجانى بحجر صلد مغروز فى الرمل صاح مستعينا بالولد هشام أبن عمه ٠

ولما حضر هشام للمعاونة لم يستطع ، وذهب ينادى عمه محمود ، ولكن لكان عمه مشغولا فى تحضير المونة ، فقصد محمود بن نوفل الشهير بالجحش ، أندفع محمود الجحش الى الولد عبد العزيز وقام بخلع الحجر بضربة واحدة ، أحس محمود الجحش بالزهو ، ولكن صراخ هشام جعله يفيق من زهوه ويرى عبد العزيز وهو يخرج صرة معقودة خطف محمود الصرة وتحسسها ثم صاح الناس :

ـ الكنز ··· الكنز

اندفع اليه الكثير من الرجال ـ وفتحوا الصرة فاذا بها ملآى بالفلوس وقطع الذهب وجنيهات من ذهب أيضا ـ والكثير من الخواتم والحلى وبعض الأوراق الممزقة التالفة ، تجمع كل الناس ـ ووصل الأمر الى مسامع بكرى فحضر على الفور وكانت مبروكة قد سمعت بما حدث ، وجاءت تجرى وهى تصرخ :

ـ فلوسى ·· فلوسى

قام زوجها من رقاده واخذ يهذى بكلام غير مفهوم ، امسك بكرى بالصرة بعد أن كممها وقال :

ـ ياست مبروكة اذا كان فى الصرة مالك فصفى لنا ماهو ··

اخذت مبروكة تحصى من ذاكرتها ، مافى الصرة ، وحددت الاوصاف والاحجام والارقام كانت تسرد بسرعة لم يستطع عدوى ومحمود بن نوفل ملاحقتها فى العد ، فطلب منها بكرى التروى ، حتى يتاكد من صحة ما تقوله ، وكانت تصف دون أن ترى ما فى الصرة وهما يحصيانها امام جمهرة من الرجال ذوى السمعة الحسنة ·

ولما انتهت مبروكة من ذكر كل ما فى الصرة ، وصدق الشابان على كلامها وأيضا جمهرة الرجال ، انهدت جالسة وقد استراحت وجاء اليها زوجها سعيدا كأن الحياة الشابة قد عادت اليه ، وراحا يضحكان معا ويرفعان ايديهما الى السماء شكرا وحمدا وهمـــا يضحكان تارة ويبكيان تارة أخرى ، الى ان قالت مبروكة :

– ياشيخ بكرى لقد ربحت كل هذا من الناس والى الناس تعود هذه الفلوس ٠

راجعها بكرى عدة مرات ، فقالت فى حسم

– هذا الكنز ليس ملكى ولا ملك زوجـــى ، من الآن قـــد صار ملكا لمنشية البكرى خذه ياشيخ بكرى واشترى به نفسك من الست رتيبة واشترى أولادى من شركاء الست رتيبة ٠

هلل الأولاد ، وزغردت النساء ، وأبدى الرجال دهشتهم وصفق الشباب ، وانتشى الفتيان ، وقبض بكرى على الصرة وأعلن فى نشوة ٠

– سمعتم ما قالت أمى مبروكة – وها هو المال قد صار لنا – وعده واحصاؤه صار معروفا لنصنع به ما أشارت أمنا ٠

قامت مبروكة وقبلته على جبهته وبكت – قال بكرى :

– لن نبرح مكاننا هذا الا ودار أمنا مبروكة جاهزة لسكناها كأحلى ما تكون الدور ٠

الفصل الثالث عشر

(١)

قال الموظف لسيد بكرى أن القرض الذى اقرضه لمدينة برلين لايمكن استرداده قبل مضى خمسة أعوام ، وان ارباح القرض تدفع بانتظام وتحسب فى حسابه فى البنك ـ ولكنه اذا اصر على اخذ امواله فان هذا سيكلفه الكثير وسيحتاج الى وقت طويل ٠

(٢)

قالت كريستيل فى حسم :

ـ لن أسافر معك

قال كريم فى تحد وهو ينظر الى امه :

– انا لست اجنبيا ولن اسافر ٠

قال رئيس القسم فى دهشة :

– يسعدنى سفرك وابتعادك عن هنا ، ولكن كيف تترك مليونا من الدولارات تكسبها كل عام ، ثم كيف تتصرف فى المبانى التى اشتريتها بقصد استغلالها ، وهل نسيت قرضك لمدينة برلين ، انـه خمسة من الملايين ٠٠ انت فعلا مجنون ٠٠

قالت له زوجته وهما يجلسان معا على العشاء ٠

– تذكر ان لى النصف واذا اردت السفر فانت حر

قال له ابنه كريم

– وأنا يا ابى ، اليس المال ملكى كما كنت تقول فكيف تريد أن تأخذه منى الآن ٠

(٣)

اشترى سيد البكرى تذكرة سفر بلا عودة

بهت بكرى عندما تحدث اليه عبد العال ومجاهد وأحمد بن نوفل وقال فى دهشه ٠

ـ اتريدون اقتسام المال

اومأ الرجال علامة الايجاب وقال أحمد بن نوفل

ـ ليس هذا هو رأينا وحدنا ٠

انتظر بكرى قليلا ، فقال احمد بن نوفل

ـ هذا رأى كل الناس

صرخ بكرى :

ـ والأرض المرهونة والقروض وثمن المكن والآلات وحكم المحكمة والشركة ؟

قال عبد العال :

ـ كل واحد يأخذ نصيبه ويتصرف ٠

قال بكري :

ـ كيف نترك الأرض للشركة ؟

قال مجاهد :

ـ لا تتعب نفسك ، الناس جميعها اتفقوا على هذا الا انت ٠

قال بكرى فى ثقة :

ـ وأنا شيخكم وولى الأمر وعليكم الطاعة

قالوا معا فى صوت واحد :

– لن يعود الزمن الى الوراء ٠

هجم بكرى عليهم يريد ضربهم ولكنهم ولوا منه فزعين ٠

(٥)

بلغ هياج الناس مبلغا كبيرا – كانوا يريدون اقتسام الكنز ، صارت هوجه بين أهالى منشية البكرى ، الكل يريد جزءا من الكنز، ولكن الكنز مع بكرى وبكرى لايريد توزيعه ، يناصره أولاد عمه وعلى رأسهم عدوى ، وتحاول غزالة أن تجعل النساء يشتركن معها فى تأييد قرار عدم التقسيم حاولت أن توضح لهم أن الأرض المرهونة أولى بالخلاص من الرهن وأن الأرض سوف تعطيهم كل شىء ، ولكن النساء أعرضن عنها ، بلغت تقديرات الكنز الى ارقام خيالية والى زيادة اللهفة على تقسيمه ، قام عبد الرزاق وأحمد بن نوفل وشفا هجوما على دار البكرى ، لم يسفر عن شىء لأن الدار متينة البنيان وربض أولاد عم بكرى خلف أسوارها – ولهذا فشل عبد الرزاق وأحمد بن نوفل ، ولكنهما لم ييأسا – ذهبا الى عائلات نوفل والخضرى وأبو زينهم وحشدوا منهم عددا كبيرا ونادى المنادى فى الناحية القبلية من المنشية على الجهاد فى سبيل تخليص الكنز من أيدى أولاد البكرى ، ولما قام الرجال بالهجوم على الناحية الشمالية حيث يسكن أخوال أولاد البكرى – شج رأس ابن عم على البكرى خال غزالة بفعل عصا غليظة كان يحملها مصطفى الخضرى – ذاع الخبر فى أرجاء الحى الشمالى وقالوا أن ابن عم على

البكرى مات ، فقام أولاد على البكرى وراضى والشربينى والتهامى بالتجمع حاملين العصى الغليظة ثم شنوا هجوما سريعا على الحى الشمالى أسفر عن وقوع ثلاثة جرحى وهروب ساكنى الحى الشمالى كله ، سعد أولاد على البكرى وعادوا ليجدوا أن غزالة وضعت مرهما على جرح راس ابن عم على البكرى وانه يلعب فى الحارة مع أولاد عمته ٠

قال مصطفى الخضرى انه لن يهدأ الا اذا خلع بكرى عن المشيخة ، وكذلك اقسم الحاج نوفل الكبير وأولاده الخمسة وبلغ الأمر مسامع أولاد كريم الزناتى أولاد عمة بكرى البكرى ـ فقاموا من فورهم واشتبكوا بالايدى مع أولاد مصطفى الخضرى والحاج نوفل ، وصار كل واحد من الناس له رأى فى الحاصل الذى يدور فى المنشية وضحك محمد حسن وهو جالس على مقهاه ولكن احد الاطفال قذف محمد حسن بطوبة فسكت محمد حسن وقام من فوره الى دار نبوية موسى لاستشارتها فى الأمر ٠

صار الناس يتقاتلون بسبب وبلا سبب أما بكرى فقد بلغه من جماعة من الناس أن رجلا أفنديا له هيبه دخل المنشية وسأل عن دار ابراهيم البكرى ، فأسرع بكرى ليقابل هذا الافندى ٠

(٦)

قالت مبروكة لزوجها :

ـ وكأنى لمحت سيد البكرى الساعة ٠

ابتسم زوجها وفتح فمه الخالى من الأسنان وقال :

ـ وانا ايضا رايته

قالت مبروكة فى فرح :

ـ يعود حقا سيد البكرى ؟ !

بكى زوجها من شدة التاثر وقال لها :

ـ اريد أن انام ٠

كانت مبروكة تطل على بحر الاسكندرية وسيد يقول لها :

ـ اريد أن أرى ما بعد البحر ٠

صرخت مبروكة فى فزع وقالت :

ـ اياك ياولدى

قال سيد وهو يرمى بطوبة صغيرة الى الماء :

ـ لابد أن هناك فى آخر هذا البحر شطا ٠

قالت مبروكة وهى لاتزال تطل على الماء الأزرق :

ـ لن تعود ياولدى اذا ذهبت الى هناك ٠

سرى خبر عودة سيد البكرى فى دور المنشية ـ قبل ان يصل سيد البكرى الى دار ابراهيم البكرى ، ورغم هذا فقد ظل الناس يتقاتلون ، وقال مصطفى الخضرى فى مرارة :

ـ عاد الغريب لكى يقاسمنا الكنز ٠

قال احمد بن نوفل ٠

ـ من ادرانا أن هذا هو سيد البكرى ابن ابراهيم البكرى ابن سالم البكرى قال الجحش ، وهو محمود بن نوفل :

ـ حقا ، أنه رجل مثل رجال المدينة الكبيرة ، لابد أنه جاء ليأخذ الكنز منا ·

قال محمد بن مندور :

ـ تقصد أن الحكومة تأخذ الكنز ·

كان لكلام محمد بن مندور فعل السحر ، فقد اندفع الجميع الى دار البكرى وكلهم تصميم على الحصول على الكنز وحرمان الأفندى وأولاد البكرى من الكنز ·

قال سيد ناظرا الى بكرى :

ـ أنت بكرى بن ابراهيم البكرى

قال بكرى :

ـ لا أعتقد انك سيد أخى ، سيد مات فى الاسكندرية ، غرق فى البحر من خمسة وعشرين عاما ·

قال عدوى :

ـ بل هو سيد ابن عمى ، ولماذا اتشكك من صحة قوله ،

قال فكرى وهو ينظر الى سيد :

ـ الأوراق تثبت

قال بكرى فى غيظ لفكرى :

ـ اتفهم ايضا فى هذا يادكتور ·

نظر سيد الى فكرى وسأله :

ـ طبيب ؟

لم يدع بكرى لفكرى أن يجيب ، قال فى حدة

– لا شأن لك بأحد هنا ، لا نحتاج الى المزيد من الأزمات ، عد الى مدينتك ٠

رفض بكرى الاســـتماع الى أقــوال ســـيد ، كمـــا رفض الاستماع الى أقوال عدوى وفكرى كان لكل عقله فى كيفية أنهـــاء القتال الدائر بين الناس فى الحوارى والدور سمع الجميع صوت استغاثة قادمة من الناحية الشمالية – أندفعوا جميعا نحو مصدر الاستغاثة ٠

(٨)

جلس سيد على كومة رماد محترق ، وكان يشـــم رائحـــة الاحتراق فى كل شىء رائحة الاحتراق تملأ صدره وتخنق عقله ، أدار بصره فيما حوله عشرات من الدور محروقة لم يفهـــم لماذا حرقوا هذه الدور ، سأل ولم يتلق أجابة ، كان يشعر أن بكـــرى شقيقه الصغير لا يملك لهذا الأمر تفسيرا ، كما لايملك أن يوقفه – تحول الجميع الى قتله وسفاحين ومحترفى حرائق ، ونادى ســـيد بأعلى صوته :

– ياسيدى سالم ٠٠ ياسيدى سالم

لم يجب أحد كانت رائحة الحرائق تدق رأسه ، وصوت بكاء النساء يمزق قلبه ، ووجه ابنه كريم يطل عليه ويسأل :

– هل أنت غجرى يا أبى

لا ٠٠ صاح سيد البكرى – أنا أبن جدى ، أنا شداد ، أنا وهدان ٠٠ أنا عنتر أنا من سقى الوردة السكر – أنا من قال فى

العشق والطب والمنطق ـ أنا من صعد جبل المجد وتمخطر ، أنا ٠٠

ـ سيدى سيد ٠٠ سيدى سيد

أنتبه سيد الى يد طفل تجذبه ، نظر اليه ، قال الطفل فى لهفة حزينة :

ـ عمتى غزالة تموت ٠

غزالة ، لا ٠٠ أنا قادم ياابنة العم ، انا لم ارحل هباء ولـم اعد هباء أنا قادم لامنع عنك الموت ٠

(٩)

كانت المحكمة قد شكلت لجنة من الخبراء لتحديد موقف كل من المدعو محمد محمد على الزيات ومحمد حسن السرجانى للبت فيما جاء على لسان صاحب الجند وأيده رئيس البصاصين ٠

(١٠)

يقال أن حظر التجول فى المنشية استمر ســـنوات عدة وأن الناس كانوا يحبسون فى بيوتهم من بعد صلاة المغرب الى ما بعد صلاة الضحى ، وكانت حوائج الناس صعبة المنال ، حتى أن لقمة العيش صارت بدينار وحفنة الفول الناشف بخمسة دنانير ٠

(١١)

تهامس الناس باقوال بعض الرجال الذين عادوا مؤخراً من سجن البندر والتى تقول بان سيدى سالم ظهر فى البندر ، ووعد بانه سوف يحضر الى المنشية ليعيدها الى الطريق القويم ٠

(١٢)

ابتسم عدوى فى ود لسيد البكرى عندما عاد سيد بابنه كريم لكى يعيشا بقية حياتهما فى المنشية ٠

(١٣)

قالت غزالة لاحفادها :

ـ انه يجب الا ينسى الاحفاد مازرعه الاجداد وايضا ما حصده الآباء ٠

(١٤)

هذا ما كان من أمر أولاد بكرى فى منشية البكرى ــ ولكــن ما حدث مع أولاد السرجانى والزيات فهو أمر أغرب من الخيال ، وروايته هنا من المحال يمنحنا الله العمر لكى نحكى لكم ما كان منهم وما كان من أمر من تسيد عليهم ٠

تمت بحمد الله

فتحى سلامة

الفهـــرس

رقم الايداع ١٩٩١/٩٢٤٧

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 2902 — X

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب